ڤلاديمير بارتول



قلعة النّسور

ALAMUT آلاموت

رواية تاريخيّة

نقلها إلى العربية بتصرف

العميد المتقاعد طلعت الأيوبي

مؤسسة بحسون
للنشر والتوزيع

قلعة النّسور : رواية تاريخيّة تقاطرت فيها الاحداث وتشعبّت حولها الآراء ، وتباينت فيها الوقائع من حقائق ومغالطات معبّرة عن حقبة من الزمن تزاحمت فيها الأحداث لتُسطّر مواقف رجال حملوا آراءهم ومعتقداتهم فدافعوا عنها وفرضوها ... وبقيت راسخة ثابتة ثبات القلعة العاتية .

يتأرجح الزمان طاوياً في غياباته رجالاً ورجالاً ، تاركاً للأجيال حكايات فيها من الأسطورة الكثير ومن الحقيقة الأمر اليسير ، ولكنها ، وعلى طي الأيام ، بقيت تروي ظمأ عقول أجيال تعاقبت باستغلال أحياناً وبإقناع أحياناً أخرى عاقدة العزم على الفعل الإيماني الذي يشكّل مركز القبول والتسليم لدى الإنسان ... هكذا التاريخ يروي حكايات ودول وزعامات كانت قمّة من قمَم الزمان في حُلوها ومرّها في صوابها ومواربتها تتربّع على عروش حكمت بالحديد والنار مراراً ، وتحطمت أحياناً ، ولكنّها بقيت أحداثاً يتناقلها الزمان عَبْر كتّاب يُرصّعونها بتجليّات من نفوسهم فيعطونها مواقفَ من أحلامهم النابضة ويتركونها بين أيدينا نقرأ فنستغرب ، نطالع فنُذهل ...

قلعة النّسور (آلاموت ALAMOUT) رواية للكاتب (ڤلاديمير بارتول Vladimir Bartol) نقلها الى العربيّة بتصرف العميد المتقاعد طلعت الأيوبي بإسلوب مشوّق .

إنها تحكى أحداث حقبة زمنية ، تزاحمت فيها ممارسات أسطورية كبرى لقائد إسماعيلي حمّل التاريخ الشيء الكثير وألبَسهُ التاريخ بحكاياته المتناقلة عبر الزمان ما هو أكثر ....

عزيزي القارىء ، بين يديْك رواية جديرة بالقراءة ، تعيش معها أحداثاً تاريخيّة سطرها **العميد طلعت الأيوبي** بعناية المقْتَدر على عنصر العذوبة في الكتابة لتجد نفسك متعلّقاً بأطراف الكلمات منجذباً الى أحداثها ، تقرأها المرّة بعد المرّة بشوق ومن دون مَلل ... (قلعة النّسور) رواية تاريخيّة تُعبّر عن عظمة ممارسات خطّت في حقبة زمنية ، فكانت نسراً مُحلّقاً في غيابات الزمان تستحق منّا الإطلاع عليها تترك على مرّ الأجيال العبرة والحكمة.

الناشر

قلعة النّسور الآموت ALAMUT

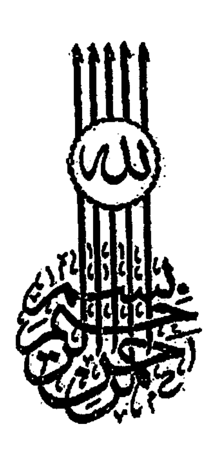
BAHSOUN PUBLISHERS
Publishing & Distributing

مؤسسة بحسون
للنشر والتوزيع

بولفار سليم سلام - بناية سوق الروشة - ط 3
ص . ب : P.O.Box : 11-8505 - رياض الصلح بيروت 2270 1107 لبنان
مكتب : تلفاكس : Telefax (01 65 91 66) - Beirut - Lebanon (00961 1) 30 56 23
جوال : (00961 3) 85 23 33 E-mail:bahsounpublishers@hotmail.com



Designed by R .Sedik



قلعة النسور

آلاموت ALAMUT

رواية تاريخيّة

ڤلاديمير بارتول

Vladimir Bartol

قلعة النسور

آلاموت ALAMUT

رواية تاريخيّة

نقلها إلى العربية بتصرف

العميد المتقاعد طلعت الأيوبي



مؤسسة بحسون

للنشر والتوزيع

بيروت - لبنان

اسم الكتاب: قلعة النسور (آلاموت) (Alamut)

(رواية تاريخيّة)

اسم المؤلف: ڤلاديمير بارتول

نقلها إلى العربية العميد المتقاعد طلعت الأيوبي

الناشر: © مؤسسة بحسون BAHSOUN PUBLISHERS

للنشر والتوزيع Publishing & Distributing
سجل تجاري 10954- بولفار سليم سلام
بناية سوق الروشة الشعبي- الطابق الثالث
تلفاكس: 659166 1 961+ هاتف: 305623 1 961+
ص.ب: 11/8505 بيروت - لبنان
رياض الصلح- بيروت 2270 1107 لبنان
E-mail : bahsounpublishers@hotmail.com

الطبعة : بيروت 2010 م / 1431 هـ

صف وإخراج: غنى الريّس الشحيمي

تصميم الغلاف: رمضان صدّيق

الترقيم الدولي: ISBN : 978-9953-39-190-8

طبع في لبنان: Printed in Lebanon 2010

توطئة

شهدت الديار الإسلامية، انطلاقاً من أواخر القرن التاسع الميلادي، اضطراباً في أوضاعها السياسية والاجتماعية حتى باتت دريئة للفتن والدعوات المختلفة، فالفِرَق الباطنية من قرامطة وإسماعيلية وسواها يدعون للرضا من أبناء عليّ أو يبشّرون الناس بظهور المهديّ ليطهّر الأرض من الجور والفساد، والخوارج على السلطان يؤرّثون نار الفتن في الأمصار ويستولون عليها عنوة حتى باتت الخواطر على تنظُّرٍ دائم لرسول تبعثه السماء لينقذ الناس من الظلم والفساد.

من بين هذه الحركات تأتي الإسماعيلية في الطليعة من حيث أهمّيتها وتمايزها بالأساليب التي اعتمدتها في نشر دعوتها ومقارعة الأخصام والمراطقة.

ويأتي هذا الكتاب «آلاموت **Alamut**» ليسلّط الضوء على حقبةٍ تاريخيّة مهمّة من التاريخ الإسلاميّ مبتعداً عن السَّرد التاريخي معتمداً الأسلوب الروائي، حتى لَيبدو الكتاب وكأنه قصة أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع.

لقد نجح المؤلّف في رسم ملامح شخصية زعيم الإسماعيلية الملقَّب بـ «شيخ الجبل» بكل أبعادها، فغاص في أعماق نفسه وكشف عن مكنون صدره، وأبرز للقارئ آراءه في الحياة والكَوْن والوجود والخالق والحكم والسياسة والساسة، ومعتقده الديني ونظرته إلى أهل السُّنّة، والسلاجقة، مفصِّلاً مخطَّطه الرهيب للقضاء على الحكم السلجوقي من دون أن يغفل أثر حقده الشخصي على الوزير الأول نظام المُلْك.

لقد استفاض المؤلِّف في تفصيل هذا المخطط الذي يستند إلى أسلوب فريدٍ يعتمد على تنشئة أتباعٍ على استعداد للموت في سبيل القضية الإسماعيلية أملاً بدخول الجنة التي ادّعَى «الحسن ابن الصبّاح» أنه يملك مفتاحها. وبذلك ووفقاً لفلسفته الخاصة استغلّ السذاجة البشرية وبساطة الأتباع توصُّلاً لمآربه، ضارباً عُرضَ الحائط بكلّ القيم الأخلاقية والإنسانية.

لقد تضافرت الظروف جميعها لصالح «الحسن» الزعيم الإسماعيلي فنجح في تحقيق الهدف الذي نذر حياته من أجله وانتهَى به الأمر إلى إقامة دولة مستقلّة عاشت حتى منتصَف القرن الثالث عشر لتسقط نهائيًا على وقع حوافر خيول هولاكو في غزوته لبغداد.

رواية ملؤها التشويق والإثارة تستهوي القرّاء بأحداثها ومغامَراتها وتُغني عقولهم بصفحات من تاريخ الديار الإسلامية الملطّخة بعضها بالدم والنار.

المترجم

العميد المتقاعد طلعت الأيّوبي

الفصل الأوّل

في ليلٍ ربيعيٍّ من العام الثاني والتسعين بعد الألف، وعلى الطريق العسكرية القديمة التي تمتدُّ من بُخارَى إلى جبال «البورز»، من الطرف الشماليّ لخراسان، كانت تسري قافلةٌ على درجةٍ خاصّةٍ من الأهمّية.

غادرت القافلة بُخارَى في مُستَهَلّ فترة ذوبان الثلوج، وهي الآن تغُذُّ السَّيْر منذ أسابيع عديدة. رجال القافلة يلوِّحون بسِياطهم مُطلِقين صيحاتٍ جافّةً على البهائم المُرهَقة الطائعة المُثقَلة بأحمالها، وهي تواصل بإيقاعٍ رتيب تقدُّمها في خطٍّ مستقيم. يتأمّل رجال الحراسة من فوق صهوات خيولهم بمَلَلٍ مَشُوبٍ بالانتظار سلسلة الجبال الطويلة تنتصب في الأفق وقد أرهقهم بقاؤهم الطويل على مُتون مطاياهم، وينتابهم إحساسٌ بنَفاذ الصبر للوصول إلى الهدف المنشود. وفي حين يبدو جبل «داماڤان» وكأنه يقترب منهم ببطء، إذ هو أخيراً يختفي خلف مُنعَطَف يكتنف الطريق. إلى ذلك يهُبُّ من الجبال العالية هواء رَطْبٌ يُنعِش البهائم والرجال؛ إلاّ أنّ الليالي الباردة الجليدية تُرغِم الرجال وعناصر الحراسة على التجمُّع الْتماساً للدِّفْءِ حول النار المتوقِّدة وهم يرتجفون من الصقيع.

من بين جِمال القافلة ثمّة واحدٌ ينقل بين سنامَيه نوعاً من خباءٍ أو قفصٍ. من وقت لآخَر تمتدّ يدٌ ناعمةٌ لتزيح ستارةً لنافذةٍ صغيرةٍ أُحكِمَت في جانب من جوانب الخِدر مُبدِيَةً وجهاً لصبيَّةٍ فتيَّةٍ يمازجها الخوف والقلق، أمّا عيناها الواسعتان الحمراوان من الدموع فتطرح لناظرها تساؤلاً مُلِحًّا بحثاً عن إجابةٍ لسؤالها الأليم الذي يعذّبها منذ بداية الرحلة: إلى أين يذهبون بها، وماذا في نيّتهم أن يفعلوا بها؟. إلاّ أنّ أحداً لا يُعير انتباهاً لوجودها.

ها هو دليل القافلة الأسمر البشرة، والذي يناهز عمره الخمسين، المرتدي سروالاً عربيًّا فضفاضاً والمُعتمِر عمامةً بيضاء ضخمة يرمقها بنظرة ثاقبة كلّما لاحت له من خلال تلك الكُوّة، حينها تسدل الستارة وتنكفئ على نفسها وتقبع في خدرها.

إنّها، منذ أن باعها سيّدها في بُخارَى لهؤلاء الناس، وهي تعيش مصهورةً بين خوف قاتل وفضول مُرعِب حيال المصير الذي ينتظرها.

ذات صباح، وقد جازت القافلة مسافةً طويلةً من الرحلة، قطعت عليها الطريق مجموعةٌ من الفرسان هبطت فجأة من سفح تلٍّ إلى اليمين، فتوقّفت الحيوانات في المقدَّمة تلقائيًّا، أمّا رجال القافلة، فقد شهروا سيوفهم الغليظة، واتّخذوا وضعيّة القتال والتأهُّب. ثم ما لبث أن تقدَّم فارسٌ من المجموعة يمتطي جواداً صغيراً وأطلق صرخة لا بدّ أنّها تعني كلمة المرور، فأجاب عليها رئيس القافلة على الفور، واقترب الرجلان من بعضهما مسرعَيْن وتبادلا التحيّة بكلِّ تأدُّب، ثم ما لبثت المجموعة الجديدة

أن انضمّت إلى القافلة التي تابعت سَيرها متّجهة نحو الجبال من دون توقُّف حتى منتصَف الليل، حيث حطّت الرّحال في وادٍ ضيّق يُسمَع فيه هديرٌ بعيد لسَيْلٍ من الماء. هناك أوْقدوا ناراً ثم أكلوا طعامهم بأطراف أصابعهم وأخلدوا إلى النوم مُنهَكين.

مع بُزوغ الفجر كان الجميع جاهزين. اقترب دليل القافلة من الخدر الذي سبق لبعض الرجال أن أنزلوه عن الركوبة، ووضعوه أرضاً خلال الليل، فأزاح الستارة وصاح بصوت أجشّ:

- حليمة!

تبدَّى من خلال الكُوّة وجهٌ خائفٌ، ثم فُتح باب صغير، وبيَدٍ حازمةٍ أمسك الرجل بقبضة يدِ الفتاة الصغيرة وسحبها خارج المخبأ.

اعترت حليمة رِعدةٌ من الخوف في كلّ أعضائها فهمست قائلةً: لقد انتهَيت الآن. ثم تقدّم رئيس المجموعة الجديدة التي سبق أن الْتَحَقت بالقافلة، وبيده رباط أسود؛ بإشارة من دليل القافلة وضع الرباط على عينَي حليمة ثم أحكم ربطه عند مؤخّرة رأسها. قفز بعدها فوق صهوة جواده برشاقة فائقة، وبيدٍ لطيفة احتضن الفتاة وأردفها خلفه ثم غطّاها ببرنسه الفضفاض وأطلق لنفسه العنان. أمّا حليمة فقد تجمّعت حول نفسها وبوَجهٍ شاحب تمسّكت بالفارس.

هدير السيل آخذ بالاقتراب، توقّف الفارس قليلاً وتبادل طرَفاً من

الحديث مع شخص مجهول، ثم حثّ فرسه للعَدْوِ من جديد. إلاّ أنّ نمط السير هذه المرّة كان بطيئاً. فقد شعرت حليمة أنّ الحصان يخُبّ في طريق ضيّق خطِرٍ لا بدّ أنه يحاذي سيل الماء إذ انبعثت ريحٌ باردةٌ من الأعماق فأحسّت حليمة بانقباضٍ في صدرها.

بدَت الأحداث التي تلاحقت فيما بعد وكأنّ حليمة تعيش حُلُماً مرعِباً. إنّها تسمع صيحاتٍ ونداءاتٍ كما لو أنّ عصابةً كبيرة في عراكٍ وخصام. ترجّل الفارس وأنزل أسيرته حريصاً على أن يبقَى البُرنُس عليها، واقتادها بخطوات سريعة، تارةً على أرضٍ مستوِيةٍ، وطَوْراً عبر نوع من السلالم. بعد قليل خُيِّل لحليمة أنهما يدخلان مكاناً مظلماً. فجأةً خلع الفارس الرداء عنها وشعرت كأنّ يداً أخرَى قد قبضت عليها. دبّت في جسمها قشعريرة من الخوف وشُبّه لها كما لو أنّ شبح الموت قد دنا منها. ندّت ضحكة مكتومةٌ عن القادم الجديد الذي اقتاد الفتاة في ممرٍّ ضيِّق ينبعث فيه هواءٌ بارد راح يلفح وجهها وجسمها، كما لو أنهما في كهف أرضيّ. حاولت الفتاة أن تبدِّد خوفها وأن لا تفكّر في شيء، ولكنّها عجزت عن ذلك، إذ تملّكَها شعور أنّ اللحظة الأخيرة، اللحظة الرهيبة، قد حان أوانها. راح الرجل الذي يمسك بحليمة يتلمّس الجدار بحذرٍ شديد، حتى عثر على قبضةٍ رفعها بقوّة، فإذا بصوت ناقوس يطُنُّ بقوّة. أطلقت حليمة صرخة مدوّيةً محاولةً التملُّص من قبضة الرجل الذي اكتفَى بالضحك قائلاً بلهجة محبَّبة:

– لا تصرخي أيتها البدوية، لن يتعرَّض لك أحدٌ بسوء.

فُتح باب حديديٌّ كبير، فدخل النور من خلاله إلى الرباط المُحكَم على عَينَيْ حليمة التي ظنَّت أنَّها ستُلقَى في أحد السجون، ولكنها سمعت بالقرب منها جَلَبَةً، أرهفت السمع فإذا هي وقع خطوات حافية لقادمٍ جديد ما لبث أن تسلّمها من الرجل الآخر الذي توجّه إليه بالقول: - يا عديّ، إليك الفتاة. كانت اليدان اللتان أمسكتا بحليمة قويَّتَين كقوائم الأسد وعاريَتين تماماً كما الصّدر. لقد أحسّت بذلك عندما حملها. لا بدّ أنّ هذا الرجل هو عملاقٌ ضخم، همست حليمة في قرارة نفسها.

هذه المرة استسلمت الفتاة لمصيرها فاقدة الإرادة من دون أيّة هواجس لِما يمكن أن يكون بانتظارها، في الوقت الذي كان العملاق يَحثُّ الخُطَى وهو يصعد فوق سلَّم معلَّقٍ راح يتأرجح على هواه تحت ثقلهما. بعد أن اجتازا السلّم بدأت تسمع وقع أقدامِ الرجل على أرضٍ مغطَّاة بالحَصَى.

في تلك اللحظة أحسّت حليمة بدفء الشمس اللذيذ تخترق أشعتها رباط عينيها فانتعش صدرها بخاصة وأنها بدأت تشتَمُّ عطر زهور وروائح خضار.

شعرت حليمة بهزّة قويةٍ، وأدركت أنّ العملاق قفز بها إلى قارب صغير، فندّت عنها صرخةٌ قويّة وأحكمت تمسّكها بالمارد الذي اكتفَى بالضحك بصوت شبه طفولي، وقال لها بصوت جافّ: لا تجزعي أيتها الغزالة، سأنقلك إلى الضفة الأخرَى، أصبحنا قريبَين من الهدف، اجلسي هناك. اتّخذ الرجل مكانه على مقعد مريح ثم راح يجذِّف بنشاط، أمّا حليمة

فقد خُيِّل إليها أنّها تسمع ضحكات بعيدة، ضحكات لفتيات يغمرهنّ الفرح والسرور. أصاخت السمع فأدركت أنّها ليست مخدوعة.

رسا القارب على الضفة الأخرَى، فحمل العبد الفتاة وقفز إلى الأرض، ثم بدأ يتسلَّق منحدَراً بلغ قمّته بجهدٍ جهيد، فأنزل الفتاة وأعانها على الوقوف متوازنة. حولها صيحات وضحكات وجلبة ووقع أقدام. هنا صاح العملاق ضاحكاً: «إنّي أعهَد بالفتاة إليكنّ، لقد انتهت مَهمّتي»، ثم سارع إلى القارب وانطلق به مجدِّفاً.

اقتربت إحدَى الفتيات وفكّت الرباط عن عينَيْ حليمة، في حين راحت الأُخرَيات يتغامَزْنَ ويصِحْن قائلات:

- كم تبدو جميلة وصغيرة هذه الفتاة! إنّها فعلاً طفلة! انزلق الرباط عن عينَيْ حليمة، فنظرت حولها مشدوهة. أمامها تمتدّ حدائق غنّاءُ ورياضٌ زاهرة، والفتيات يُحِطن بها كأنهنّ حوريّات، إلاّ أنّ الفتاة التي نزعت الرباط عن وجهها بدت أكثرهن فتنة.

تساءلت حليمة بصوت خافتٍ خفِر: أين أنا؟ فتضاحكت الفتيات كأنّ حياءها أغراهنّ بذلك، فعلَتْ وجهَ حليمة حُمرةُ الخجل، وما لبثت أن تقدّمت أجمل الفتيات التي تولّت فكّ الرباط وأحاطت جسمها بحنُوٍّ وحنان قائلةً لها: - لا تخشَي شيئاً يا عزيزتي، إنّك في كنَف أُناسٍ طيّبين. فالْتصقت بها حليمة وراودتها أفكار خرقاءُ كأنّها تتساءل في قرارة نفسها عن احتمال أن تكون الآن في حِمَى أحد الملوك أو الأمراء.

صحِبت الفتيات حليمة عبر ممرٍّ مُغطًّى بالحصَى الأملس، وعلى جانبَيه، ووفق ترتيب رائع، تترامَى أحواضٌ من الزهور على اختلافها من الأقحوان والياسمين والبنفسج والفُلّ من شتَّى الألوان، ثم عَبَرْنَ تحت صُفوفٍ مستقيمةٍ من أشجار الليمون والدرّاق والتفاح، إلى أن انتهَى المَطاف بهنّ إلى حديقة غنّاءَ أزهرت فيها أشجارُ اللوز والكستناء والخوخ والمشمش.

سألت إحدَى الفتيات: ما اسمك يا صغيرتي؟

- أدعَى حليمة، همست الفتاة بصوت خافت، فأغرقت الفتيات بالضحك، في حين ترقرقت الدموع من عينَي الفتاة. هنا بادرت الفتاة الفاتنة إلى تهدئة حليمة ورمقت رفيقاتها بنظرة لَوْمٍ صارمة، طالبةً إليهنّ أن يدَعْنَها وشأنها حتى تأتلف مع الجَوّ، فهي مُتعَبةٌ مرهَقة، ثم قالت لحليمة: لا تُعيري أيَّ اهتمام إليهنّ لأنهنّ مشاكسات، وسوف تلمسين، عندما تتعرّفين إليهنّ، أنهنّ لسْنَ خبيثات، لا بل أعتقد أنهنّ سيُحببنك.

لمحت حليمة من خلال الأشجار واجهة قصرٍ أمامه حوضٌ مستدير، في وسطه نافورةُ ماء، وتحيط به من شتّى الجهات جبال شاهقة، كما لاحت لها قلعة حصينة كأنها مغروسة في أعلَى جلمودٍ ضخم.

سألت حليمة عن هذا الموقع الغريب بصوت ممزوج بالخوف، فأجابتها رفيقتها: أنت الآن مُتعَبة، وعليك الاستحمام وتناول الطعام، ثم الإخلاد إلى الراحة.

مع مرور الوقت، بدأت حليمة تتمالك نفسها وراحت ترقُب رفيقاتها بفضول؛ لقد لاحظت أنَّها تنافسهنّ جَمالاً، ولكنها استشعرت فقرها فاعتراها الخجل، إذ أدركت أنّ لباسها لا بدّ أن يكون سبباً لتضاحكهنّ منذ قليل.

وصلت حليمة ورفيقاتها أخيراً إلى قصرٍ ذي شكلٍ دائريٍّ مُحاطٍ بدَرَجٍ منخفِضٍ من الحجارة البيضاء يسمح للمرء بدخوله بيُسر؛ ثمّة أعمدةٌ عديدة مُتقَنةُ الصنع شبيهةٌ بالأعمدة التي تُرَى في المقابر في العصور الغابرة.

فجأة، ظهرت امرأة كبيرة صارمة شديدة السُّمرة ذات وجهٍ نحيل وخدودٍ مجوَّفة وعيونٍ واسعة يسطع منها بريق حادٌّ، مع أنفٍ طويل وشفاهٍ رقيقة منقبضة تنُمّ عن قساوةٍ في الطبع. خلفها، يدبّ حيوان من فصيلة الهرّ بصُوفٍ طويل ومتنٍ كبير فوق قوائمَ طويلة. ركّز الحيوان بصره على حليمة مطلِقاً زئيراً عدائيًّا، فندّت عن الفتاة صرخةٌ من الرُّعب والْتصقت بمرافقتها التي حاولت تخفيف روعها قائلة لها: - لا تجزعي يا حليمة، إنه «أهريمان»، إنه فهدٌ أصيل داجنٌ كالحَمل لا يؤذي أحداً، وسوف يعتاد عليك ويصبح صديقك. ثم اقتربت من الفهد واحتضنت عنقه وراحت تربِّت على ظهره فظلّ هادئاً أنيساً لا يزأر ولا يكشِّر عن أنيابه.

تجاوزت حليمة خوفها، ومدّت يدها إلى ظهر الفهد تداعبه بنعومة، فلم تصدُر عنه أيّة حركةٍ عدائيّة، الأمر الذي أدخل السرور إلى قلبها فالْتحقت بصديقاتها ضاحكة مسرورة.

- مَن هي هذه الفتاة الجبانة يا مريام؟

سألت المرأة الشمطاءُ، وهي ترقب حليمة بنظرة ثاقبة. أجابتها مريام:

- لقد أحضرها إلى هنا عديّ يا «أباما» وهي لا تزال خجولةً واسمها حليمة.

اقتربت «أباما» من حليمة وراحت تتأمّلها من رأسها إلى أخمص قدميها، وتجسُّ وجهها وأردافها كما يفعل الرجال مع الجواري في سوق النخاسة.

- ربما نستطيع أن نفعل منها شيئاً ما، إنما يجب أولاً أن تكتسب صحّة وعافية، فهي الآن هزيلة كالوتد. ثم أردفت بنبرة غاضبة: ولكن كيف أحضرها هذا الخصيّ وحملها بين ذراعيه، أليست تلك حماقة؟! كيف أمكن لسيدنا أن يثق به على هذا النحو؟

أجابت مريام: - لم يقُم عديّ بأكثر من واجبه. على أيّ حال، آن الأوان كي نُولي اهتماماً خاصاً لهذه الطفلة. ثم أمسكت بِيد حليمة، وباليد الأخرَى زمام «أهريمان» وانطلقت تلحقها بقية الفتيات.

بعد دقائق دخل الجميع قاعة واسعة عالية السقف غايةً في الفخامة والأبّهة. دهشت حليمة إذ لم تكن تتوقّع أن ترَى هذه الروعة حتى في أحلامها؛ جمال آخّاذ يفتن الألباب، تحفةٌ من تُحَف الصنعة والهندسة والعمران، كيف لا والسقف مصنوع من الموزاييك المزجّج بألوانٍ زاهية

يسمح للأضواء أن تتسرَّب فتنعكس مشكِّلةً قوساً فاتناً بألوانه الرائعة غاطساً في حوض ماءٍ دائريّ تدخله المياه من أماكنَ خفيّة.

توقّفت حليمة فاغرةَ الفم، وعلى وجهها ذهول وانبهار. نظرت إليها مريام وعلت وجهها ابتسامة خفيفة، ثم انحنت فوق الحوض تتحسّس سخونة الماء.

طلبت مريام من الفتيات تحضير كل مستلزمات الاستحمام، ثم بدأت تعرّي حليمة من ثيابها قطعة قطعة... ولّما أزعجها وجود الفتيات حولها استترت خلف مريام حياءً، الأمر الذي لم يحُل دون متابعة الفتيات لمشهد التعرية بفضول مقرون بضحكٍ مكتوم. وإذ ذاك أشارت مريام إليهنّ بالخروج ثم ضفرت شعر حليمة عقيصةً حرصاً على عدم تبلُّله بالماء ثم أشارت إليها بالنزول في الحوض وبدأت تغسلها بالماء والصابون وتدلِّك جسدها. بعد أن خرجت من الماء راحت تجفِّف جسمها جيداً، ثم قدَّمت لها قميصاً من الحرير ألبستها إياه وبنطالاً فضفاضاً حتى أتمّت لها هندامها كبقية الفتيات، فبدت حليمة في غاية الجمال والفتنة؛ ولم يُعِبها ما ارتدته وإن لم يكن على مقاسها، إلاّ أنّ مريام وعدتها بأنها ستحظَى قريباً على ثيابٍ جديدة لائقة. حان الآن موعد إطعام الفتاة. أجلستها مريام على أريكة وثيرة لتستريح قليلاً ريثما ترَى أيَّ طعام قد أُعِدَّ لها. بيدها البضّة راحت تلامس وجه حليمة وتداعبه، استشعرت الفتاتان في هذه اللحظة دفء محبةٍ ووُدٍّ غريزيٍّ متبادَل! ولّما حاولت مريام التظاهر بأنَّ تصرُّفها بريء بعيد عن

أيّة خلفية، لم ينطَلِ الأمر على حليمة فاكتفت برسم ابتسامة لطيفة على شفتيها..

أحسّت حليمة بعد الاستحمام بالتعب فأغمضت عينيها وظلّت تجاهد كي لا تغفو، لكنّ سلطان الكرَى كان أقوَى منها فانهارت مقاومتها وأخلدت للنوم وراحت في سُبات عميق.

عندما استفاقت أحسّت بالخوف فتساءلت: ما هذا المكان؟ أين أنا؟ ما حلّ بي؟ نفضت عنها الغطاء وجلست عند طرف السرير تدلّك عينيها، ثم جالت بطرْفها فرأت وجوهاً فتيّة باشّةً ترمقها بنظرات حنُوٍّ ومحبّة.

حان وقت الطعام، جلست مريام قربها وقدّمت لها كوباً من اللبن المثلَّج، فتناولته وأفرغته في جوفها دفعةً واحدةً ثم قدَّمت لها إحدَى الفتيات قصعةً ملأى بقطع الطير والشواء وأخرَى فيها ما طاب من أنواع الحلوَى.

- كم تتضوَّر من الجوع؟! عقّبت إحدَى الفتيات.

- كم تبدو شاحبة! أردفت أخرَى!

- علينا الاهتمام بتزويق وجهها وخدَّيها وشفتيها بعد الطعام، اقترحت حسناءُ أخرَى.

- لا بدّ أن تشبع أولاً، قالت مريام، ثم، موجِّهة كلامها لفتاة سمراء: قدِّمي لها فاكهة من الموز والليمون ولتأكل ما يحلو لها..

أمضت حليمة أياماً عديدة في هذا المُتَنَزَّهِ الريفيّ الجميل سعيدة هانئةً

لا يعكّر مزاجها شيءٌ. الجميع يعتني بها ويحنو عليها ويعاملها معاملة ملكة: أطعمةٌ فاخرة، ألبسةٌ جميلة برّاقة، جوٌّ رائعٌ ومناظرُ خلاّبةٌ. خلال هذه الفترة توطّدت الصداقة بين حليمة وصديقاتها فحدَّثتهُنّ عن حالها، أين كانت وماذا حلّ بها قبل أسرها واستحضارها إلى هذا المكان. أصبحت تعرف الآن أنّ من مجموعة الفتيات تبقى «أباما»، العجوز، هي السيدة الأولَى المهابة الجانب وصاحبة السلطة على الجميع، تليها مريام المسؤولة المباشرة عن الفتيات.

ذات يوم سألت إحدَى الفتيات حليمة عمّا تتقنه من أعمال فأعلمتها أنّها تتقن الخياطة والتطريز بالإضافة إلى أعمال المطبخ، وعندما استوضحتها عن معرفتها بالقراءة والكتابة أجابتها سلباً، فأوضحت لها أنّهن سوف يبدأن غداً بحضور دروسٍ في القراءة والكتابة والشِّعر وغير ذلك مما لاقَى استحساناً لدَى حليمة وأدخل السرور إلى قلبها.

بعد تناول الفطور، ابتدأ فصل التدريس وتوافدت الفتيات إلى قاعة زجاجيّة طالما أعجبت حليمة بمنظرها وجلست كلُّ فتاةٍ على أريكةٍ وثيرةٍ ووضعت فوق ركبتيها لوحاً للكتابة وأمسكت بيدها قلماً.

توجّهت مريام نحو الباب وطرقت على صنجٍ مُثبَّتٍ على الحائط وإذْ بعملاقٍ أسودَ البشرة يدخل القاعة، وبيده كتاب كبير. كان العملاق الأستاذ يرتدي بنطالاً قصيراً مخطَّطاً وجلباباً مفتوحاً من الأمام ينسدل حتى عقبيه،

وينتعل خُفًّا، وعلى رأسه عِمَّةٌ حمراءُ. بعد أن اتّخذ مكانه على الأريكة المخصَّصة له مقابل الفتيات، قال:

- اليوم، يا عصافيري الصغيرة سوف نبدأ بتعلُّم آيٍ من القرآن الكريم، ثم وضع الكتاب بخشوعٍ على جبهته واستأنف قائلاً: في هذا القرآن الكريم يحدِّثنا الرسول ﷺ عن مباهج الحياة ونعيم الآخرة وعن الثواب والعقاب وعن الدنيا الفانية والخلود في الجنّة، ثم توقّف قليلاً وتابع: إني أرَى بينكنّ فتاة جديدة ذات نظرٍ حادٍّ وفضوليٍّ، أرَى أنّها تلميذة متشوِّقة للعلم والمعرفة. وهنا طلب من فاطمة أن تتلوَ ما تعلّمته في حصّةٍ سابقة، فرفعت ذقنها المستديرة الجميلة باتجاه المعلِّم وراحت ترتّل بصوتٍ شجيٍّ بعضاً من الآيات، فأثنَى عديٌّ عليها، وعاد وطلب إليها أن تتلوَ بعض الآيات عن ظهر قلب.

بعد ذلك بدأ المعلّم يقرأ بهدوء كلمة كلمة سورة جديدة من القرآن الكريم في الوقت الذي كانت أقلام الفتيات تدور سريعاً على الألواح مطلقةً أصوات صريرها. بانتهاء الدرس وقف المعلِّم وقبَّل الكتاب باحترام، ثم موَجِّهاً كلامه إلى الفتيات:

- تلميذاتي العزيزات، أطلب إليكنّ أن تعينَ في قلوبكنّ ما تعلَّمتنّ وأن تساعدن صديقتكنّ الصغيرة لتملأ رأسها بالمعرفة عوضاً عن الجهل، ثم أغرق في الضحك كاشفاً عن صفَّين من الأسنان البيضاء، وغادر القاعة باحترام. ما إن خرج العبد حتى انفجرت حليمة بالضحك، لكنّ مريام ألْزمتها حدَّها بنظرة جدّية قائلة لها: لا تسخري مُطلَقاً من عديّ يا حليمة،

من الممكن أن يكون شكله غريباً بعض الشيء لأول وهلة، إلاّ أنه طيّبٌ نقيٌّ وهو يقوم بكلّ ما يُطلَب منه، إنه يعرف أموراً كثيرةً سواء أكان في القرآن أو الفلسفة فضلاً عن علم العروض والبيان وقواعد اللغة العربية والفارسية. إنّ سيِّدنا له ملء الثقة فيه.

أطرقت حليمة خجلة، لكنّ مريام، وهي تداعب وجهها بلطفٍ أضافت: لقد ضحكتِ، لا بأس، لكنّي آمُل أن تتصرّفي مستقبلاً بشكلٍ أفضل، ثم حيّتها بإيماءة من رأسها وانصرفت. عرضت سارة على حليمة أن تصحبها إلى غرفة الاستحمام لتغسل لها شعرها. هناك بدأت بتسريحه ثم ساعدتها على خلع ملابسها.

- مَن هو سيدنا؟ سألت حليمة. كان الفضول أقوَى منها، ومِن دون أن تدرك سبباً لذلك آنسَت من نفسها نوعاً من السلطة على «سارة»، وهذه الأخيرة لم تجِد حرجاً في إجابتها:

- سوف أقول لك كل ما أعرف - همست مضطربة- ولكن يا لَتعاستك إنْ خُنتِ ثقتي، ثم أضافت: عليك أن تُظهري المحبة لي، هل تعِدين بذلك؟

- أعِدك بذلك، أجابت حليمة.

كلّنا هنا مُلك سيدنا، أي معلّمنا، إنه سيّدٌ قادرٌ، قديرٌ جداً، مضَى عامٌ على وجودنا هنا ولم نرَه أنا والأخريات حتى الآن.

- وماذا تعنين بمعلّمنا؟.

- عليك بالصبر، سأقول لك كلّ شيء، هل تعلمين مَنْ مِنَ الأحياء هو الأول بعد الله؟

- الخليفة، أجابت حليمة.

- هذا غير صحيح، ولا السلطان، إنّ الأول بعد الله هو سيّدنا. مذهولةً، جاحظةَ العينين، تبدو «حليمة»، وقد تملّكها شعورٌ بأنها تعيش قصةً خياليّة تلفّها الألغاز ويكتنفها الغموض.

- تقولين إنّ أحداً منكنّ لم يشاهدْ حتى الآن سيّدنا!

- أجل، ولكنّ واحدةً منّا تعرفه جيداً، إنما يا لَبؤسنا إذا وصل إلى مسامعِ أحدٍ أننا نتكلّم بهذا الشأن.

- سأكون بكماءَ، أعِدك بذلك، ولكن مَن تلك التي تعرف سيِّدنا جيداً؟

لم تتأخّر سارة بالبَوْح بمكنون صدرها، فهمهمت: إنّها مريام، لقد أنعم عليها سيِّدنا ببركاته وشملها برضاه، ولكن، إيّاك أن تبوحي بهذا السِّرّ.

أجابت حليمة: أعِدك بذلك، ثم عادت تسأل «سارة»:

- مَن هي تلك العجوز التي الْتقيناها أمس؟

- إنّها «أباما»، والحديث عنها أشدّ خطراً من الكلام على مريام، فهذه طيبة القلب، وهي تحبّنا، أمّا الأخرَى فخبيثةٍ وهي تحتقرنا، إنّها تعرف جيداً سيّدنا. لكن انتبهي، إيّاك أن تُطلِعي أيّا كان على ما تعرفين.

- لن أخونك يا سارة، كوني واثقة.

- كم أنت ناعمة الملمس يا حليمة، قالت سارة وهي تغسل لها وجهها، لكنّ حليمة تجاهلت تلميحها فثمّة أشياءُ كثيرة تنوي الاطّلاع عليها.

- عديٌّ هذا، تابعت حليمة، هل هو خصيّ؟

- أجل، إنه لكذلك.

- خصيّ! وماذا يعني هذا؟.

- إنه رجل كبقية الرجال شكلاً ولكنه في الواقع ليس رجلاً!

- إني لا أفهم شيئاً.

وهنا راحت سارة تشرح لها الأمر بتفاصيله الدقيقة، ممّا حدا بحليمة أن تقطع الحوار باشمئزاز قائلةً: كفَى لا أريد سماع المزيد. أمّا سارة المنهمكة بغسل شعر حليمة ثم تجفيفه ثم دهنه بالزيت المعطّر، فلم تعُد تطيق كبت عواطفها الشاذّة وكشفت عن مكنون صدرها بتنهّدات لاهبة، إلاّ أنّ حليمة تجاهلت الأمر ورمقتها بنظرة غاضبة ألْزمتها حدّها.

منذ أن وجدت حليمة نفسها في هذا الوسط الغريب، هذه هي المرّة الأولَى التي تشعُر فيها أنّها وحيدة. إنّها لا تعرف شيئاً، أين كانت، وماذا عليها أن تفعل، فالأسرار تحيط بها من كلّ جانب. مع ذلك لم يكدِّرها هذا الواقع، ولم تشعر بالضيق رغم كونها وسط عالَمٍ خليق بالعفاريت والجِنّ.

بدافع من الفضول، رأت من الأنسب لها التظاهر بالبلاهة والسذاجة كي لا تلفت الأنظار إليها، الأمر الذي يمكّنها من التسلُّل إلى حيث تريد، فإذا ما ضُبطت في مكان محظور عوملت معاملة طفلةٍ بريئة طائشة. هذه المعلومات التي توافرت لحليمة ألْقَت بها في لُجَّة من الحيرة؛ فمريام التي تعرف عنها الوجه الطيّب الودود تُخفي وجهاً آخَر، إنَّها على علاقة مع سيّدنا! ماذا يعني هذا؟! ما هي الامتيازات التي تتمتّع بها «أباما» ذات الطبع الخبيث والتي تربطها بسيِّدنا علاقة متينة؟! فضلاً عن ذلك، هناك عديٌّ الذي يثق به سيِّدنا ثقة مُطلَقة كما تؤكّد مريام. في نهاية المطاف، مَن يكون سيّدنا، معلّمنا، هذا الرجل القدير الذي لا تجرؤ سارة على الكلام عنه إلاّ همساً؟.

أمضت حليمة أياماً طويلة في هذا «الفردوس الأرضيّ»، حاولت خلالها تناسي ماضيها الأليم وأهوال رحلتها الأخيرة، وبدأت تتألف مع عالمها الجديد.

كان يطيب لها، كلَّما شعرت بنفسها وحيدة، أن تتسلّل إلى الحدائق الغنّاء المحيطة بسُكناها تستمتع بالمناظر الطبيعية الخلاّبة، فتكتحل عيناها برؤية الأزهار بأشكالها وألوانها المتنوعة، وبمنظر الأشجار المغروسة صنوفاً منتظمة تتدلَّى منها الثمار والفواكه، كما تطرب لسماع تغريد البلابل والحساسين وهي تقفز بخفّةٍ ورشاقةٍ فوق الأغصان، وتأنس بالحيوانات الداجنة من الغزلان والحمام فضلاً عن «أهريمان» الذي بات صديقها الودود.

أمّا الفَراش والنحل والهوامُّ فتحوِّم بوَفرةٍ نادرةٍ حول الأزاهير بحثاً عن غذائها، وكلّ ذلك وسط جوٍّ عابق بأريج عطرٍ ينعش الفؤاد تحت سماءٍ زرقاءَ صافيةٍ تتوسَّطها شمسٌ تُشِعُّ بدفئها ونورها فتنعش الحياة في كلّ مخلوقات الله. حانت الآن ساعة درس الرقص. اقتربت إحدَى الفتيات من حليمة وضفرت لها شعرها ثم توجّهت وإياها إلى قاعة الرقص. أستاذ الرقص «عبدٌ» مخصيٌّ يُدعَى أسعد. إنه شابٌّ فتيٌّ ذو قامةٍ معتدلةٍ ووجهٍ أمردَ وقوامٍ رشيقٍ شبه أنثويّ. ما إن دخل حتى رفع جلبابه ووقف أمام الفتيات اللواتي يرتدين سراويل صفراء قصيرة. انحنَى أمامهنّ مع ابتسامة لطيفة ثم فرك يديه بسرور ظاهرٍ وطلب إلى حليمة أن تبدأ باللعب على القانون، أمّا هو فراح يدور ويتلوّى ويتراقَص على أنغام اللحن. إنّ الأمر الأساسيَّ في فنّ الرقص يقوم على حركيّة البطن والقدرة على السيطرة على العضلات، أمّا الحركات المختلفة للذراعين ونقل الخطوات فليست إلاّ ضرباً من التناغم والتماهي مع تموّجات الموسيقَى. هكذا شرح أسعد للفتيات ما ينبغي عليهنّ القيام به وطلب إليهنّ محاولة تقليده في حركاته. فَور الانتهاء، شعرت حليمة بالجوع والتعب، أمّا بقية الفتيات فخرجن إلى البساتين لبعض الراحة ريثما تبدأ الحصَّة الدراسيَّة الثانية.

أسرّت حليمة إلى سارة أنّ معدتها خاوية، فأشارت إليها الأخيرة بالانتظار قليلاً، ثم اختفت للحظات وعادت وبيدها موزة جاهزة للأكل، رغم علمها بالأوامر المشددة بالامتناع عن تناول أيّ طعام بين الوجبات،

حرصاً من مريام على دوام رشاقة الفتيات، وهي لو علمت بها حصل لأنزلت بها أشدّ العقاب.

عادت الفتيات إلى قاعة الدرس، هذه المرّة سيكون الأستاذ عديٌّ نفسه فهو أستاذهم في مادّة الشعر.

وجدت حليمة هذه المادّة محبّبة إلى قلبها وأبدت كلّ حماسٍ واهتمامٍ بها. بانقضاء الحصة بدا التعب والجوع على الجميع. خلافاً لطعام الصباح، فإنّ طعام الظهيرة يُقدَّم إليهنّ من قِبَل ثلاثةٍ من «العبيد»: حمزة، طلحة وسهيل.

أصبحت حليمة تعرف سبعةً من «العبيد» من بينهم اثنان يهتمّان بأمور الحدائق وهما معاد ومصطفَى. المطبخ هو مسؤولية «أباما»، أمّا حمزة وطلحة وسهيل فيقومون بمساعدتها. إنهم يتولّون غسل الأطباق وغسل الثياب ويشرفون على النظام والنظافة والترتيب. هؤلاء «العبيد» يقطنون في بستان خاص تعزله خنادق عميقة عن مكان إقامة الفتيات، ولهم منازلهم مع كلّ مستَلزَماتهم، في حين تقطن «أباما» في منزل خاص.

ثمّة أمور عديدة تشغل بال حليمة وتثير فضولها، وهي تنتظر الفرصة المناسبة للاستفراد بسارة لاستيضاحها بشأنها بعيداً عن أنظار مريام.

طعام الغداء وليمة عامرة، أصناف متعددة من أشهَى المأكولات، تليها أنواع الحلوَى والفاكهة، وفي الختام قدحُ شرابٍ قويّ يلهب الرأس.

هذه الخمرة، أسرّت سارة إلى حليمة، سمح لنا بها سيِّدنا بعد الغداء. فور الانتهاء من تناول الطعام، ذهبت الفتاتان إلى غرفتهما، وفي رأس حليمة أسئلة كثيرة تريد أجوبةً عنها.

- كيف يسَع لسيّدنا أن يسمح باحتساء الخمرة والرسول قد حرَّمها؟

- له الحقُّ في ذلك، لقد سبق أن قلت لك إنه الأول بعد الله، إنه نبيٌّ جديد.

- لقد قلت سابقاً إنه باستثناء مريام و«أباما» لم يُتَحْ لأحد سواهما رؤية سيّدنا؟

- في الواقع، أجل، لا أحد، ما عدا عديّ، فهو موضع ثقته، لكنّ عُديًّا وأباما على عداءٍ مستحكَم، ثم إنّ «أباما» لا تحبّ أحداً على الإطلاق. فيما مضَى عندما كانت فتيّة، كانت رائعة الجمال، والآن ولّى زمانها والحسرة تنهَش قلبها.

- ولكن من هي «أباما» بالتحديد؟

- تبًّا لها، إنّها امرأة بغيضة تعرف كلّ أسرار الحبّ، وسيّدنا أحضرها لتعليمنا كل ما تعرف، وسوف تلمسين بنفسك بعد الظهيرة، إلى أيّ مدًى أحسنت الإفادة من شبابها.

- ولماذا علينا تعلُّم مثل هذه الأمور؟

- لا أعلم بالتحديد، ولكنّي أظنّ أنّه يتمُّ تحضيرنا من أجل سيّدنا.

- وهل سنصبح نحن من بين حريمه؟

- ولكن، قولي لي: أتحبّينَني؟

- امتقع وجه حليمة، إذ ساءها أن تفكّر سارة بمثل هذه الحماقات، وهي بصدد اكتشاف أمورٍ في غاية الأهمية. تمدّدت على الأرض وأسندت رأسها فوق يديها ونظرت ساهمةً باتّجاه السقف. جلست سارة قربها، وراحت تعانقها وتقبّلها بعاطفة مشبوبة، فتظاهرت حليمة بادئ الأمر جهلها مغزَى هذه التصرُّفات، ثم ما لبثت أن دفعت سارة بشدّة عنها قائلةً:

- أريد أن أعرف على وجه التحديد ماذا ينوي سيِّدنا أن يفعل بنا.

في الوقت الذي استجمعت سارة فيه نفسها وأعادت ترتيب شَعرها، كانت حليمة عُرضَةً للهواجس المقلقة، إنَّها تصرُّ على معرفة نوايا سيِّدنا. إلاّ أنّ أحداً لا يتكلّم على هذا الأمر، لا بل إنّ الحديث عنه يبدو أمراً محظوراً.

هنا تساءلت حليمة، هل من الممكن الفرار من هذا المكان؟

أجابتها سارة: لا بدّ أنّ مسًّا قد أصابك، آه لو قُدِّر «لأباما» أن تسمع بما تهذين! ألا ترَين هاتيك التحصينات، وذلك الجلمود الحادّ الانحدار! هذه هي مخارجنا إلى الدنيا، حاولي عبورها إذا كنت تملكين الجُرأة.

- لِـمَنْ هذه القلعة الحصينة؟

- تسألين لِـمَنْ! كلّ ما يقع عليه بصرك هنا هو مُلك سيّدنا.

- لا بدّ أنّ سيِّدنا يقطن هذا القصر؟

- لا أدري، ربّما.

- أوَلا تدرين ما اسم هذه المنطقة؟

- كلا، إنّك تطلبين منّي الكثير، أباما وعديّ كلاهما ربما لا يعرفان، فقط مريام تعرف ذلك.

- ولماذا فقط مريام؟

- ألم أقل لك إنّها كانت وسيّدنا على وثام تام.

- ماذا تعنين بأنهما كانا على وثام تام؟

- يعني أنهما كانا كزوج وزوجة.

- ومَن قال ذلك؟

- تباً، لقد اكتشفنا ذلك بأنفسنا.

- إنّي لا أفهمك!

- طبعاً، لأنه لم يسبِق لك أن عشتِ حياة الحريم.

- هل يعني هذا أنك عشتِ سابقاً في الحريم؟

- أجل، يا حلوتي، آه لو تدرين! كنت في البادية جارية لسيّدي الشيخ معاوية، ابتاعني وأنا في العشرين ثم أصبحت عشيقته. كان يجلس على سريري يتأمّلني بإعجاب ويناديني: « يا هرّتي الجميلة» ثم يعانقني بعاطفةٍ

جيّاشة، كان رجلاً قسياً جداً، ولكنّ نساءه كُنّ يغَرن منّي، ولكنهنّ عاجزات عن إيذائي، إذ كنت الأثيرة لديه. وذات يوم اصطحبني للإقامة معه في إحدَى مزارعه بعيداً عن نسائه، لكنّ القدر كان لنا بالمرصاد، إذ هاجمتنا ذات صباح قبيلة من الأعداء. وقبل أن يتمكّن رجالنا من التصدّي للغزاة نجح المسلّحون في اختطافي، ثم باعوني في سوق النخاسة في البصرة لحساب سيِّدنا حيث أصبحت أعيش هنا كما ترَين. ثم ما لبثت أن انخرطت في البكاء وانهمرت الدموع من مآقيها فتبلَّل وجهها وصدرها.

- خفّفي عنك يا سارة، أنت الآن أحسن حالاً معنا.

- لو أعرف أنك تحبّينني قليلاً لهان الأمر عليّ، كان زوجي معاوية جميلاً جداً وشغوفاً بي.

- أنا أحبُّك كذلك يا سارة، قالت حليمة وتركتها تعانقها لتستأنف أسئلتها.

- هل تعرفين إذا ما كانت مريام قد عاشت في الحريم؟

- أجل، ولكنّها لم تَلْقَ المصير نفسه، لقد عاشت كأميرة وقضَى من أجل حبّها رجلان اثنان.

- لماذا إذاً جاءت إلى هنا؟

- بعضٌ من أقارب زوجها باعها رغبة في الانتقام لأنها خانته، غسلاً للعار الذي لحقهم.

- ولكن، لماذا خانته؟

- لأنه لم يكن الرجل الذي يناسبها؟

- هذا يعني إنّ زوجها لم يكن يحبّها؟

- على العكس، كان يحبُّها وقد مات لفرط حبِّها.

- كيف أنت على علمٍ بذلك؟

- لقد روَت لنا بنفسها قصّتها.

- إذاً، هي لم تكن معكنّ منذ البداية.

- كلاّ، فاطمة، صفيّة، ماجدة وأنا كنّا الأوائل، ثم جاءت مريام فيما بعد، وفي ذلك الوقت كنّا جميعنا على قدَم المساواة، فقد «أباما» كانت لها الإمرة علينا.

- ولكن، لا بدّ أنك تعلمين كيف تعرّفت إلى سيّدنا؟

- لا أعرف أكثر من ذلك، فسيّدنا نبيّ، ويجب أن نؤمن أنَّه يعرف كلَّ شيء ويرَى كلَّ شيء!

كلُّ ما أعرفه أنه استدعاها لحضرته ذات يوم، ومنذ ذلك الوقت صارت تُصدِر إلينا أوامرها، وتقف موقف الندّ أمام «أباما»، وتباعاً بدأت سلطتها تقوَى وتشتدّ، وكلّ هذا لم تبُحْ لنا هي به وإنما أدركناه بحدْسنا وبحُكم الواقع؛ ثم اشتدّ ساعدها حتى صارت تملك السلطة على «أباما» نفسها التي تضمر لها كمًّا هائلاً من البغض والكراهية.

حان وقت الدرس، قالت حليمة، إنّها حصة «أباما» ويجب أن لا نـدَعَ لها مجالاً لتقريعنا، فيا لَتعاسة مَنْ تصل إلى الصفّ متأخرة.

توجّهت حليمة وزينب إلى الصفّ بعد أن أصلحْنَ هندامهنّ وتـبرّجْنَ وتعطّرْنَ...

عندما أطلّت «أباما» من الباب، عانـت حليمـة صـعوبة فائقـةً لتمنـع نفسها من الضحك، لكنّ النظرة الحادّة للعجوز، والصمت الرهيب الـذي خيّم على القاعة، أرغماها على الحذَر.

دخلت أباما، فوقفت الفتيات احتراماً وانحنَيْنَ لها. كانت «أباما» امرأة عركتها السنون، ترتدي لباساً يبدو غريباً، فساقاها النحيلتان جداً لا يحجب منظرها بنطالُها الفضفاض المصنوع مـن الحريـر الأسـود، وعـلى صـدرها صدّرية مطـرّزة بالـذهب والفـضّة، وعـلى رأسـها عِمّـة صـفراء زُيِّنَـت في مقدَّمتها بريشة طويلة من طـير البلـشون، ويتـدلّى مـن أذنيهـا قرطـان مـن الذهب مرصّعَين بالحجارة الكريمة، فضلاً عن ذلك تطـوِّق جِيـدَها قـلادةٌ من الزمرّد واليـاقوت. كـلٌّ هـذه الأناقـة لم تحجـب الأنظـارَ عـن عمرهـا وقباحتها. بإيماءةٍ منها اتخـذت الفتيـات أمـاكنهنّ عـلى الأرائـك، أمّـا هـي فراحت تجول ببصرها باحثةً عن حليمة، ثم فجأةً علا صوتها:

– ما خَطْبُكُنّ، لقد بالغتُنّ في تبريجها! اسمعي يـا صـغيرتي، حـاولي أن تتعلّمي أشياءَ مفيدةً، لا تظنّـي أنّ رفيقاتـك قـد هَـبَطْنَ مـن الـسماء بعلـم فطريّ. ربما أيقظْـنَ أحاسيـسَهُنَّ في قـصور الحـريم قبـل المجـيء إلى هنـا،

ولكنّهُنَّ هنا فقط بدَأْنَ يُـدْرِكْنَ أيّ جهـدٍ وفـنٍّ تتطلّـبهما خدمـة الحُـب. في بلادي الهند، نبدأ بتعليم البنات هذه الأمور في فترة الطفولة. وحقيقة الأمر أنّ الحياة تبدو قصيرة قياساً إلى الزمن الذي نحتاجه لاكتساب المعارف.

هل تعلمين أيّتُها التعسة ماهيّة الرجل؟ هل تعرفين لماذا هـذا «العبـد» الدميم الذي حملك بين ذراعيه سابقاً عبر البساتين لـيس رجـلاً بالكامـل؟ تكلّمي!

تملّك حليمة الخوف، وأجالت نظرها حولها يائسة باحثـةً عـن مُعـين، لكنّ الفتيات لزِمنَ الصمت وأنظارُهنّ إلى الأرض.

– يبدو أنّ لسانك اِلْتصقَ بحلقك أيتها التعسة، انتظري، سوف أشرح لكُنَّ الأمور. وهنا راحت «أباما» تعرض بسرور ممزوج بالخُبث تفاصيل مـا يشكّل جوهر العلاقة بين الرجـل والمـرأة، في حـين اسـتحوذ عـلى حليمـة إحساسٌ بالخجل أربكها وجعلها عـاجزةً عـن أيّ كـلام أو تـصرُّف. هـل فهمتِ يا صغيرتي، سألتها العجوز؟

– أجابت حليمة بالإيجاب رغم أنّها لم تسمع نصف مـا قالتـه «أبامـا»، أمّا النصف الآخر فلم يكن واضحاً لها على الإطلاق.

استأنفت العجوز محاضرتها مشدِّدةً على أنّ الهدف الأسـاسي يكمـن في التفنُّن في إرضاء الزوج أو الحبيب، عليكنّ أن تعلمن أنّ الرجل هـو بمثابـة قيثارة، وعلينا أن نعرفَ كيف نعزُفُ على هذه الآلة أنغاماً مختلفة؟ ثم تابعت

التطرُّق بحماس إلى أدقّ التفاصيل التطبيقية مؤكّدة أنّ ما تشرحه هو علمٌ راقٍ وفنٌّ إلهيّ.

أمّا حليمة التي كان يعلو وجهها احمرار الخجل مما تسمع، فقد تابعت الشروحات بامتعاضٍ صامت يشوبه فضول مشحون بالإثارة قد بدأ يتسلل إلى حناياها.

أخيراً، أنهت أباما درسها وغادرت بوَقار من دون استئذان، فأسرعت الفتيات إلى الخارج للاستمتاع ببعض الراحة وتفرَّقن جماعات جماعات بين البساتين. لاحقت سارة حليمة من دون الاقتراب منها خوفاً من مريام التي نادت حليمة، ولمّا دنت منها عانقتها وجذبتها نحوها، أمّا سارة فلاحقتهما كظلِّهما.

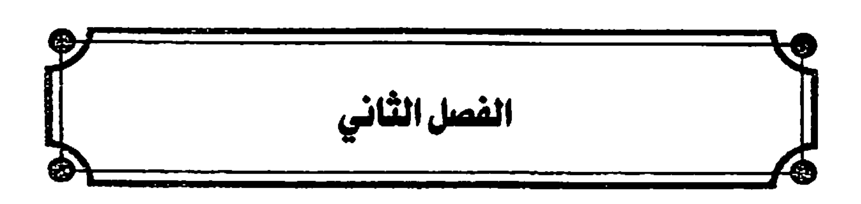
- هل بدأت تعتادين نَمَط حياتنا؟ سألتها مريام.

- كلُّ شيء يبدو غريباً وجديداً، أجابت حليمة.

- آمل أن لا يزعجك شيء هنا.

- على العكس تبدو الحياة رائعةً، إلاّ أنّ أموراً كثيرةً يصعُب عليَّ فهمها.

- كوني صبورة، يا حلوتي. ألْقت حليمة رأسها على كتف مريام وهي تنظر موارَبةً إلى سارة، فكاد الضحك يغلبها. لقد قرأت في عيون صديقتها السمراء عذاب الحسد والغيرة.



الفصل الثاني

في الوقت نفسه الذي كانت فيه حليمة ترتع في بساتين سيّدها المجهـول، كان فتًى يمتطي حماراً صـغيراً بلـون الليـل يعـبر بـدوره الطريـق العـسكرية القديمة، تلك الطريق التي تقود إلى قلعة «آلامـوت Alamut». إلاّ أنّـه كـان قادِماً من الجهة المعاكسة، أي من ناحية الغرب. لم يمضِ من الـزمن إلاّ أقلُّـه، كما يبدو بين تخلُّصه من تمائم الطفولة واعتماره عِمّة رجلٍ فوق رأسه؛ أمّا ذقنه فمغطاة بزغب ناعم الملمس، في حين تبدو عيناه المشبعتان بالحيوية، لا تزالان تحتفظان بمظهر شبه طفوليّ. إنه قادمٌ من مدينة «سافا» التي تتوسـط الطريـق بين همدان والريّ، المدينة العاصمة. لقد سبق لجدّه لوالده أن أسّـس في سـافا حلقة إسماعيلية حيث يتمّ تـدريس التعـاليم الـصارمة للإمـام الـشهيد عـليّ، ويخطط بشكل سرّي لأعمال مناوئة للسلطة.

كان المؤذِّن السابق في مدينـة أصـفهان عـضواً في هـذه الحلقـة، في وقت لاحق اكتشفت السلطة سرّ الحلقة، فداهمتها وقبضت على بعـض أتباعها خلال إحدَى اجتماعاتها السرّية؛ واتُّهم المؤذِّن السابق أنـه كـان عميلاً للسلطة وهو الذي وشَى بهم. ولم يمضِ وقت طويل حتى تـيقَّن

أتباع عليّ من صحّة معلوماتهم فحكموا عليه بالموت ونُفّذت العقوبة على الفور.

إثر ذلك، أقدمت السلطة على توقيف زعيم الأخوية طاهر شخصيًّا وأعدمته بأمرٍ مباشر من الوزير «نظام المُلك». تبع ذلك وبداعي الخوف، تفرُّق أعضاء الحلقة وتشتّتهم، وأغلب الظنّ أنّ هذا الحدَث قد دفن، بشكلٍ أو بآخَر، كلَّ مخطَّطات الفرقة الإسماعيلية في سافا.

عندما بلغ حفيد طاهر العشرين من عمره، أحاطه والده علماً بما جرَى بالتفصيل، ومن أجل ذلك، طلب إليه أن يسرج حماراً استعداداً للسفر.. اقتاد الوالد ابنه طاهر إلى أعلَى شُرفة في المنزل، ومن هناك أشار بيده إلى القمّة المخروطية المغطّاة بالثلج لجبل «داماڤان» الذي يرتفع عالياً ويتخطّى السحاب نحو البعيد اللامتناهي.

- «أڤاني»، يا بنيّ، وحفيد طاهر، قال له:

سِر مباشَرةً في هذه الطريق التي تؤدّي إلى «داماڤان»، عندما تصل مدينة الرّيّ، استفهم عن الاتّجاه المؤدّي إلى «شاه رود»، النهر الملكي، فإذا ما وصلت هناك صعِّد فيه حتى منبعه الذي يتفجّر من أعماق شُعَبٍ شديدة الانحدار، في أعلاه سوف تشاهد قلعة حصينةً، هذا المكان يسمّى «آلاموت Alamut» «عُشّ النسر». في هذا الحصن صديق لجدِّك طاهر، «السلام لاسمه» قد كرَّس كلَّ ما يمُتّ بِصلةٍ للتعاليم الإسماعيلية. قُل له مَن أنت،

واعرض عليه خدماتك، بعدها، سوف تحصل على الفرصة المناسبة للانتقام لمقتل جدِّك، اذهب الآن ولترافقك بركاتي.

تمنطق حفيد طاهر بسيف أعقف، ثم انحنَى باحترام أمام والده، وانطلق بحماره الصغير ميمِّماً وجهه إلى الرّيّ حيث وصلها من دون صعوبات. في أثناء الطريق، استعلم من بعض القوافل عن أفضل طريق إلى «النهر الملكي».

- ماذا يغريك بالذهاب إلى «شاه رود»، استوضحه صاحب الخان باندهاش؟ لا يخدعُني وجهك البريء، تراودني شكوك في أنّك تسعَى إلى الرئيس الذي يجمع حوله في الجبل أولئك الكلاب الهراطقة.

- إني أجهل ما تلمّح إليه، أجاب بمكر حفيد طاهر، لقد أتيت من «سافا» مسرعاً لملاقاة قافلةٍ كانت قد توجّهت إلى بخارَى وقد تأخّرت كثيراً في العودة.

- بعد خروجك من المدينة، ليكن جبل «داماغان» إلى يمينك، أوضح له الرجل، سوف تصل إلى طريق واضحة المعالم، تلك التي تسلكها قوافل الشرق، اسلكها وهي ستقودك إلى النهر.

شكره حفيد طاهر، ثم ركب حماره وباشر السير. بعد يومين تناهَى إلى مسامعه خرير ماء بعيد، ترك الطريق واقتاد مطيّته ناحية النهر الذي يحاذيه ممّر ضيّق، سالكاً أرضاً رمليّة مكشوفة تارةً، وطوراً عبر أجَماتٍ ملتفّة، في الوقت الذي ازدادت فيه طريق النهر انحداراً بالتلازم مع تزايد صوت

هدير المياه. بعد مسيرةٍ استغرقت قسطاً كبيراً من النهار، حيناً على متن حماره، وحيناً على قدميه، ألْفَى نفسه محاطاً بشرذمة من الخيّالة. لقد تمّ تطويقه بشكل سريع جداً وغير متوقّع، لم يسمح له حتى بمحاولة إشهار سيفه. وعندما تمالك نفسه ورفع يده عن قبضة سيفه لحظ سبع حراب حادّةٍ موَجّهةً إليه، اعتراه الخجل من شعوره بالخوف وقال لنفسه: ما الحيلة أمام هكذا تفوّقٍ في العدد؟.

خاطبه رئيس الخيالة قائلاً:

- لماذا تتجوّل هنا أيُّها الغِرّ؟ هل جئت تصطاد السمك؟ احذر أن تعلق الصنارة في حلقومك!

أُصيب حفيد طاهر بانزعاج كبير، فإذا ما كان الخيّالة من رجال السلطان، استوجب الأمر كتمان الحقيقة، وإذا ما كانوا من الإسماعيليين واستمرّ في صمته، اعتبروه جاسوساً، لذلك حاول يائساً أن يستقرئ حقيقتهم من وجوههم الخرساء.

هنا نظر رئيس الخيالة إلى زملائه نظرة ذات مغزًى قائلاً:

- يبدو لي أيُّها الوغد أنّك تفتّش عن شيء لم تفقده، قال هذا ثم استلّ من مؤخّرة رَحل حصانه عصاً قصيرة في طرفها علمٌ أبيض شعار أشياع عليّ.

- إن كان هذا فخاً، قال «أقاني»، أكون سيّء الحظ، عليَّ المجازفة، ثم تقدّم ومدّ يده إلى العلم الذي يحمله رئيس الخيّالة وقبض على طرفه باحترام ووضعه على جبينه.

- يا لَلسّعادة! صاح الرئيس، إنك تسعَى إلى قلعة «آلاموت Alamut»، إذاً عليك اللحاقَ بنا.

امتطَى «ابن طاهر» حماره واستأنف السير بمواكبة فرقة من الخيّالة الذين توغّلوا عميقاً في الجبال، في حين كان صوت مياه النهر يزداد هديراً. وصلوا أخيراً أمام نتوءٍ صخريّ كبير يعلوه بُرجٌ للمراقبة، وفي أعلاه ترفرف راية. أوقف رئيس المفرزة حصانه ثم لوَّح بعلمٍ باتّجاه البُرج، فتلقّى من الأعلَى الإشارة المعهودة.

دخل الخيّالة في مضيقٍ باردٍ مُظلم حيث الطريق ضيِّقةٌ ولكنها واضحة، وأحياناً محفورةٌ في وسط الصخر. عند أحد المنعطفات توقّف الرئيس ومدّ ذراعه نحو الجبال فلاحظ «ابن طاهر» على مسافةٍ بعيدةٍ بُرجَين مرتفعين يتلاشَى بياضهما في ظلّ الجبال القاتمة.

- هذه «آلاموت Alamut»، صاح القائد، وهو يهمز حصانه. حيال هذه المناظر الغريبة اعترَى «ابن طاهر» الذهول؛ أمامه جبل عظيم بُنِيَت فيه تحصينات كأنها محفورةٌ داخل الصخر، تنتصب عاليةً نحو السماء. تلك هي القلعة الأعظم من بين عشرات القلاع المشيّدة في منطقة «رود بار» من قِبَل ملوك الديلم، وهي تبدو لكلّ من يراها أنه يستحيل لأيّة قوّةٍ أن تستولي عليها. بإشارةٍ معيّنةٍ من آمر المفرزة، ووفقاً لآليّةٍ ميكانيكية مُثبتة في الطرف الآخر من الجدار، انخفض جسر متحرّك فوق سيل الماء، عبره الخيّالة إلى ممرّ تعلوه قناطر ضخمة أفضَى بهم إلى فِناءٍ رَحبٍ في الهواء الطَّلْق.

في الأعلَى يرتفع جبل شاهق بثلاث شُعَب، وفي الوسط سُلَّمٌ حجريٌّ ذو مستوَياتٍ عديدة. إلى اليمين واليسار، وعلى امتداد الأسوار، تنمو أشجار ضخمةٌ من الحَوْر والدُّلب، في ظلِّها تترامَى مساحاتٌ من المراعي حيث تسرح قطعانٌ من الماعز والحمير والبغال والجِمال تأكل العُشب آمنةً مطمئنّة. عند الأطراف تقع الثكنات والحظائر ومساكن الحريم.

عمّت القلعةَ موجةٌ من الصَّخَب والحمِيّة احتفاءً بابن طاهر الذي جال النظر حوله فلم يصدّق عينيه. في الوسط فِرَق عديدة من الشُّبّان يتدرّبون على استعمال السلاح، حيث تُسمَع أوامر صارمة، وقعقعة السلاح وصليل السيوف، يتماهَى معها أحياناً صهيل حصان أو نهيق حمار. بعض الرجال منهمكون في تدعيم الأسوار، أمّا البغال فتجُرّ خلفها حجارةً ثقيلةً يعمَدُ العمّال إلى رفعها بوساطة عَتَلةٍ إلى المكان المطلوب. صخَبٌ وصراخٌ هنا وهناك يحجب عن الأسماع هديرَ السيل.

تفرّق عناصر الحراسة ونادَى قائدهم أحد الجنود وسأله عن النقيب «مينوشهر». تسمّر الجنديّ مكانه وقال:

- في غرفته، أيُّها العريف «أبوتا»!

أشار القائد إلى الفتَى أن يتبعه، فتوَجَّها إلى أحد الأبراج السُّفلَى حيث بدأت تُسمع ضرباتٌ حادّة مصحوبة بأنين الألم. استدار «ابن طاهر» فأبصر رجلاً، مربوطاً إلى عمودٍ صخريٍّ، عارِيَ الجسم حتى وسطه، وقربه يقف «عبد» عملاق يرتدي سروالاً مخطَّطاً قصيراً، ويعتمر طربوشاً أحمر، يلهب

الجسد العاري بلسعاتِ سَوْطٍ من الجلد المجدول؛ كلُّ سَوْطٍ يجعل قطعةً من اللحم تتطاير في الهواء ليبدأ الدم بالنَّزف. إلى جانبه يقف جنديٌّ آخَرُ للمساعدة، وبيده دلوٌ من الماء يروي به، من وقت لآخَر، وجه الرجل التَّعِس. لم يفُت العريف قراءة الرُّعب المتمثِّل بابن طاهر، واكتفَى بابتسامة ساخرة.

- نحن هنا، لا نبيت على الحرير، ولا نتعطَّر بالعنبر، قال العريف، وإذا كنت تظنُّ غير ذلك، فأنت على ضلال. تابع حفيد طاهر سَيره إلى جانبه صامتاً. كان يودّ أن يعرف ماذا ارتكب البائس من جُرمٍ ليستحِقّ مثل هذا العقاب الصّارم، ولكنّ أمراً ما لم يمنحه الشجاعة ليطرح السؤال. دخلا إلى أحد أروقة البُرج، ومن خلال رؤيته لقناطره، أدرك الفتَى الحدّ الذي تبلغه السّماكة الهائلة لجدران القلعة المبنيّة على قواعِدَ راسخةٍ من الصخور المتراكمة. إلى الأعلَى سُلَّمٌ مُظلمٌ رطبٌ؛ ارتقياه فدخلا في ممرٍّ طويل أدّى إلى قاعةٍ واسعة أرضُها مغطّاةٌ ببساطٍ عادِيّ وفي إحدَى الزوايا بعضُ الأرائك. ثمّة رجلٌ في العقد الخامس نصفُ نائم، ذو بطنٍ كبير ولحيةٍ قصيرة مجعّدة، يعتمر عِمّةً بيضاءَ ويلبس جلباباً مطرّزاً بالذهب والفضة. انحنَى العريف أمامه وانتظر، ريثما يتوجّه الرجل إليه بالكلام.

- ماذا في جَعبتك من جديدٍ أيُّها العريف؟

- لقد أمسكنا بهذا الفتَى خلال جولةٍ استكشافيّة أيُّها النقيب، وهو يدّعي أنّه كان متوجِّهاً إلى «آلاموت Alamut».

انتصب النقيب ببطءٍ، فإذا بابن طاهر أمام رجلٍ قُدَّ من صخر، وضع يديه على خاصرته مركِّزاً نظره على الفتى.

- مَن أنت، أيُّها البائس؟ قالها بصوتٍ جافّ.

انقضت لحظة قبل أن يستذكر كلمات أبيه، ألم يأتِ إلى هنا كي يقدِّم خدَماته طَوْعاً؟ فلَم يتلَعثم وعَرَفَ كيف يُجيب بكلّ هدوء.

- أدعَى «أڤاني»، حفيد طاهر من «سافا» الذي قضَى الوزير بإعدامه لأعوامٍ خلَت. استمع النقيب إليه بدهشةٍ مقرونةٍ بالشَّك.

- أتقول الحقيقة؟.

- ولماذا أكذب أيُّها السيّد النبيل؟.

- إذا كان الأمر كذلك، فاعلم أنّ اسم جدِّك مكتوب بأحرُفٍ من ذهب في قلوب كلِّ الإسماعيليين، وسيّدنا سيكون في غاية السعادة أن تكون بين ظهرانينا، هل من أجل هذا فقط قدِمتَ إلى هنا؟

- أجل، كي أخدَم الرئيس الأعلَى للإسماعيليين وأنتقم لمقتل جدّي.

- حسناً، ماذا بمقدورك أن تفعل؟

- إنّي أُحسن القراءة والكتابة، وكذلك قواعد اللغة والعروض، وأحفظ عن ظهر قلب نصف القرآن.

- ضحك النقيب وأضاف: لا بأس، وماذا عن فنون القتال؟

- أُتقن ركوبَ الخيلَ، والرَّشْقَ بالقَوْس وأُحسِنُ جيّداً استخدامَ السَّيف والرُّمح.

- هل لديك امرأة؟.

وهنا تضمَّخ وجه الفتَى بالحمرة حتى أذنيه من الخجل وقال:

- كلاّ أيُّها المعلِّم.

- هل مارست الفسق؟.

- كلاّ أيُّها المعلِّم.

- حسناً.

الْتَفت النقيب إلى العريف وقال له:

- خُذ هذا الفتَى «ابن طاهر» إلى «الدَّاي أبو سراقة» وأبلِغه أنه قادمٌ من قِبَلي. إن لم يكن في الأمر أيّة خدعة، فأعتقد أنه سيُسَرّ بذلك، ثم انحنيا وغادرا الغرفة.

في الساحة، بدا العمود حيث «للعبد» المعاقَب أن تلقَّى لسعات السَّوْط، خالياً، فقط بقايا من الدماء تُوحي بما سبق أن حصل هنا. لا يزال «ابن طاهر» يشعر في أعماقه بهَوْل المشهد، ولكنَّه كان يستشعر الاطمئنان على شخصه لكونه حفيد الشهيد طاهر.

صعد مع العريف سُلَّماً يؤدِّي إلى الفِناء الثاني حيث يقع إلى الجهة اليُمنَى مبنًى قليل الارتفاع، يبدو أنه ثكنة عسكريّة. توقّف العريف أمام المبنَى وجالَ ببصره حوله كمن يفتِّش عن شخصٍ ما.

في هذه الأثناء، صدف مرور فتًى أسوَد البشرة يرتدي جلباباً أبيضَ وبنطالاً من اللون نفسه، ويعتمر طربوشاً أبيض، استوقفه العريف

واستوضحه عن مكان وجود «الدّاي أبو سراقة»، فأشار إليه الفتَى باللحاق به. راح الشابّ الأسود يضحك بكلّ جوارحه، فالداي المحترم هو الآن بصدد تعليمنا علم العروض، وجميعنا في الأعلَى عند الشُّرفة، ثم مستديراً صوب «ابن طاهر» قال له:

– هل أتيت إلى هنا لتصبح فدائيًّا، لم ترَ بعد أيَّ شيءٍ من المفاجآت، أنا التلميذ عبيدة. تبعه «ابن طاهر» إلى جانب العريف دون أن يعيَ تماماً ما قاله. تسلَّق الجميع أعلَى المبنَى إلى السطح. الأرض كلّها تقريباً مغطّاة بسجّادة محبوكةٍ بطريقةٍ ينقصها الإتقان، وعليها يجلس ما يقارب العشرين شاباً، يرتدي جميعهم اللون الأبيض على غرار عبيدة، ويضع كلٌّ منهم فوق ركبتيه لوحاً للكتابة يدوِّن عليها بقلمٍ خاصٍّ ما يقوله العجوز الذي يرتدي جلباباً طويلاً أبيض اللون وهو يجلس أمامهم وكتابه بين يديه. ما إن شاهدهما حتى وقف وعلا جبينَه تغضُّنٌ ينِمُّ عن عدم الرِّضَى.

– ماذا تفعلان هنا في هذا الوقت؟ توجّه بالكلام إلى العريف. ألا ترَيا أنِّي قائمٌ بالتدريس؟.

منزعجاً من الملاحظة، قال العريف بصوت واضح جلِيٍّ في الوقت نفسه الذي انضمّ عبيدة إلى رفاقه الذين رمقوا القادِمَيْن بفضول ظاهر:

– أرجو المعذرة لإزعاجك في أثناء التدريس أيُّها المحترَم، إلاّ أنّ النقيبَ طلب إليّ إحضارَ هذا الفتَى إليك، وأنا أتركُه بتصرُّفك.

راح العجوز ينظر إلى «ابن طاهر» ويتأمّله من رأسه إلى أخمص قدميه، ثم سأله:

– مَن أنت، وماذا تريد أيُّها الفتَى؟

– اسمي «أڤـاني»، حفيد طاهر، ذاك الذي حكم عليه الوزير في الماضي بالمَوْت في سافا، وقد أوفدني والدي إلى «آلاموت Alamut» لأخدم القضية الإسماعيلية وأنتقم لمقتل جدّي.

علا البِشْرُ وجهَ العجوز، فسارع نحو «ابن طاهر» مادًّا ذراعيه وعانقه بحرارة.

– سعيدة هي العيون التي تشاهدك في هذا القصر، يا حفيد طاهر، كان جدّك صديقاً لي وصديقاً لمعلّمنا. اذهب أيُّها العريف واشكر النقيب باسمي. ثم متوجِّهاً بالكلام إلى تلاميذه: وأنتم أيُّها الفِتيان، انظروا جيِّداً إلى رفيقكم الجديد، عندما سأروي لكم تفاصيل التاريخ الإسماعيليّ، لن أستطيع البقاء صامتاً أمام الإنجاز الذي قام به الجَدُّ المبَجَّل لهذا الفتَى، طاهر الذي أضحَى شهيد قضيَّتنا الأوّل.

أشار العريف بطرَف عينه لابن طاهر أنّ الأمور سارت سَيراً حسناً، وتوارَى من الباب المؤدّي إلى السُّلَّم، أمّا «أبو سُراقة»، فقد شدّ على يدِ الفتَى واستفهم منه بلجاجة عن أحوال والده وعائلته، واعِداً إياه بإحاطة الرئيس الأعلَى عِلماً بقدومه، ثم أشار إلى أحد تلاميذه الجالس بقربه قائلاً له:

– يا سليمان، اصحب «ابن طاهر» إلى عنبر النوم، وحدِّد له مكان

الأرعن الذي اقتضى الأمر طرده، واحرص على أن يتخلَّص من كلِّ غبار الطريق، وسلِّمْه ما يلزَم من لباس ليكون جاهزاً للصلاة عند المساء.

هبّ سليمان على الفور واقفاً، وانحنَى أمام العجوز قائلاً:

– سوف أحرصُ على تنفيذ ما أمرتني به حضرة الدّاي الموقّر، ثم دعا «ابن طاهر» لمرافقته. بوصولهما إلى الأسفل، سارا في ممرّ ضيّق، ولدَى بلوغهما وسْطَه أزاح سليمان ستاراً منسدلاً ودخل مع رفيقه إلى عنبرٍ واسع. في هذا العنبر عشرات الأسرّة المنخفضة والمرصوفة على امتداد الجدار. على الأسرّة أكياس كبيرة من الكتّان محشُوَّةٌ بالعُشب الجافّ، أمّا الوسائد فسُروج خيل قديمة. في الأعلَى عدد من الرفوف الخشبية مثبّتةٌ في الجدران وعليها أمتعة مختلفة مرتّبةٌ بنظام تامّ: قصاع من الفخّار، سجّاد للصلاة، عُدّة الغسيل والتنظيف. في أسفل كلِّ سريرٍ إطارٌ خشبيٌّ رُكِّزَت عليه الأسلحة المختلفة من القوس والسيف إلى الرّمح وسواها. على الحائط المقابل عُلِّقت أواني من البرونز لها شُعَب عديدة تعلوها مشاعل كثيرة.

– هذا السرير لا صاحب له، قال سليمان مشيراً إلى فراشٍ معيَّن، فصاحبُه قد طُرد منذ أيام عديدة، هذا سريري، وذاك سرير يوسف، إنه مِن «داماغان» وهو الأضخم والأقوَى بين كلِّ الرفاق.

– لقد قلت إنّ صاحب هذا الفراش قد طُرد، ما هو سبب طرده؟

- إنه لم يكن جديراً بأن يكون فداثيًّا.

- تناول سليمان سروالاً وجلباباً وطربوشاً من اللون الأبيض وقال لابن طاهر:

- هيّا، لنذهب إلى الحمّام.

دخلا غرفة غير بعيدة، حيث تمّ تركيز حوض من الحجارة تدخل إليه المياه من قناةٍ خاصة. استحمّ «ابن طاهر» سريعاً، ثم ارتدَى ثيابه الجديدة بمساعدة سليمان وعادا إلى العنبر.

- لقد عهد والدي إليّ بتقديم تحياته إلى الرئيس الأعلَى، فمتَى تظنٌّ أنه من الممكن أنْ أمثُل بين يديه؟

اكتفَى سليمان بالابتسام ثم أجابه:

- انزع هذه الفكرة من رأسك يا عزيزي، مضَى عليّ عام هنا وما زلت أجهل مَن هو، لم يتسَنَّ لأيٍّ منّا أن يشاهده حتى الآن.

- ألا يعيش في القصر؟.

- إنه هنا، ولكنّه لا يغادر برجه أبداً. سوف تسمع بعض الأمور الأخرَى أيضاً. وفقاً لِما سمعتُك تقول أنت مِن «سافا» وأنا مِن قزوين.

تأمّله «ابن طاهر» ملِيًّا، لا يمكن أن يتخيَّل فتًى أكثر وسامةً منه: قِوامٌ منتصِب كأنه شجرة سرو، وجهٌ صارمٌ لكنّه جذّابٌ، خدّان لفحهما الهواء

والشمس، عينان بلون المخمل الرّماديّ ترمقان الدنيا بنظرات نسر، وزغَبٌ خفيف بدأ ينمو على ذقنه وشفته؛ أمّا الجُرأة والشجاعة فيمكن قراءتها في كلّ تعبيراته، وتكشف ضحكتُه عن صفٍّ من الأسنان القويّة الشّديدة البياض، ضحكةٌ صادقةٌ فيها شيءٌ من الاستهزاء ولكنّها لا تجعلك تنفر منه.

قال «ابن طاهر»: - لكن ما يدهشني ما لاحظته الآن في وجوهكم، إنّها كلّها وجوه صارمة متعَبة تبدو للناظر إليها كأنّكم في الثلاثين من العمر، علماً أنّ ذقون أكثركم لا تُوحِي بأنّكم قد تجاوزتم العشرين. تبدّت على وجه سليمان ابتسامةٌ خاطفة وقال: - عليك التريُّثُ خمسةَ عشرَ يوماً فقط وسوف ترَى نفسك شبيهاً بنا كأنّك أخٌ لنا. اعلمْ أننا لسنا هنا بصدد التسلية في اقتطاف الزهور وتعقّبِ الفَراش.

- أودُّ أن أطرح عليك سؤالاً، قال «ابن طاهر»: لقد شاهدت منذ وقت قصير رجلاً يتعَرَّض للجَلْد، وإني أرغب بمعرفة الذّنب الذي ارتكبه ليستحِقّ مثل هذا العقاب؟

- إنّها جريمة لا يمكن التغاضي عنها. لقد كُلِّف بمرافقة قافلةٍ متوجِّهةٍ إلى تركستان، فطاب لرجال القافلة أن يحتسُوا الخمرة في أثناء الطريق، فلم يتردَّد في مشاركتهم الشراب مع معرفته أنّ سيِّدنا قد حرَّم ذلك بشكل قاطع.

- هل حرّمه سيّدنا؟ قال «ابن طاهر» مندهشاً، لكنّ التحريم صادر عن النبيّ، وهو يسري على كلّ المؤمنين!

- مثل هذا الأمر، لا يسَعُك فَهمه يا صغيري، سيِّدنا يسمح ويحرّم ما يشاء. نحن معشر الإسماعيليين، مُلزَمون بطاعته وحده. عَلَت الدهشة وجه «ابن طاهر» وأحسَّ بانقباض في صدره، ثم أردف سائلاً:

- سبق أن قلت إنّ سَلَفي تعرَّض للطَّرد، فماذا فعل؟

- كان يتحدَّث عن النسوة بأسلوب غير لائق.

- وهل هذا محظور؟

- أجل، من الناحية المبدئية، فنحن فرقة من النُّخبة وعندما يتمّ تكريسنا سنكون في خدمة سيِّدنا مباشرةً.

- بماذا سنصبح مكرّسين؟

- لقد أوضحت لك ذلك، نصبح مكرَّسين كفدائيين، عندما ننهي مدّة التعليم ونخضع لاختبار مناسب، عندها تتمّ ترقيتنا إلى هذه المرتبة.

- وماذا يعني أن يكون المرء فدائيًّا؟

- الفدائي هو إسماعيليّ على استعدادٍ أعمَى للتضحية بنفسه بأمرٍ من الرئيس الأعلَى، فإذا ما قضَى في أثناء قيامه بواجبه أصبح شهيداً، وإذا ما نجح في مَهَمَّته ولم يمُت يُرفَّع إلى رُتبة داي أو أكثر.

- ما أتعلّمه هنا جديد بالنسبة لي، هل تظنّ أنّ الاختبار سيكون صعباً جداً؟.

- من دون أدنى شكّ، ولو لم يكن الأمر كذلك، لَمَا كُنّا نتهيّأُ لـه يوميًّا من الفجر حتى هبوط الليل. هنـاك سبعةٌ مـن رفاقنـا أرهقهـم الإجهـاد، وأحدهم سقط مَيْتاً في مكانه، أمّـا البـاقون فقـد طلبـوا التنحّـي مـن تلقـاء أنفسهم.

- ولماذا لم يفضّلوا مغادرة «آلاموت Alamut» بدل أن يتعرَّضـوا لمثـل هذه المذلّة؟

- يا عزيزي، هنـا في «آلامـوت Alamut»، لا نحـبّ الهـزار، إذا قُـدِّر لأحدٍ أن يكون في هذه القلعة، فليس في مقدوره الخروج منهـا وَفـق هـواه، ثمّة كثير من الأسرار في هذه الديار.

تزاحم التلاميذ وهم يـدخلون الغرفـة بعـد أن توضّـأوا تمهيـداً لـصلاة المغرب، في حين دخل تلميذ عملاق يفوق «ابن طاهر» طُـولاً بمقـدار رأسـه وارتمَى على السرير قربه. أُدْعَى يوسف مِـن «داماغـان»، عـرَّف عـن نفسه، لستُ خبيثاً بالفطرة، ولكنّي لا أنصح أحداً بأن يتحـدّاني وأن يقهـرني، قريبـاً سنتعارَف إلى بعضنا بشكل أفضل.

ضحك «ابن طاهر» فقال:

- سمعتهم يقولون إنّك الأضخم والأقـوَى بـين التلاميـذ، فانتـصب العملاق فجأةً واقفاً:

- مَن قال لك ذلك؟

- سليمان.

عاد يوسف واستلقَى مجدَّداً، بينما بدأ الرفاق يضحكون، وبدَوْره عبيدة اقترب من «ابن طاهر» وسأله:

- كيف تسير أمورك معنا أيُّها الصديق؟ بالطبع لن تستطيع إبداء رأيك الآن كونك وصلت منذ وقت قصير، ولكنْ، اعلم أنّه بعد انقضاء أربعة أشهر في هذه القلعة، سوف تشعُر أنّ كلّ ما صحبته معك قد تلاشَى كالدُّخان.

تقدَّم فتًى ضخمُ الهيكل مقوَّسُ السَّاقين من «ابن طاهر» وعرّف عن نفسه: - أُدعَى جعفر من الرّيّ وأنا هنا منذ عام، فإذا ما لمست حاجة لبعض الشروحات حول الدروس، فما عليك إلاّ الاستعانة بي. شكره «ابن طاهر» على بادرته، ثم بدأ باقي الرفاق يتوافدون واحداً تِلْوَ الآخَر ليتعرَّفوا إلى «ابن طاهر». أخيراً حان دور أصغرهم فتقدّم ليُعرِّف عن نفسه:

- أُدعَى نعيم من منطقة «داماڤاند»، وعلى الفور أغرق الجميع في الضحك، لدينا كمٌّ هائلٌ من الموادّ علينا دراستها، هل تعرَّفت إلى مدرِّسينا؟ أوَّلهم الذي استقبلك بحفاوة، يُدعَى «الدّاي أبو سراقة» إنه داعية شهير. لقد سافر إلى كلّ البلدان الإسلامية بهذه الصفة وعيّنه سيِّدنا رئيساً لنا. إنه يعلّمنا السيرة النبوية وتاريخ الدعاة والشهداء الذين سقطوا من أجل القضية الإسماعيلية، بالإضافة إلى قواعد اللغة والشِّعر في اللغة الفارسية.

- كفاك الاستماع إلى همس هذا الطائش الأصغر والأكثر ثرثرةً! قال

سليمان مقهقهاً؛ سوف تتعرّف بنفسك إلى معلّمينا يـا «ابـن طـاهر». تـذكّر فقط أنّ «الدّاي إبراهيم» الذي يعلّمنا أصول الفقه، والجبر، وقواعـد اللغـة العربية والفلسفة، هـو صـديق كبـير لـسيّدنا، وينبغـي تجنُّـب ملاحظاتـه، وعليك أن تحفظ كـلَّ مـا لـه علاقـة بمـوادِّ دراسـته عـن ظهـر قلـب. أمّـا «الحكيم» اليوناني الأصل فهو سَمِحٌ يتساهل مع بعض الثرثرة، وفيما يتعلّق بالنقيب «مينوشهر» فهو لا يحتمل أقـلّ اعـتراض، كـلُّ شيء معـه يجـب أن يكون جاهزاً على الفور، وكلّما نفّذت أوامره بحميّةٍ وانـدفاعٍ كلَّـما حظيـت بتقديره وتعاطفه معك. أخيراً يأتي «الداي عبد الملك»، فهو لا يـزال شـاباً، ولكنّ سيِّدنا لا يُكنُّ له الإعجاب. إنه رجـل قـاسٍ لا يبـالي بالجهـد والألم، وهو يحتقر مَن لا تبـدو عليـه ملامـح الجدّيـة، إنـه يهـتمّ بـترويض إرادتنـا وقدراتنا على الاحتمال، وسوف تتحقّقُ فيما بعد أنّ هذا التدريب هو في غاية الأهمّية لدرجةٍ كبيرةٍ تفوق في نظر القيِّمين هنا حتى أصول العقيدة نفسها.

- خفِّفْ عنه، لا تُثِر الرُّعب في قلبه أيُّها الأخرق، قاطعه يوسـف، وإلاّ دفعتَه إلى محاولة الفرار، انظر إليه، يبدو شاحباً.

احمرّ وجه «ابن طاهر» فقال:

- إني جائع، فلم أتناول الطعام منذ الصباح.

- حسناً، سوف يطول صيامك يا عزيزي، انتظر فقط لتتعرّف إلى «عبد الملك».

وهنا سُمع نفير طويل.

- إلى الصلاة، صاح يوسف.

جميع التلاميذ بمن فيهم «ابن طاهر»، تناولوا سجادة الصلاة وهُرعوا لاتّخاذ أماكنهم فوق سطح المبنَى، حيث ينتظرهم «الدّاي أبو سراقة». عندما لاحظ الأخير اكتمال عددهم، وأنّ كلّ واحدٍ منهم أخذ موقعه خلف مُصلاّه، اتّجه صوب الغرب ناحية الأماكن المقدّسة وأمّ المصلّين، تالياً الآيات، راكعاً، ساجداً، وموَجّهاً إلى الله هذا الدعاء:

- تعالَ إلينا أيُّها المهديّ الموعود المنتظَر، حرِّرنا من مغتصبينا، خلِّصنا من الهراطقة، أيُّها الشهيد عليّ، أيُّها الشهيد إسماعيل كونا الشفيعين لنا. خلفه التلاميذ يقلّدون حركاته ويردّدون كلماته.

بعد قليل، هبط الليل، فانتاب «ابن طاهر» شعور غريب مشُوبٌ بالضِّيق. خُيّل إليه أنّ كلّ حياته، حتى هذه البرهة لا تعدو كونها حُلماً، لكنه حُلُمٌ غريب مشوّش، فهذه الابتهالات لعليّ وإسماعيل لا يجرؤ المؤمنون على التفوّه بها خارج «آلاموت Alamut» إلاّ ضمن أماكن محكمة الإغلاق. كان مشوَّشاً مضطرباً. أنهَى التلاميذ صلاتهم وأسرعوا إلى العنبر حيث رتّبوا مصلّياتهم ثم أسرعوا لتناول طعام العشاء.

تقع قاعة الطعام الواسعة في المبنَى نفسه، ولكن للجهة المقابلة للعنبر. لكلّ تلميذٍ مكانه على امتداد الجدار، وعليه الجلوس على حصير، من

السوخر المجدول، ممدودٍ على الأرض. ثلاثـةٌ مـن التلاميـذ تـتمّ تـسميتهم مداوَرةً لخدمتهم. يُقدَّم لكلٍّ واحدٍ رغيف كبير من خبز القمح وأحياناً مـن خبز التين المجفّف أو البطاطا مع كوب كبير من الحليب يُحتفظ به في أوعيـةٍ ضخمةٍ من الخَزَف. خلال الأسبوع يقدَّم لهم الـسمك مـرّات عديـدة، أمّـا اللحم فمرّة واحدةً ويكون لحم بقرٍ أو حَمَلٍ أو خروف مشويٌّ عـلى الجمـر. خلال تناولهم العشاء، يتولّى «أبو سراقة» مراقبتهم ويتناول طعامـه معهـم. الجميع يأكلون بصمت تامّ غارقين في أفكارهم.

بعد الانتهاء من تناول الطعام، تفرّق الجميع زمراً صغيرة، بعضهم ذهـب إلى الشُّرفة، وبعضهم توجّه ناحية الأسوار، أمّا يوسف وسـليمان فقـد صـحبا معهما «ابن طاهر» ليحدّثاه عن الحياة في القلعة.

خيّم على القلعة سُكونٌ مُطبِق مكّن «ابن طاهر» من سـماع هـدير ميـاه النهر، فأُفعم قلبه بحُزن عميق. الظلمـة الحالكـة تحيطهم، ولا يخفـف مـن وطأتها إلاّ لمعان النجوم المتوهّجة في السماء. ثمّة رجل بيده شمعدان مضيء يعبر الفِناء، ورجال الحراسة يحملون المشاعل ويتجوّلون أمام مباني الـشُّرفة العليا ويتوقّفون عند المداخل. من الجبال تهبّ رياح خفيفـة مُـشبَعةٌ بـالهواء البارد فتتراقص أنوار المشاعل وتُرخي بظلالها على المباني والأشـجار. سـار الرفاق الثلاثة بمحاذاة الجدار الذي يحيط بالشرفات السُّفلَى.

- هل يسَعُنا المُضِيُّ صُعُداً إلى الأعلَى؟ سأل «ابن طاهر»، وهو يشير إلى المبنَى حيث يقوم حَمَلة المشاعل بالحراسة.

- لا أحد، ما عدا الرؤساء فقط يحق لهم الصعود إلى الأعلَى، قال سليمان، هناك «عبيد» عمالقة يتولَّوْن حراسة مدخل أماكن سكن سيّدنا، خصيان تلقّاهم الرئيس الأعلَى هديةً من خليفة مصر.

- هل سيِّدنا هو في خدمة هذا العاهل؟

- هذا، ما لا نعرفه على وجه الدقّة، أجاب سليمان، قد يكون العكس هو الصحيح.

- كيف ذلك؟ قال «ابن طاهر» مندهشاً، ألم يستولِ سيِّدنا على قلعة آلاموت باسم هذا الخليفة؟

- هذه أيضاً إشكالية أخرَى، تدخّل يوسف مشيراً إلى أنّ الأمر يحتمل التأويلين، وأنصحكم بعدم الخوض بعيداً في هذا الشأن.

- أعتقد أنّ الخليفة في القاهرة كان الرئيس الأعلَى لكلّ أتباع عليّ حيث نشكّل نحن، الإسماعيليون، جزءاً منهم.

- سيِّدنا هو رئيسنا الأوحد، ولا نطيع سواه، صرّح بصوت واحد كلٌّ من يوسف وسليمان.

- لماذا لا يظهر الرئيس الأعلَى أمام أتباعه؟.

سأل «ابن طاهر» بلجاجة:

- إنه مقدّس، قال يوسف، إنّه يتلو القرآن ويدرسه طوال النهار، ويؤدّي الصلوات، ويحرِّر مِن أجلنا التعليمات والأوامر.

- لا يعود إلينا أمر الحُكم عن أسباب عدم ظهوره أمامنا، قال سليمان، يرَى حضرته هذا مناسباً، وهو يعرف موجب ذلك.

- كانت لديّ رؤية مختلفة، صرّح «ابن طاهر»، فنحن في بلدتنا، كنّا نظنّ أنّ الرئيس يجمع حوله جمهوراً من الإسماعيليين بهدف القضاء على السلطان والخليفة المرطوقين.

- هذه مسألة أخرَى، أجاب سليمان، ما يطلبه سيِّدنا بشكل أساسي هو الخضوع التامّ والإيمان المُطلَق بالقضية الإسماعيلية.

- أتظنّ أنه بإمكاني أن أدركك وقد سبقتني في هذه الطريق، سأل «ابن طاهر» باهتمام؟

- نفِّذ من دون تردُّد ما يأمرك به رؤساؤك، وستنال ما أنت بحاجة إليه، أجابه سليمان. لا تتصوّر أنّ الخضوع هو أمرٌ يسير. في البدء تشعر بروح التمرّد تلتهب داخل نفسك، فالجسم لا يريد أن يمتثل للأوامر، وذكاؤك لا يتورّع عن ابتداع آلاف الاعتراضات على الأوامر الموجّهة إليك، لكن عليك أن تعلمَ أنّ هذه الاعتراضات ليست إلاّ خدعةً من خِدَع الشيطان الذي يحاول أن يُضلّك عن السبيل. تجاوز بالإصرار كلّ رغبةٍ بالتمرّد تستشعرها في ذاتك وإذ ذاك تصبح سيفاً قاطعاً في يد معلّمنا.

عند الفجر، أيقظ صوت النفير الفتيان من نومهم. نهضوا وتوجّهوا لأداء صلاة الصباح، ثم تناولوا فطورهم، وبعدها أحضر كلٌّ واحد منهم أسلحته وسرجه، واتّجهوا نحو الفِناء.

بطرفة عين، أصبحت كلّ القلعة على قدَمٍ وساق. بعد أن استحضر التلاميذ خيولهم من الإسطبل، انتظموا في صفّين قرب مطاياهم. في حين وقف عريف على رأس كلّ صفّ.

أقبل النقيب على صهوة جـواده فاسـتعرض الفرقـة وأصـدر الأمـر باعتلاء خيولهم. أمر برفع الجسر ثم بدأ يُسمع وقع حوافر الخيل وهي تمرّ بالتتابع. اجتازوا أسفل برج الحراسة ثم تـسلّقوا طريقـاً تـؤدّي إلى أرضٍ منبسطة. أعاد النقيب شرح الأوامر السابقة من أجل الطالب الجديد، ثـم قسّم الفرقة إلى مجموعتين متقابلتين. بعـد إجـراء التـدريبات المطلوبـة في الدفاع والهجوم تكراراً تفرَّقوا ليباشروا التـدريب عـلى اسـتعمال الـسيف والرماية بالقوس والطعن بالرماح.

رجعوا إلى القلعة عند الظهيرة، وقد أخذ التعـب مـن «ابـن طـاهر» كـلَّ مأخذ، مما جعله غير قادرٍ على البقاء فوق الـسرج، وعنـدما ترجّلـوا واقتـادوا خيولهم إلى الإسطبل، استوضح «ابن طاهر» سليمان قائلاً:

- هل نكرِّر هذه التمارين يوميًّا؟.

أمّا سليمان الذي كان طيّب المزاج، منشرحاً كأنه عائدٌ من نزهة فأجابـه مبتسماً:

- ما بالك، يا عزيزي، تلك هي البداية.

قال «ابن طاهر»: لقد أمضَّني الجوع، أليس من الممكن أن نأكل شيئاً ما.

- عليك بالصبر والاحتمال، ليس مـسموحاً لنـا الأكـل سـوَى ثـلاث مرات في اليوم، وإذا ما ضُـبِطْتَ تأكـل خـارج أوقـات الوجبـات المقـرّرة، تعرَّضت للجَلد كما حصل مع الجنديّ الذي سبق ورأيته كونه احتسَى خمراً.

توجّه التلاميذ بعد ذلك إلى العنبر حيث رتّبوا أسلحتهم ثم اغتسلوا وصعدوا إلى الشرفة مع ألواح الكتابة.

تقدّم من التلميذ الجديد، رجل كبير صارم يرتدي جلباباً فضفاضاً، ذو خدودٍ متهدِّلة وعينين غائرتين في مِحْجرَيْها وأنفٍ أعقف كمنقار النسر، ولحية رمادية تصل إلى صدره. إنه «الداي إبراهيم»، وهو داعية مرموق يرتبط مع سيِّدنا برباطٍ وثيق. أمَّ المُصلِّين بصوت خافت، إلاّ أنَّه عندما بدأ بالتضرُّع إلى المهدي أصبح صوته قويًّا أجشّ. بعد الانتهاء، بدأ يشرح درساً في قواعد اللغة العربية مفسِّراً بأسلوب مملٍّ الأصول اللغوية في القواعد، مستشهداً بآيات من القرآن. كانت هذه الحصة بالنسبة لابن طاهر ساحة راحة، إذ كان يتقن القواعد اللغوية ويطيب له أن يُقال عنه إنه متمكّن من هذه المادّة. بانتهاء الدرس غادر «الداي إبراهيم» الصفّ وسارع التلاميذ إلى الساحة وانتظموا في صفَّين.

– ستعرّف الآن إلى «الداي عبد الملك». همس سليمان في أذن «ابن طاهر»، وإني أنصحك بأن تصرّ على أسنانك وتستحضر كلَّ إرادتك، وكما قلت لك، سبق أن خرَّ ميتاً في مكانه أحد التلاميذ في أثناء التدريب، لذلك ضع ثقتك في الخالق وفي حكمة معلّمنا. انتظم التلاميذ في صفَّين، يوسف على رأس الصفّ الأول، وعبيدة على رأس الصفّ الثاني. بعد قليل تقدَّم رجل عملاق ضخم الهيكل ووقف أمامهم وبعد أن استعرض الجميع بنظرة حدّق في «ابن طاهر» وبادره بالسؤال:

– ما اسمك أيُّها البطل؟

- أُدعَى أفـاني حفيد طاهر من سافا.

- حسناً، علمت بذلك، آمُل أن تُظهر جدارةً تليق بجدّك العظيم.

تراجع إلى الخلف بضع خطوات وأصدر أمره:

- اخلعوا أحذيتكم والجميع إلى السُّور.

بطرفة عين، وصل التلاميذ إلى أسفل السُّور وبدأوا يتسلّقونه. الأيادي تمتدّ لتمسك أبسط الشقوق والكُوَى والنتوءات. عندما شاهد «ابن طـاهر» هذا الجدار المرتفع عموديًّا افتقد شجاعته، لم يكن يعرف أين يضع يديـه. في الأعلَى، من فوقه، ناداه أحدهم همساً:

- هاتِ يدَك.

نظر إلى الأعلَى فأبصر سليمان لا تعترضه صعوبة في التـسلُّق وإذ تمكّـن من الإمساك بإحدَى الكُوَى، مدّ اليد الأخـرَى وقـبض بهـا عـلى يـد «ابـن طاهر» وسحبه بقوةٍ إلى جواره ثم حثّه على التقدُّم معه إلى الأعلَى.

بعد ذلك، سار كلُّ شيءٍ على ما يرام، وخلال فترة قصيرة، وجد نفـسه على قمّة السُّور. أمّا الباقون فإنهم الآن ينزلون من الجهة المقابلـة فـوق هـوّة سحيقة، بينما النهر العظيم «شاه رود» يضرب بزبده أسـفل الجـدار. حَيـال هذا المنظر شعر «ابن طاهر» بالدُّوار.

- سأتعرَّض للموت، همس في سرّه، كيف سأتمكّن من النـزول وتحتنـا هذه الهوّة السحيقة المخيفة؟!.

- اتبعني وابقَ بجانبي، همس سليمان بصوتٍ آمِر، وراح يتدلّى وينزلـق

على الجدار، وابن طاهر إلى جانبه يتبع خطواته ويقلِّد حركاته ويتلوَ صلواته إلى أن بلغا أسفل السُّور.

في أعلَى السُّور ظهر «عبد الملك» واقفاً بساقيه المقوَّسَين وصاح بالتلاميذ:

- خذوا أماكنكم!

بدأ التلاميذ بالتسلُّق مجدَّداً، وبعد الوصول إلى أعلاه، بدأوا بالانحدار حتى بلغوا الأرض لاهثين مرهقين. بعد قليل من الراحة انتعلوا صنادلهم وانتظموا صفًّا. تأمّلهم «عبد الملك» بابتسامة ساخرة قائلاً:

- ماذا دهاك اليوم يا سليمان؟ لم تكن طليع المتسلِّقين كالعادة، هل أصابك الكسل؟ ربما تركت نفسك تحذو حذو الطالب الجديد لأنه على كلّ حال بقي ملتصقاً بك كالقرّادة. الآن، دعه يرَى أيّ بطل أنت! قِف أمامه واكتُم نفَسَك.

اتّخذ سليمان مكانه أمام «ابن طاهر» وأطبق شفتيه وأنفه، نظر أمامه فكان نظره غامضاً وكأنه مسمّر على نقطة بعيدة. تملّك «ابن طاهر» الخوف حين أوقف سليمان نَفَسه. مع الوقت أخذ وجهه يحتقن ثم بدت عيناه بلهاء كأنهما سوف تخرجان من محجريهما. بدأ «ابن طاهر» يرتعد من الخوف، أليس بسبب خطإه يتعرّض سليمان لهذا العقاب الصارم. تقدّم «عبد الملك» ووقف إلى جانب سليمان شابكاً ذراعيه، بدأ سليمان يختنق، انتفخت عنقه وجحظت عيناه وفجأةً بدأ يترنّح ثم انهار وسقط أرضاً.

- حسناً، علّق باعتزاز «عبد الملك».

بعد لحظات، استعاد سليمان وعيه، وبدأ يتنفّس بقوّة ثم الْتَحَق بالصّفّ واتّخذ مكانه.

- هيّا، يا عبيدة، أظهر لنا التقدُّم الذي أحرزته في قوّة الإرادة، قال «عبد الملك».

امتقع وجه عبيدة، وتطلّع بيأس حوله. ما إن شرع بكتم أنفاسه حتى تغيّر لون وجهه وظهرت مؤشّرات بدء اختناقه فتأمّله عبد الملك بازدراء لم يَخْفَ على «ابن طاهر»، وما هي إلاّ لحظات حتى انهار عبيدة وسقط أرضاً. بغضب ظاهر رفسه «عبد الملك» مؤنّباً إياه ساخراً منه قائلاً له:

- انهض أيُّها المخدوع، ثم أضاف بلهجة ساخرة: كيف كان الأمر؟!

نهض عبيدة وابتسم مرغَماً وراوده الخوف مما ينتظره: لقد فقدت وعيي أيُّها الداي الموقّر.

- دَعْكَ من هذا الهُراء، خذ السوط وابدأ بجَلد نفسك. أطاع عبيدة الداي من دون تردّد وراح يجلد نفسه بعنفٍ غاضب حتى سالت الدماء منه وتفسّخ جِلده. أخيراً رفع «عبد الملك» يده قائلاً:

- كفَى!.

ثم أصدر أمراً إلى سليمان لاصطحاب عبيدة إلى المنبع ليغتسل ويضمّد جروحه، واستدار نحو التلاميذ مركّزاً نظره على «ابن طاهر» وراح يحاضر عن أهمّية الإرادة قائلاً:

- لقد شرحت لكم مرّات عديدة مغزًى هذه التمارين وهدفها، ولا بأس من العودة إليها لوجود طالب جديدٍ بينكم. إنّ العقل وفكر الإنسان بتجلّياتها المختلفة قادران على التحليق عالياً كالنسر إن لم يعترضهما عائق. هذا العائق هو جسدنا بكلّ وهَنه وضعفه؛ فالجسم ميّال إلى التكاسل ويذل أقلّ جهد ممكن، كما أنه يتهيّب الصّعاب التي عليه تجاوزها. بالإرادة يمكننا تحقيق أسمَى الأهداف. إنّ جسدنا المادّيّ تستبدّ به رغبات وأهواء من شأنها أن تشلّ إرادتنا وتحُول دون تحقيق رغباتنا النبيلة. أن نقهر ذواتنا ونتصدّى لنزواتنا بتقوية إرادتنا وتفعيلها، ذلك هو جوهر قيامنا بمثل هذه التدريبات. لتكن إرادتكم صلبة حديدية، وجّهوها كما يجب إلى هدفٍ محدّد، فهذا هو السبيل الأوحد لتفعيلها لتصبح قادرةً على تذليل المستحيل. لنكن قادرين، بالإرادة المروَّضة، من السيطرة على أجسادنا كي نستحقّ خدمة معلّمنا وتنفيذ أوامره.

أصغَى «ابن طاهر» إليه، وعيناه تقدحان شرراً؛ من أجل هذا أطمح دائماً، قهر الضعف في سبيل خدمة هدف نبيل. فجأةً أحسَّ أنّ كلّ ما يراه مخيفاً حوله قد تبدَّد وبكامل قناعته أجاب «الداي»: لقد فهمت أيُّها المحترم.

- خُذ مكانك إذاً بمواجهة زملائك واكتُم أنفاسك.

أطاعه من دون أدنَى تردُّد، ثم جاهد لمدّ بصره بعيداً كما فعل سليمان، حابساً أنفاسه. أحسّ أنّ كلّ شيء أصبح صامتاً داخله وحوله، وبدأت غشاوةٌ تطغَى على بصره ثم أخذت شرايينه تتمدد. أغرته نفسه باستنشاق بعض الهواء، لكنه عرف كيف يسيطر على نفسه، ثم بدأت أذناه بالطنين

بشكل غريب، واستشعر وهَناً غير عـاديّ يـدُبّ في سـاقيه. مـا زال يحـتفظ ببصيص من الوعي، ثم استسلم للخدر، إلاّ أنّ شـعاعاً مـن الـذكاء أيقظـه وهمس في داخله: «عليك أن تصمُد، يجب أن تصمُد، أعقب ذلك دخوله في ظلمة تامّة وانتهَى به الأمر إلى الـترنّح والـسقوط بقـوةٍ عـلى الأرض. بعـد لحظات شعر بأنفاسه تعود إليه تدريجيًّا.

– كيف كان الأمر، سأل «عبد الملك»، ضاحكاً؟

– حسناً، أيُّها الدّاي الموقّر.

– بوسعنا صنع شيء من هذا الفتَى، قال الدّاي، ثم استدار نحـو «ابـن طاهر» وقال: ليس هذا سوَى المقدَّمة لتمارينَ لاحقة على التنفُّس، لنقُل هـو تدريب لترويض قدرتنا على السيطرة على أجسادنا...

بعد أن عاد سليمان وعبيـدة، أصـدر «عبـد الملـك» أمـرًا آخَـر. بـاشر التلاميذ حفر خندق في الأرض بكلّ همّة ونشاط، وبعد قليل أنهَى التلاميـذ الحفر فبدت حفرةٌ مستطيلةٌ متوسّطةُ العمق. في هذه الأثنـاء أحـضر بعـض التلامذة من المبنَى وعاءً كبيراً مليئاً بالجمر الملتهب نثروه في الحفرة وعملـوا على إضرامه بعناية.

– بالمثابرة والتدريب، أفصح الدّاي، تصبح السيطرة على الجسد وقـوّة الإرادة بمستوًى متقدِّم، تسمح للمرء ليس فقط بتجاوُز ضـعفه وألمـه، بـل أيضاً تحدّي الطبيعة وقوانينها. أيُّـها الطالـب الجديـد، افـتح عينيـك جيـداً وانطلق للتحقُّق من كلامي.

خلع «ابن طاهر» خُفّه ورفع جلبابه إلى ركبتيه، ثم وقف أمام الحفرة المليئة بالجمر ونظر بثبات إلى الأمام، ثم حبس أنفاسه، وبسرعة فائقة اجتاز الحفرة. بوصوله للجهة الأخرَى حرّك رأسه قليلاً كأنه يستيقظ من نوم عميق ثم الْتفت صوب رفاقه بوَجهٍ هادئ وأظهر لهم راحتَي قدميه خاليَتين من أيّة آثار للحروق.

تتابَع بعدها التلاميذ فاجتازوا الحفرة بكلّ ثقة بتحكّمهم بإرادتهم وبالسيطرة على أجسادهم.

أخيراً، طلب الدّاي الاكتفاء بما فعلوا، فانتظموا في صفٍّ واحد، ثم نظر إليهم نظرةً صارمةً وأمرهم أن يتفكّروا ويتدبّروا بما سمعوا وشاهدوا ونفّذوا، ثم انحنَى قليلاً وغادر بخطوات سريعة. عاد التلاميذ إلى الشُّرفة لحضور حصّة «أبو سراقة»، أي الشِّعر والعَروض باللغة الفارسية. تفوّق «ابن طاهر» في هذه المادّة من كلِّ لون من ألوان الشِّعر، كان يستظهر مقتطفات منتقاةٍ من الفردوسي والأنصاري ومن شعراء قدامَى آخَرين. أدهش الأمر «أبو سراقة» فبدا في غاية الرِّضَى وأثنَى على «ابن طاهر» أمام الجميع.

- بالطبع، إنّ تعلُّم فنون الحرب، وترويض الإرادة لا يُستغنَى عنهما للإسماعيليّ المقاتل، ولكنّ التدريب الفكريّ على الحديث والحوار بهدف الوصول إلى مستوًى متقدِّم يسمح للمرء بعرض أفكاره وآرائه بوضوح، ليس أقلّ قدْراً وأهمّية. أنا سعيد جداً أنْ أرَى فيك يا حفيد طاهر تلميذاً موهوباً. حان وقت الصلاة، فأَمَّ «أبو سراقة» المصلّين، وما كاد يتوجّه

بالابتهال لعليٍّ وإسماعيل حتى شعر «ابن طاهر» بالانحطاط ثم فقد وعيه. دُهش نعيم القريب منه لرؤيته من دون حراك، تقدّم منه فأبصر وجهه أصفرَ كرمل الصحراء، فاستدعى يوسف وسليمان وتبعهما آخرون، فسارع أحدهم وأحضر بعض الماء، سكبه على وجهه، فلم يلبث أن استعاد وعيه. نقلوه إلى قاعة الطعام في الوقت نفسه الذي حانت فيه ساعة الغداء.

استعاد «ابن طاهر» نشاطه بعد الأكْل فقال له نعيم:

- لا تقلق، سوف تصبح أكثر صلابةً وستتمكّن من تحمُّل معدةٍ خاويةٍ يوماً أو يومين.

- سأل أبو سراقة «ابن طاهر»: ما عساك فاعل بمطيّتك؟

- أجابه «ابن طاهر»: يمكنك الاحتفاظ بها فوالدي ليس بحاجة إليها.

- حسناً، قال المعلِّم، عليك منذ الآن أن لا يراودك التفكير بالرجوع إلى بيتكم. لقد قطعت تواصلك مع العالَم الخارجيّ، وليكن فكرك منذ الآن موَجَّهاً لغايةٍ واحدةٍ هي قضية آلاموت. بعد تناوُل الطعام تفرّق التلاميذ لأخْذ قسطٍ من الراحة في العنبر، فجلسوا على أسِرّتهم يثرثرون. أمّا «ابن طاهر» فبالرغم من تعبه، فقد كان يرغب في استجلاء أشياء كثيرةٍ تثير اهتمامه ولا يفهمها حتى الآن.

- أودّ أن أعلم ما هي علاقتنا بجنود الحامية؟ وما هي تحديداً مواقع ومراتب كلِّ داي، وكذلك موقع النقيب «مينوشهر». إنّي أجهل تسلسل المراتب الإسماعيلية في «آلاموت Alamut»؟

تولّى كلٌّ من يوسف وجعفر الإجابة عن تساؤله فأعلماه أنّ كلّ مؤمن إسماعيليٍّ يحتلّ مرتبةً معيَّنةً. يشكِّل الأنفار مجموعةً من المؤمنين العاديين، يعلوهم الرفاق المخلصين المقاتلين الذين يتولّون تلقين الأنفار الحقائق الأساسية. عندما يتعلَّم هؤلاء الأنفار يمكن أن يصبحوا جنوداً بإمرة الرفاق الذين يتبوَّأون رتبة العرفاء والرتباء، أمّا نحن، الفدائيون، فلنا موقعنا الخاصّ، وما إن نتخرّج ونكرِّس كفدائيين حتى نصبح خاضعين لأوامر الرئيس الأعلَى أو مندوبه إن رغب في ذلك. يأتي بعد ذلك الدّايات الذين يعلِّموننا ويعرفون الحقائق السامية، أمّا النقيب مينوشهر، القائد العسكري للقلعة، فيوازيهم رُتبةً، ثم يأتي دَوْر ثلاثةِ أشخاصٍ هم رؤساء كلِّ الدَّايات: «الدّاي أبو علي» القادم من سوريا، ثم الدّاي «بوزرك يوميد» حاكم قلعة «رودبار»، يليه الدّاي حسين الكاييني الذي استولَى باسم سيِّدنا على قلعة «زورجا مباذان» في خوزستان. وأخيراً في قِمَّة هذا الهرم يسيطر سيِّدنا زعيم الإسماعيليين «الحسن» بن عليّ الصبّاح. إلاّ أنّ الفوارقَ بين المراتب، تابع سليمان، هي محدَّدةٌ بدِقَّة؛ فمثلاً، الدَّاي عبد الملك هو أدنَى قليلاً من الدّاي إبراهيم وأرفع قليلاً من الدّاي أبو سراقة، رغم أنه لا يزال شابًّا أكثر منه، إلاّ أنّ القضيّة الإسماعيلية ومشاركته في القتال قضَتا بذلك.

فجأةً دقّ الصنج لتذكيرهم بواجباتهم. ولّما كان الجوُّ حارًّا جدًّا على الشُّرفة، فقد تمّ التدريس في المطعم. ابتدأ «أبو سراقة» بشرح أصول الإسلام وتاريخ الإسماعيلية، فقال:

- بما أنّ النبيّ زوّج ابنته الوحيدة فاطمة من عليٍّ، فهذا يعني أنه قد اختاره خلَفاً له. لكن بعد وفاته تمكّن أبو بكر بالحيلة والخديعة من أن يكون أمير المؤمنين. منذ ذلك التاريخ انشطر البناء العظيم للنبيّ إلى شطرين: الأول يقرّ للخائن أبي بكر بحقّه الشرعي في الخلافة ورايتهم سوداء وشريعتهم الكتاب والسُّنّة التي ليست إلاّ أحاديث منقولة شفاهاً، وهي مجموعة من الأباطيل المخجلة وشهادات زُور على النبيّ، عاصمتهم بغداد حيث يتولّى الحُكم الآن خلفاء بني العباس. حاليًّا يقوم بحماية أحفاد العباس السلطان التركي ملكشاه، كلب سلجوقي، قدِمَت ذرّيتهم الشريدة للاستيلاء على عرش إيران. نحن نؤمن بعليٍّ كإمام شرعيّ، علَمُنا أبيض والقاهرة هي عاصمتنا. في الواقع يتحدَّر الخليفة هناك من سُلالة عليٍّ وفاطمة ابنة النبيّ.

اسمعوا جيّداً، لقد قلتُ إنّ الخلفاء الشرعيين للرسول من سُلالة عليّ وفاطمة يحكمون القاهرة، نحن نعترف بذلك بالتأكيد، ولكن، مع بعض التحفُّظ، هذا التحفُّظ هو سرُّنا الذي سنكشف لكم عنه تدريجيًّا. يكفي حاليًّا أن نحصي حاليًّا مجموع الأئمّة الذين تعاقبوا بعد الحُسين ثالث خليفةٍ شرعيّ للنبيّ، فالرابع هو ابن الحسين زين العابدين والخامس محمد الباقر ثم جعفر الصادق. أمّا السابع فكان موضوع إشكال، ذلك أنّ جعفر الصادق كان له ولدان: موسى الكاظم وإسماعيل، بعضهم اعترف بأحقّية الأول في الخلافة ليكون الإمام السابع ويعترفون بخلفائه الخمسة وآخرهم

محمد العسكري؛ أمّا نحن فنعترف أنّ الخَلَف الأوحد المنتظَر للمجيء إلينا باسم المهديّ ليس من نَسل موسَى الكاظم بل من نسل إسماعيل. نحن إذاً لا نعترف إلاّ بسبعة أئمّة فقط وآخرهم هو إسماعيل. في الواقع أحد فروع نسله تولَّت السُّلطة في مصر. أين هو الآخَر الأكثر نُبلاً وأهمّيةً؟ حاليًّا لا نعلم سِوَى شيءٍ واحدٍ هو أنّ السُّلطة الحاكمة في القاهرة تهيّئ له السبيل من أجل الانتصار على المغتصبين والمراطقة، والسيطرة النهائية للمؤمنين الحقيقيين على الإسلام قاطبةً. المعروف أنه جاء عقب ستّة أنبياء وهم: آدم، نوح، إبراهيم، موسى، يسوع ومحمد، وسيأتي رسول آخَر هو الأعظم، إنه المَهْدِيُّ، وهو يتحدَّر من نسل إسماعيل. نحن نترقّب ظهوره، ومن أجله نقاتل. الواقع، أنّ قلعة «آلاموت Alamut» تخفي أسراراً كبيرة.

هذه هي المرّة الأولَى التي يرتوي فيها «ابن طاهر» من معين العقيدة الإسماعيلية الغامضة.

انسحب «أبو سراقة»، وجاء دور اليوناني «ثيودوروس» المعروف بالحكيم، الذي اعتنق العقيدة الحقّة. كان طبيباً مثقّفاً يدرِّس مواداً عديدةً وبصورةٍ رئيسةٍ تركيب جسم الإنسان وطريقة عمله. كان مشهوداً له بالحكمة يحلم بالتوفيق بين تعاليم القرآن والفلسفة اليونانية. استهلّ اليوناني محاضرته قائلاً:

- تذكّروا أنّ الله خلق آدم من أربعة عناصر هي التراب والماء والنار والهواء، ومن أجل بثّ الحياة فيه نفخ الروح فيه. هذه الروح حسّاسة جدًّا

وتقوم على التناغم الذي يجب أن يسُود بين مختلف عناصر الجسم؛ فإذا ما اختلّ هذا التوازن غادرت الروح الجسد إلى مصدرها الأول. هذه الأمور أثارت الدهشة لدَى «ابن طاهر»، فكلّ هذه المعارف جديدة عليه.

اختتم اليونانيّ درسه وانحنَى مبتسماً، ثم غادر القاعة. بعد قليل ظهر الدّاي إبراهيم أمام الطلاب، فخيَّم الصّمت؛ بدأ الدّاي بطرح سؤال على أحدهم. ثم تتابعت الأسئلة والأجوبة بسرعة واختصار. أمّا «ابن طاهر» فكان يصغي بكلّ جوارحه.

- مَن هم السلاجقة؟.

- السلاجقة هم غزاة يبغون الاستيلاء على السلطة في إيران.

- ما هي طبيعتهم؟

- هم مزدَوِجو الطبيعة: نصف رجال ونصف شياطين.

- لماذا؟

- لأنّ أرواحاً شرّيرةً تزاوجت مع نساء من الجنس البشري فتوالد منهم السلاجقة.

- لماذا اعتنق السلاجقة الإسلام؟

- كي يخفوا طبيعتهم الحقيقية.

- ما هي نواياهم ومخطّطاتهم؟

- إنّها القضاء على الإسلام، وإقامة حُكم الشياطين على الأرض.

- وكيف يسعنا معرفة ذلك؟

- كونهم يدعمون خليفةً مزيَّفاً في بغداد.

- مَن هو في إيران العدوّ الألدّ للقضيّة الإسماعيلية؟

- وزير السلطان نظام المُلك.

- ما هي جريمته الأكثر زندقةً؟

- جريمته الكبرَى أنه أعلن عن جائزة مقدارها عشرة آلاف من القطع الذهبية مقابل رأس سيّدنا.

- انتفض «ابن طاهر»! أجل إنّ الوزير الذي أمر بإعدام جدّه كان مجرماً وهو اليوم يتآمر على حياة الرئيس الأعلَى للإسماعيليين.

تلك كانت الأسئلة والأجوبة التي لخّص بها الداعيّ إبراهيم ما علّمهم إياه آنفاً؛ ثم بإشارة من يده أخذ التلاميذ ألواح الكتابة وبدأ الداي يستكتبهم ما ينبغي أن يعلموه حول طبيعة السُّلطة القابض عليها رئيسنا الأعلَى. ثم طرح بعض الأسئلة وأجاب عنها بنفسه:

- ممّن يستمدّ سيِّدنا سُلطَته على الأتباع؟ إنه يستمدّها مباشرةً من الخليفة في مصر المستنصر بالله، وبطريقة غير مباشرة من الله.

- ما هي طبيعة هذه السُّلطة؟ لهذه السُّلطة طبيعتان: الأولَى طبيعية والثانية «فوق- طبيعية».

- ماذا تشمل سلطته الطبيعية؟ إنه يملك الحقّ في تقرير الحياة والموت لكلّ الإسماعيليين القاطنين في إيران. أمّا سلطته فوق الطبيعية فتتمثّل في قدرته على إرسال مَن يشاء إلى الجَنّة.

- لماذا سيِّدنا هو الأقدر بين كلّ الرجال الذين وُجدوا على هذه الأرض؟ لأنه تلقّى من الله المفتاح الذي يفتح أبواب الجنة.

انتهَى الدرس في موعد الصّلاة الرابعة، فتجمّع التلاميذ على الشُّرفة يعلّقون بحماسٍ على ما تعلّموه خلال النهار، وكان الجميع متلهّفين لمعرفة رأي «ابن طاهر» في هذا.

- ما سمعته من الداي إبراهيم بدا لي واضحاً، قال «ابن طاهر» ولكنّي لا أفهم ماذا يعني الدّاي إبراهيم عندما يقول إنّ الله قد أودَع سيِّدنا مفتاح الجَنّة!

- تدخّل يوسف جازماً مؤكِّداً صحّة ما قاله الدّاي موضِّحاً أنّ واجبنا أن نُؤمن بما يقول.

- حسناً، ولكنّي أتساءل: ما إذا كان علينا أن نؤمن بهذه القضية بمفهومها الظاهر، أو أن ندركها بمفهومها المجازي؟

- أيًّا كان الأمر، أجاب يوسف بنفاد صبر، علينا أن نفهمها وفقاً لِما سمعناه.

- إذاً، ثمّة معجزةٌ جديدةٌ قد حصلت، أصرّ «ابن طاهر».

- ولِـمَ لا، استشاط يوسف غاضباً.

- لِـمَ لا! لأنّ النبيّ شرح بوضوح أنّ المعجزات لم تحصُل إلاّ في العهود الغابرة، ولم يسمح بها لنفسه طوال حياته ولا في العصور اللاحقة.

- أن يكون الله قد أودع سيِّدنا مفتاح الجنة، أوضح جعفر، لا ينبغي أن

يبدو كمعجزة، فالرسول لم يعتبر أبداً أنّ عُروجَه إلى السماء بصحبة الملاك جبريل هو معجزة.

- حسناً، لنفترض أنّ الأمر يتعلّق بفضلٍ منحه الله لسيدنا، تابع «ابن طاهر»، يبقَى أن نعرف متَى وكيف وهبه الله مفتاح الجنة؟

- بوسع ربّنا أن يظهر لسيدنا بشكل دغلٍ أو غيمةٍ منخفضة، أوضح سليمان، كما جرَى للأنبياء فيما مضَى. عندها يمكنه أن يُودِعه المفتاح، كما أعطَى الألواح لموسَى فوق جبل سيناء. جال «ابن طاهر» بنظره حوله متبرِّماً، فأبصر وجوهاً ملتهبة بالحماس المقدّس، وهو ما زال يجد نفسه عاجزاً عن فهم الحيرة والشكّ اللذين يجتاحانه.

بعد العشاء، وقد شعر بالانهاك، امتنع عن مرافقة زملائه في نزهتهم المسائية. انسحب إلى العنبر وتمدّد على فراشه. كلّ ما عاشه منذ وصوله إلى «آلاموت Alamut» استعرضه في مخيّلته: أبو سراقة والنقيب «مينوشهر» يذكّرانه بعض الشيء بحياة الخارج، أمّا الحكيم، اللغز العجيب، وعبد الملك اللذين يتمتعان بمواهبَ فائقةٍ، وربما أيضاً الدّاي إبراهيم الغامض، كلّ هؤلاء جعلوه يلِجُ عالمًا جديداً. لقد بدا له أنّ هذا العالَم الجديد بالنسبة له تحكمه قوانينه الخاصة الصارمة، وأنه بات موجَّهاً من الداخل إلى الخارج. بالأمس كان شخصاً آخَر وحاليًّا يشعر بنفسه منتمياً بكلّيّته إلى «آلاموت Alamut».

تغشّاه حُزن عميق، لأنه ودّع عالَمه القديم، وهو يشعر الآن أنّ طريق

العودة قد أُقفِلَت نهائيًّا، كما تملَّكه إحساسٌ قويٌّ وفضول كاسح لفهم الألغاز التي تحيط به. عليه أن يوطِّد نفسه ليكون في طليعة زملائه.

- ها أنا الآن في آلاموت، قالها بصوت مرتفع، لماذا عليّ النظر إلى الوراء؟.

مع ذلك خطرت في ذهنه ذكرَى منزله، وصُوَر أبيه وأمه وإخوته وأخواته، ثمّ غطّ في نوم عميق بانتظار المجهول.



الفصل الثالث

بعد قليل من وصولها إلى هذه الأماكن الجديدة، ابتـدأت حليمـة تتكيّـف مع حياتها فيها. لأسباب غريبة لم تفهمها كانت تحصل على كلّ ما ترغب، حتى «أباما» نفسها باتت تتغاضَى أحياناً عن بعض الحماقات التي ترتكبها، ولم يفُتها أن تستغِلّ هذه الأفضلية، ويـدا لهـا أنّـه مـن الطبيعـي جـداً أن تـرَى الجميـع يخضعون لرغباتها التي لا تعدو كونها متواضعة.

كانت سارة، ضحيّتها الأولَى، أقلُّ إشارة من حليمة تعتبرها أمـراً لهـا. كانت سعيدة بأن تستطيع خدمتها في كلّ شيء، أمينةً في ذلك عـلى ماضـيها كمملوكة.

هكذا كان الوضـع نهـاراً، ولكـن مـا إن يهـبط الليـل وتـأوي الفتيـات إلى فراشهنّ، ويستسلمن لسلطان النوم، حتـى تـسارع سـارة وتتزلـق تحـت غطـاء حليمة لتضمّها وتعانقها وتقبّلها. في البدء كانـت حليمـة تبـدي بعـض التمنُّـع، ولكنها ما لبثت أن ألِفَتْها. قالت في سرّها، لا بـدّ لي أن أقـدّم بعـض التنـازلات مقابل الخدمات التي تقدّمها لي سارة طوال النهـار، إلاّ أنّ الأمـر الـذي لم تكـن تحتمله هو الغيرة العمياء من سارة تجاهها.

واقع الأمر، أنّ حليمة كانت في غاية السعادة، فهي تستمتع بصباها وبالشمس والطبيعة كالعصفور والفَراش، وعندما تشعُر بنفسها حُرّة كانت تتنزّه في الحدائق حيث النباتات والأزهار والرياحين يعبق أريجها في الجوّ فينعش النفس ويثلج الصدر. من حينٍ لآخَر، كانت الفتيات تنظّمن ولائمَ فاخرة حيث يأكلن ويشربن بأساليب الملوك. في تلك الأيام كانت «أباما» في حالة توتّر يثير لدَى مريام ضحكاً مكتوماً. ذلك أنّ الفتيات كنّ يتهامسن أنّ «أباما» قد تلقّت من سيّدنا تعليمات بإقامة هذه الولائم، الأمر الذي أثار غضبها لأنه يقع على عاتقها مَهَمّة تحضير الأطعمة والأشربة لهذه المآدب. خلال فترة التحضير لإحدَى هذه الولائم، استأذنت حليمة مريام لاصطحاب «العبيد» المنطلقين إلى النهر والبراري لاصطياد السمك والطيور، لكنّ مريام أوضحت لها أنّ الطريق محفوفة بالخطر، ومن أجل هذا اقترحت عليها مرافقة عديّ المكلّف استحضار الدواجن والبيض. وجدت حليمة نفسها جالسة في قاربٍ يقوده عديّ الذي تبع في البدء بقية «العبيد» ثم انعطف في مرحلة لاحقة ناحية أخرَى باتّجاه جزيرة صغيرة تربّى فيها الحيوانات والبهائم الداجنة. الجوّ رائع، ولكنّ الشمس لم تكن قد غمرت بنورها الوادي بعد، إلاّ أنّ أشعّتها الذهبية كانت تسطع على السفوح والقمم المغطّاة بالثلوج، مئات الطيور تزقزق وتغرّد، وبعضها يحلّق ثم يهبط إلى الماء لاصطياد السمك.

- كم هذا رائع! هتفت حليمة.

- أجل، هذا رائع، قال عديّ فجأةً بصوت بهيم، إنما الأجمل أن نكون أحراراً.

علَتِ الدهشة وجه حليمة فعقّبت على كلامه:

- أتقول أحراراً؟ ألسنا أحراراً؟

- لن يسعَك استيعاب الأمر كونك امرأة، اسمعي: رُبَّ ثعلب جائعٍ في الصحراء هو أكثر سعادةً من أسدٍ أتخمه الطعام في قفص. هزّت حليمة رأسها غير مصدّقةٍ ما تسمع.

- هل نحن في واقع الأمر داخل قفص؟

- اعتذر عديّ ضاحكاً، قلت ذلك من دون تفكير، اصمتي الآن، وصلنا.

رسا القارب على الشاطئ، فنزلا منه وسارا في درب ضيّق تكاد لا تُرى معالمُه، يتعرّج بين الأدغال وأشجار الصفصاف والحَوْر، ثم بلغا منحدَراً صخريًّا حيث تنمو أنواعٍ غريبة من الزهور والنباتات، وبعدها دخلا مرعًى شاسع الأطراف تحدُّه غابة صغيرة. هناك بدأ يُسمَع ضجيج وحوش ونقيق وصفير وزئير، قبضت حليمة على ذراع عديّ مذعورة. في هذه البقعة من الأرض أقفاص كبيرة وأسراب من شتّى الطيور ومجموعات من الحيوانات. الطيور تقفز وتحلّق في الجوّ، والحيوانات تركض هنا وهناك. عندما اقتربت حليمة فرّت العصافير والطيور خافقةً بأجنحتها لترتطم بالشُّباك. إلى ذلك أبصرت حليمة فهدَين يزمجران بغضبٍ مُرعِب فتراجعت قليلاً إلى الخلف، في الوقت الذي وضع عديّ

السَّلّ الكبير الذي استحضره معه على الأرض، وبدأ يُلقي الطعام للحيوانات والطيور، فهدأت مستغرقةً في الْتِهام قُوتِها.

بعد ذلك، دخل عديّ إلى أخمام الدواجن وبدأ يجمع بيضها. الآن، ابتعدي قليلاً من هنا، طلب إلى حليمة بابتسامةٍ مشوشة، عليّ أن أقوم بعمل ما عليك أن لا ترَيْنه. بينما وقفت حليمة تنظر إلى بعض الأقفاص، بدأ عديّ يذبح بعض الدجاج ومثلها من الإوَزّ، وعندما خرج من الخُمّ وضعها في السَّلّ الكبير.

– لو كان هذا الفهد العجوز حُرًّا مثل أهريمان، قال عديّ لمزّقني شرّ تمزيق، ما رأيك؟

– ربّما، ربّما أيضاً لاذ بالفرار، فالفهود تخشَى الإنسان.

– لماذا إذاً يحتفظون بها في أقفاص؟

– سيّدنا بحاجةٍ لها للاستيلاد. هذان اللذان ترينهما يؤلفان ثنائيًّا ويتوقّع سيّدنا أن يلِدا قريباً، إذ يطيب له إهداء مثل هذه الحيوانات إلى أصدقائه الأمراء.

– لماذا يا عديّ تكرهك أباما؟ سألت حليمة.

– إنّها تحتقر كل الناس، فهي لا تخشَى إلاّ سيّدنا، أمّا بالنسبة لي، فذلك لأنني ذات يوم.... ولكن لماذا أقول لك ذلك؟!

– تكلّم يا عديّ.

– أتوسّل إليك أن لا تبوحي بكلمة إلى أحد. هل تدرين أنّها عندما كانت تأتي إلى هذه الحدائق كانت دائماً تلمّح إلى الصداقة القديمة والمتينة

التي تربطها بسيّدنا لأنه قد منحها كما يظهر حُبّه سابقاً في كابول. إنّها تريد أن نعتقد أنّ معلّمنا بعد أن أصبح بهذه القوّة استدعاها إلى القصر لتكون محظيّته، فهي تتصرَّف بخُيلاء، وتلبس الحرير وتتزيّن بشكلٍ مُلفِت، وهي تبتسم بتصنُّع وتشتُم الجميع. حتى أنا، نفسي، الذي يعرف سيِّدنا منذ أيام مصر ودافعت عنه بروحي حفاظاً على حياته من كَيْد الأعداء، لأنني ذات يومٍ وعن طريق الصُّدفة، ضبطتُها في مشهدٍ معيَّن، ومنذ ذلك اليوم وهي تستنزل اللعنات عليّ كونها تشكّ في أنني أفشَيْت الأمر لسواي. من أجل هذا صار مدعاة سعادتها أن ترانا نموت الواحد تِلْوَ الآخر، ولولا سيِّدنا لأقدمَتْ على دَسّ السُّمّ لنا جميعاً.

- هل هي بهذا الخُبث؟

- إنّها خبيثة حقودة، وتكابد معاناةٍ نفسية، هي أسيرة عجرفتها وأنانيّتها فهي لا تريد أن تصبح عجوزاً، والواقع أنّها حاليًّا عجوزٌ شمطاء.

بعد أن توغّلا في الغابة الصغيرة بلغا قفص القِرَدة، صرخت حليمة لرؤية هذه الحيوانات الصغيرة تطارد بعضها وتتعلّق بالشباك.

- كان لدَينا دُبٌّ أيضاً، قال عديّ، لكنّ سيِّدنا أمرنا بقتله لأنه يأكل كثيراً. يمكنكِ كذلك أن تشاهدي في هذه الجزيرة قطعاناً من الحيوانات، بضعة جِمالٍ صغيرة، أربعة خيول وعدداً من الحمير والكلاب والقطط. لا بدّ أنهم أبلغوك أنه ليس من المسموح لأحد سوانا المجيء إلى هذا المكان. هذا أمر استصدرته أباما من سيّدنا.

- هل يأتي سيِّدنا في بعض الأحيان إلى الحدائق؟

- لا أملك الحقّ بالإجابة عن سؤالك يا صغيرتي.

- أودّ أن أعرف كيف يبدو؟

- من الصعب قول ذلك، إنه معلّم قادر، ذو لحية كبيرة.

- هل هو جميل؟

أغرق عديّ في الضحك وقال:

- لم أفكّر بهذا الأمر، بالتأكيد ليس بشعاً لكنه مخيف.

- هل هو كبير؟

- لن أقول لك شيئاً مطلَقاً، ولكنّ رأسه أصغر من رأسي.

- إذاً، ينبغي أن يكون قويًّا؟

- لا أظنّ ذلك، إذ يمكنني أن أطرحه أرضاً بيدٍ واحدةٍ.

- ولكن، لماذا إذاً يلقي الرُّعب في قلوب الجميع؟ هل لكونه يملك جيشاً كبيراً؟

- ليس بالتحديد، ولكن حتى خلال وجوده في مصر، حيث كان غريباً ومن دون سند، كان نفسه يوحي بالرُّعب من حوله، حتى أنّ الخليفة أصدر في نهاية المطاف أمراً بإلْقائه في السجن حيث أمضى ليلةً واحدةً، وفي صبيحة اليوم التالي وُضع على مركبٍ مع رجاء بمغادرة البلاد. كان أعداؤه في تلك الأيام يرَون قتله ولكنهم لم يجسُروا على ذلك.

- أمر عجيب! علت الدهشة وجه حليمة، هل هو والسلطان إذاً أصدقاء؟

- كلاّ، فالسلطان عدوُّه اللدود.

- قل لي الآن، هل تعلم إذا ما كان لسيّدنا نساء كثيرات؟

- أنت في غاية الفضول، أعرف أنّ له ابناً واحداً وثلاث بنات مثلك.

- ما هو رأيه بي؟ همست حليمة كأنها تحدّث نفسها.

- لم يستطع عديّ منع نفسه من الضحك إزاء هذا التساؤل وأجاب:

- لديه هموم كثيرة في رأسه على الأقل في هذه الأثناء.

- هو حتماً يرتدي الحرير والأرجوان!

- هذا وفقاً للمناسبات. ذات مرّة شاهدته يلبس المسوح.

- إذا كان قد فعل ذلك، فهذا من دون شكّ كي لا يُعرَف، أليس ملكاً؟

- إنه أكثر من ملك، إنه نبيّ!

- مثل النبيّ محمد، فقد سمعت أنّ محمداً كان جميلاً وكان لديه نساءٌ كثيرات وبعضهنّ صغيرات السّنّ.

- هل تخافه النساء أيضاً؟

- أجل، هنّ اللواتي عليهنّ أن يخفْن منه أوّلاً، أباما مثلاً تقف أمامه كالنعجة.

- ماذا يفعل كي يكون هكذا؟

- لا شيء، ولهذا السبب بالتحديد الجميع يخشَونه.

- إذاً، لا بدّ أن يكون خبيثاً ظالماً!

- ليس صحيحاً مطلَقاً، فهو يحبّ المزاح ولكنه ما إن ينظر إلى أحدٍ حتى يشعر بنفسه مسحوقاً.

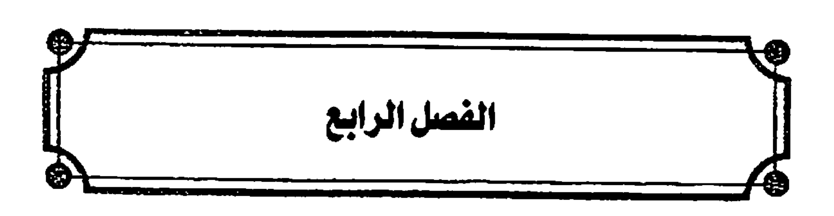
- هل له عينان مخيفتان؟

- كلاّ، لا أعرف، كفى أسئلةً، إذا قُدِّر لك أن تَرَينه يوماً ما، فسوف يتملّكك شعورٌ بأنه يقرأ كلّ أفكارك وما يجول في خاطرك.

- حسناً، كفانا حديثاً، لنأخذ الآن السَّلّ ولْنَعُد، أمّا أنت يا «غزالتي» فأقفلي فمك الجميل وكوني بكماءَ بكلّ ما تكلّمنا بشأنه.

- أعِدُك بذلك يا عديّ، ثم هرولت وراءه نحو القارب.





الفصل الرابع

في هذا الوقت، كان «ابن طاهر» يعيش تحوّلاً كبيراً في حياته، بعد أيّام من وصوله، أصابه نوع من الدوار شوّش رؤيته للأمور، كما لو أنّه تلقّى على رأسه بعض ضرباتٍ من هراوة، إلاّ أنّه بدأ يألف بسرعة هذا النظام الجديد.

بعض مضيّ خمسة عشر يوماً، لم يكن فقط بين أفضل التلاميذ، بل أصبح نصيراً متشدّداً ومتحمّساً للعقيدة الإسماعيلية، لم يَعُدْ وجهه كما كان، بل تغيّر كثيراً، لقد فقد خدّيه المورّدين الأسيلين، وأضحت قسماته صارمةً قاسيةً. أجل بات يبدو كأنّه قد تقدّمت به السنُّ عشر سنوات. أصبح يعرف أصدقاءه جيّداً، وكذلك رؤساءه، ونظام الانضباط في المدرسة، لم يعد يفوته شيءٌ من أسراره.

لم يكن النقيب «مينوشهر» يكتفي بتدريبهم على فنون القتال، بل أضاف إلى ذلك الجغرافيا. كان يقودهم أحياناً نحو الجنوب على صهوات خيولهم لمسافات طويلة، ويعمد في نهايتها الطلب إليهم تأمّل الأفق وقمّة جبل «داماڤان» الذي يشرف على ما عداه من الجبال المجاورة، وانطلاقاً من هذا يبدأ شروحاته.

خلال السنوات الماضية، عندما كان في خدمة جيش السلطان، تسنّى لـه أن يجوب لمرات عديدة كل أرجاء المملكة، ولذلك أمكنـه أن يرسـم عـلى رِقٍّ أماكن المرتفعات الرئيسة في البلاد، وكذلك مختلَف مواقـع المـدن والأسـواق الكبرَى، بالإضافة إلى الطرق المعتمدة من الجيوش والقوافل. كان يبسط هذه الخريطة على الأرض أمام تلاميذه ويشرع في شرح مواقـع الأمـاكن المختلِفـة متّخذاً من «داماڤـان» مَعْلَماً رئيساً لتحديد الاتجاهات، وكان يحـرص عـلى أن يمازج شروحاته بذكرياته عن حياته العسكرية مما أضفَى على دروسه جوًّا من التشويق والاهتمام. بعد هذا، كان يطلـب مـن كـلّ تلميـذ أن يحـدِّد لـه عـلى الخريطة بكلّ دِقَّةٍ المسافة والاتّجاه لأمـاكن ومواقـع ولاداتهـم، وكانـت هـذه الدروس الأكثر متعةً للتلاميذ.

... باشر الدّاي الحكيم في هذه الفترة تدريس التلامـذة عِلـماً جديـداً لم يعهدوه. في الواقع، تسنّى لهذا الرجل، فيما مـضَى مـن الأيـام، أن يـتردّد إلى دُور التعليم في الغرب وهو على معرفة تامّةٍ بـنمط الحيـاة في قـصور بغـداد والقاهرة وحتى بيزنطية، كما تهيّأت له الظروف للقاء عدد كبير من الأمـراء وأصحاب السلطة في هذه البلدان، فتعرّف إلى عادات وتقاليد شعوبها.

كلّ هذا أهّله لأن يرغب في توسيع آفاق طلاّبه من خلال المعارف التي اكتسبها في تلك المرحلة من حياته فيقدِّم لهـم مـادّة جديـدةً تُثـري عقـولهم وتُغنيها.

شرع يعرض لهم الأساليب المتنوّعة للتحيـة لـدَى اليونـانيين واليهـود

والأرمن والعرب وطبائعهم وطرائق تناولهم أطعمتهم، وكذلك طرائق التصنيع لديهم. ثم شرح لهم الأسلوب المناسب الواجب اتّباعه لدَى مقابلة هذا الأمير أو ذاك، مفنِّداً أسرار المراسم المعتمَدة لدَى بعض الملوك. وعندما أنهَى شروحاته طلب إليهم إجراء تمارينَ تطبيقيّةٍ على ما تلقَّنوه نظريًّا ليترسّخ في أذهانهم.

بالإضافة إلى أصول العقيدة وقواعد اللغة العربية، كان الداي إبراهيم يعلّمهم القرآن والجبر وعلوم الحساب. لقد شعر «ابن طاهر» باحترامٍ وإجلالٍ لهذا الداي الذي يعرف كلّ شيء. في أثناء تفسيره لبعض آيات القرآن، كان يتعمّق في شَرح أبعادها الفلسفية ولا يتردَّد في التطرُّق إلى الأديان الأخرَى، فيشرح أسُسَ المسيحية واليهودية وحتى البوذية. كان يؤسّس على هذه الشروحات ليبرهن تفوّق تعاليم النبيّ التي تشكّل الإسماعيلية فيها الوجه الأصوب.

ذات يومٍ، حضر أبو سراقة إلى الصفّ متأبّطاً لفيفةً من الرَّقّ، بسطها بعناية، كما لو أنّها تحوي شيئاً ثميناً أو سرًّا غامضاً، وأخرج منها رزمةً من الرَّقّ، أيضاً على أوراقها كتابة متقَنة. وضعها أمامه على البساط ثم ملّسها بعناية بكفّ يده الكبيرة.

- هذا اليوم، سيكون بداية تعليمكم دروساً متعلِّقةً بسِيرَة معلِّمنا. هكذا ابتدأ حديثه، سوف أطلِعُكم على معاناته ومعاركه والتضحيات الكبرَى التي تكبّدها لتحقيق انتصار قضيّة الإسماعيلية. هذه الرزمة من الأوراق هي ثمرة جهده الذي لا يكلّ، كلّ ما ترَونه مكتوباً دُوِّن بيده

شخصيًّا من أجلكم كي تتعلَّموا من أنموذَج حياته كم علينا التضحية من أجل قضية عادلة.

نهض التلامذة وتقدّموا لفحص الكتابات التي عرضها الدّاي أمامهم. بوجوم ودهشة راحوا يتأملون الصفحات الملأى بخطّ جميل. مدّ سليمان يده نحو إحدَى الأوراق كأنه ينوي قراءتها عن كثَب، لكنّ أبو سراقة لم يُفسِح له في المجال كأنما بذلك يحمي شيئاً مقدَّساً.

- هل أنت مجنون! صاح بأعلَى صوته، هذا مخطوط نبيٍّ حيّ.

عاد التلاميذ إلى مقاعدهم، وبصوتٍ مَهيبٍ بدأ الدّاي يطلعهم على حياة الرئيس الأعلَى وأعماله. ارتأى بادئ الأمر إطلاعهم على نبذةٍ من الأحداث التي شكّلت الإطار العامّ لحياة سيِّدنا كي يصبح من اليسير فيما بعد الدخول إلى التفاصيل المدوّنة على الأوراق أمامهم. أعلَمَهم أولاً أنّ سيِّدنا قد وُلد لستّين سنةً خلت في طُوس، وأنّ اسمه حسن، ووالده عليّ، وهو يتحدَّر من سُلالة عربية شهيرة. خلال شبابه، خالط معلّمين ودُعاةً إسماعيليين، فتكوّنت لديه قناعة بعدالة عقيدتهم وصحتها. في الوقت نفسه، كان والده عليٌّ يدرِّس سِرًّا عقيدة عليٍّ، ومن أجل عدم إثارة الشكوك حوله، أوفد ابنه حسن للدراسة في نيسابور بإشراف رفيق سُنّيٍّ يُدْعَى «موَفَّق الدين». هناك تعرّف حسن إلى مَن سيصبح الوزير الأول نظام المُلك بالإضافة للفلكي والرياضيّ عمر الخيام. هذا وذاك أصبحا من زملائه، وما لبثا أن اقتنعا بخطأ السُّنّة، فتعاهد الزملاء الثلاثة على تكريس حياتهم للقضية الإسماعيلية، كما تعاهدوا، في الوقت نفسه، على أنّ مَن ينجح في

حياته العامّة أولاً مُلزَمٌ بمَدِّ يد المساعدة لرفيقيه كي تتضافر الجهـود بـشكل أفضل من أجل العقيدة الصحيحة. لكنّ الـوزير الأول خـان العهـد الـذي قطعه، والأسـوأ مـن ذلـك، أنـه ذات يـوم، وجّـه دعـوة لـسيّدنا إلى قـصر السلطان حيث دبّر له مكيدة شيطانية، لكنّ الله شمل سيِّدنا بعنايته وأسرَى به إلى مصر، ومِن ثَمّ إلى قصر الخليفة، وهناك تكاثر حسّاده، ولكنه وُفّـق في إحباط مخطّطاتهم، وبعد رحلة طويلة عاد إلى وطنه. بعد ذلك منحه الله قلعة «آلاموت Alamut» كي يتمكّن من محاربة العقيـدة الخاطئـة بكـلّ فعاليّـة، والإحاطة بمغتصِبي السلطة بصورة غير شرعية.

ليست حياة سيِّدنا سوَى سلسلة من المعجزات، أفصح أبو سراقة، ولا يسَعُنا تعداد المخاطر التي لم يستطِعِ الإفلاتَ منها إلاّ بفضلٍ من الله. عنـدما تعرفون كامل السيرة العجائبية التي تشكّل مسارَ حياته، والتي تبـدو كأنهـا أقرب إلى الأسطورة منها إلى الحقيقة لن يسعُكم إلاّ الإيمان بأنّ معلِّمنـا هـو نبيٌّ كبير.

في الأيام التي تَلَـت، توسَّـع أبـو سراقـة في شرح تفاصيـلِ الأحـداث والوقائع. والتي يبدو بعضها غير قابـلٍ للتـصديق، تلـك الأحـداث التـي تركت آثاراً بالغةً في حياة سيّدنا.

بعد استيعاب كلِّ شروحات «الدّاي» بدأت صورة النبيّ الكبير ترتسم أمـام الطلاب الذين دغدغت مخيّلاتهم إمكانية مشاهدته بلحمه ودمه.

في قاعة الاجتماعات التـي تحتـلّ تقريبـاً جناحـاً كـاملاً في الطـابق الـسُّفليّ للقلعة، اجتمع المعلِّمون والدعاة وعدد من المقامات الإسماعيلية العُليا وهم منـذ الصباح يخوضون في مباحثات ونقاشات مختلِفة.

النوافذ مغلَقة بستائرَ ثقيلةٍ، والقاعة غير مضاءةٍ إلاّ بمـصابيحَ مُـدلاَّةٍ، وفي أركان القاعة، وفوق قواعدَ مرتفعةٍ، أوعيةٌ من الشمع يـتراقص نورهـا ناشرةً حولها عطراً منعشاً. في أحد أركان القاعة، وعلى ضوء أحد المـشاعل، اجتمعت مجموعة صغيرة حول اليوناني «ثيودوروس». ضمّ الفريق النقيب ابن إسماعيل، قائد حامية «رودبـار»، «الـدّاي زهريـوي» ذا الـبطن المنـتفخ والشابّ المصريّ عبيد الله الذي سبق أن تعرّف إلى الطبيب اليونـاني خـلال إقامته في مصر. جميعهم بدَوا في مزاجٍ طيّب يتمازحون ويتضاحكون.

- هكذا أخيراً قدِمتَ إلى هنا للقـاء ابـن الـصبّاح في قلعتـه يـا طبيبـي الطيِّب، قال المصريّ ممازحاً، ثمة شائعات لا تُصدَّق تسري في شتّى المناطق حول الاستيلاء على «آلامـوت Alamut» مفادُهـا أنّ ابـن الـصبّاح أرغـم بالحيلة القائد القديم للقلعة لتسليمها إياه، ومنها أيضاً أنه الْتجأ للرشوة من أجل هذه الغاية.. أنا شخصيًّا أجهل حتى اليوم كلّ ما حصل بالضبط.

اكتفَى اليوناني بالضحك ولم يعلِّق بشيء. وهنا علا صوت النقيب ابـن إسماعيل فأشار إلى الآخرين بالاقتراب ثم قال:

- أظنّ أنه يُستحسَن أن نشرح لهذا الشاب كيف استطاع ابـن الـصبّاح السيطرة على القلعة. بالطبع، لم أكن موجوداً، ولكنّ أحـد مـرؤوسيّ الـذي أمدّ سيِّدنا بمساعدة قويّة روَى القصة لي.

أرهف «عبيـد الله» و«الزهريـوي» آذانهـما، أمّـا «ثيـودوروس» الـذي ارتسمت على شفتيه ابتسامة تنمّ عن السخرية والارتيـاب فقـد ابتعـد عـن المجموعة.

- كما تعلمون، بدأ ابن إسماعيل روايته، كان النقيب الشجاع مهديّ هو ممثّل السلطان في القلعة. لم يصدُف أن الْتقيتُه، ولكن أغلب الظنّ أنه لم يكن يتمتّع بالنبوغ والعبقرية. كان ابن الصبّاح قد تمكّن من الإفلات من الكمين الذي نصبه له الوزير الأول، ونجح في النهاية من بلوغ الرّيّ حيث القائد «مُيسّر» أحد أصدقائه، فساعده في تشكيل حضيرة من عشرة رجال ضمنهم الرقيب الذي حكَى الرواية لي.

إزاء هذا، هل يبدو غريباً أن تراود سيِّدنا فكرة الاستيلاء على القلعة! ذلك الموقع المنيع بل الأكثر مناعةً في كلّ هذه المنطقة، تشاوَر سيِّدنا مع «ميسّر» وتصوّر اعتماد حيلة معيّنة.

في الوقت الذي كان كلٌّ من المصريّ والدّاي زهريوي يصغيان باهتمام من دون أن يلحظا ملامح السخرية والارتياب على وجه الطبيب، انتفض النقيب غاضباً:

- لِم لا تروي القصة عوضاً عنه، أنت الذي يبدو عليك أنّك تعرف كيف سارت الأمور؟

- إنّي أُصغي باهتمامٍ شديد إلى ما يروي، استدرك اليوناني بهزء.

- دعه وشأنه، قال المصريّ بنفاد صبر، نحن نعرفه، فهو يدّعي دائماً أنه أكثر اطّلاعاً من سواه.

تابع ابن إسماعيل قائلاً:

- تنفيذاً لخطّته التي نسج خيوطها، عزم سيِّدنا على القيام بزيارة شخصية للنقيب مهديّ في القلعة.

- أنا داي، قال له، وقد طوّفت في كلّ الأرجاء، والآن، وقد أرهقتني الأيام، جئت أبحث عن ركن صغير هادئ أُقيم فيه. إني أرغب في ابتياع قطعة أرض لا تتجاوز مساحتها البقعة التي تغطيها مساحة جلد ثور، وأنا مستعدّ أن أدفع لك مقابل هذه المساحة المتواضعة خمسة آلاف قطعة ذهبية.

كاد المهديّ يختنق من الضحك فقال:

- إذا ما دفعت لي فعلاً هذا المبلغ فسأمنحك ما تريد.

لقد بدا له مستحيلاً أن يكون مثل هذا الداي الفقير يملك هذه الثروة. أدخل ابن الصبّاح يده في جيب ردائه وأخرج كيساً ثقيلاً من الذهب وبدأ يعدّه. لم يصدّق المهديّ عينيه، لا داعي للتفكير كثيراً، لن يصيب القلعة ضرر إذا ما بعتُ هذا الداي العجوز قطعة أرضٍ صغيرةً في أسفل الأسوار، وسوف أصبح ثريًّا، قال المهديّ في نفسه.

عُقدت الصفقة بينهما، فأمر النقيب بخفض الجسر ونزل الشريكان بين الصخور إلى أسفل أسوار القلعة يصحبهما جنود يحمل أحدهم جلد ثور. لدَى بلوغهما المكان أخرج ابن الصبّاح من وسطه سكّيناً حادّةً وراح يقطع جلد الثور خيوطاً رقيقةً. أدهش المشهد الضباط والجنود الحاضرين، ولكنّ أحداً لم يشُكّ في نوايا الداي بانتهائه من تقطيع جلد الثور، بدأ ابن الصبّاح يربط الخيوط ببعضها ثم غرس وتداً في الأرض وعقد فيه طرفاً من الحبل وأمسك بالطرف الآخر وراح يمدّه حتى أحاط بالقلعة بكاملها. عندها أدرك المهديّ الخدعة فصاح: «سارق، غشاش! شاهراً سيفه».

في هذه الأثناء سُمع وقع حوافر الخيل تعدو فوقهم، رفعوا رؤوسهم فأبصروا شرذمةً من الخيّالة شاهرين سيوفهم يعبرون الجسر إلى داخل القلعة. ضحك ابن الصبّاح وقال: أخيراً أصبحت القلعة لي، اعلموا أنه إذا مسّ أحدٌ منكم شعرةً من رأسي فلن يبقَى أحدٌ حيًّا. إنّي أحترم العقود، خُذ يا مهديُّ ذهبك وارحل مع رجالك إلى حيث يحلو لك.

- ما قلته غير صحيح يا ابن إسماعيل، إنّ الذي أعلمك بهذه الوقائع لا يعرض إلاّ وجهة نظره الخاصة، ولا أظنّ أنه من اللائق بك أن ترَى الأمور قد حصلت بهذا الشكل.

- كفاك اعتداداً بنفسك؛ أفصح عمّا تعرف، دمدم النقيب غاضباً.

- عليك أن تعلم أولاً أنّ المهديّ الذي كان قائداً للقلعة، هو من أنصار عليّ، ولكي يستميله السلطان عيّنه حاكماً للقلعة، ولـمّا يبلغ حينها الثلاثين من عمره، فضلاً عن اعتقاده بأنّ هذا التدبير سوف يبعد عنه الأخطار التي يمكنه أن يسببها له. إلاّ أنّ هذا الشابّ لم يلبث أن أمضّه الملل والسأم فراح يشرب ويلعب النرد ويتشاجر صباحاً ومساءً مع الضباط والرتباء في الليالي التي كان يلهو مع الحريم والراقصات والمطربات. خلاصة القول، إنّ الناس في مدينة الرّيّ قد بدأوا يتهامسون حول ما يجري في القلعة. بالإضافة إلى ذلك، باشر المهديّ اقتناء العقبان والفهود المدجّنة فينطلق بها إلى الجبال والغابات للصيد وكان يوجّه اللعنات في الوقت نفسه للخليفة والسلطان مقسماً على الانتقام منهما. هذه الوقائع وصلت إلى مسامع ملكشاه ولكنه لم يكترث لها.

وأغلب الظنّ أنّ هذه المعلومات قد وصلت إلى مسامع الصبّاح عندما التجأ إلى الرّيّ. كنت أنا هناك وقد رتّبنا أنا وميسّر مناسبةً للقاء المهديّ في أثناء رحلة صيد. وإذ كان الصبّاح قد تلقّى من الخليفة في القاهرة كميّة كبيرة من القطع الذهبية فقد عرض على المهديّ خمسة آلاف ليرة ذهبية مقابل تسليمه القلعة. هذا المال سيسمح له بالسفر إلى القاهرة حيث يستطيع ابن الصبّاح أن يتوسّط له لدَى بعض أصدقائه لرعايته وتأمين كلّ نزواته ورغباته. اقتنع المهديّ بالصفقة ولم يعُد أمامه سوَى تبرير الأمر أمام مرؤوسيه خوفاً من أن يعمد السلطان إلى الانتقام من عائلته.

هكذا جرت الأمور ولم تكن الطريقة التي نفّذها ابن الصبّاح للاستيلاء على القلعة إلاّ تمويهاً مقصوداً بحيث تظهر الأمور أمام الضبّاط والجنود كأنها حصلت بالحيلة والخداع مقرونَين بالتهديد والقوّة. ثم تابع اليوناني، منذ ذلك التاريخ طرأ تغيّر كبير لدَى رئيسنا، ما إن استقرّ في «آلاموت Alamut» حتى بات يلازم مرقبه ليل نهار ولا يستقبل أحداً باستثناء «أبو علي» وأوامره لا تصل إلينا إلاّ من خلاله.

دخل أبو علي إلى القاعة في موكب ضخم، فنهض الجميع وانحنَوا له إجلالاً: ابتسم الداي الكبير ثم دعاهم للجلوس قبل أن يبدأ بالكلام.

- حضرات السادة أعضاء مجمع الدّايات ووجهاء القضية الإسماعيلية المقدّسة، أودّ أن أُعلمكم أنّ سيّدنا يبارككم ويرجوكم في الوقت نفسه قبول أسباب تخلُّفه عن الحضور. إنّ تنظيم أخويّتنا وإصدار القوانين والقرارات الجديدة، بالإضافة إلى تقدّمه في السّنّ، كلّ ذلك حال دون

انضمامه إلينا، إلاّ أنه حاضرٌ بيننا بقلبه وعقله، وقد منحني السلطة لمعالجة القضايا الكبرَى باسمه على أنْ أضعه لاحقاً في أجواء مناقشاتنا.

أحدث تخلُّف الرئيس الأعلَى عن الحضور الامتعاض لدَى الدّايات الأجانب، ولم يخلُ الأمر من بعض التعليقات والتلميحات. تمنّى الدّاي الكبير في البداية من أساتذة المدرسة أن يعرضوا على المجتمعين أوضاع التلامذة. تكلّم المسؤول على المدرسة فأوضح لهم الهدف العام من موادّ الدراسة، ثم تحدّث عن مستويات التلامذة ومدَى التقدّم الذي أحرزوه مفنِّداً مدَى تقدُّم كلٍّ واحدٍ منهم فرداً فرداً مفصِّلاً تصنيفهم ومدلِّلاً على المتفوِّقين منهم.

بعد انتهاء الأساتذة من مداخلاتهم تباعاً، عاد الدّاي الكبير واستأنف كلامه قائلاً:

– كما سمعتم، نحن لسنا نياماً في «آلاموت Alamut». إنّ كلّ توقعات معلِّمنا منذ استيلائه على القلعة صارت حقيقة واقعة، وكما سبق لسيادته أن أعلمنا منذ عامين، فإنّ السلطان ليس على عَجَلةٍ من أمره لينازعنا ملكيّة القلعة. علينا إذاً انتظار المتغيِّرات والاستفادة من الوقت إلى أقصَى درجة ممكنة استعداداً للدفاع عن أنفسنا أمام كلّ الأعداء المحتمَلين. إنّ سيِّدنا أعاد تنظيم الإسماعيلية من جديد واعتبر أنّ تأسيس مدرسة لتخريج فدائيين هو خطوة في غاية الأهمّية، ونحن ليس بوسعنا استيعاب رُؤَى سيِّدنا وأبعاد بصيرته مهما كانت قدراتنا. شيءٌ أخير أودّ أن أعلنه أمامكم باسمه: إنّ الفأس التي ستطيح بشجرة السلالة السلجوقية تُشحَذ بعناية، وهي على وشك أن تُصبح حادّة قاطعة. إنّ اللحظة التي ستُسمَع فيها

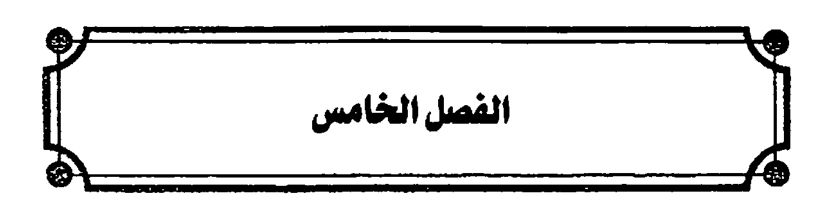
الطلقة الأولَى ليست ببعيدة، كـلّ المنطقـة حتـى الـرّيّ مواليـة لنـا ومؤيّـدة لقضيّتنا. عليكم خلال الفترة المقبلة، أيُّها السادة، أن تجهدوا، كما في السابق، لاكتساب الأنصار والأتباع. يا أصدقائي، من واجبي أن أنقل إليكم توصية خاصّة من سيّدنا: لا يغرَّنَّكم نجاحكم في التبشير والدعوة فيما مضَى، نحـن بحاجة لكلّ فرد، اجهدوا في سبيل استقطاب المؤيِّدين، فلا بدّ من اكتـساب ثقة الناس لكي يُولُونا تأييـدهم وتعـاطفهم وحماسـهم للقـضية. أقنعـوهم بالحُجّة والبرهان أنّ السلاجقة أصبحوا الحُكام الحقيقيين وأنّ الخليفة نفسه أصبح لعبة في أيديهم. أظهِروا التواضـع وعايـشوا النـاس وفـق تقاليـدهم وعاداتهم حتى يشعُروا أنكم منهم ولهم.

استمع الحاضرون باهتمام إلى محاضرة الدّاي الـذي أمـر فـور الانتهـاء باستحضار صندوق كبير مليء بالنقود، فتح عبد الملك سجلاً كبـيراً دُوِّنـت فيه المبالغ المخصَّصة لكلٍّ من الحاضرين مـع العـلاوات التـي خـصَّهم بهـا الرئيس الأعلَى، وأخذ الدّاي أبو عـلي يـوزّع أكيـاس النقـود علـيهم. بعـد الانتهاء من توزيع النقود توجّه إليهم قائلاً:

- مِن الآن وصاعداً سوف يتلقّى كلٌّ منكم مبلغاً ثابتاً، ولكن أن تعلموا أنّ هذه المبالغ ستُحدَّد وفقاً لإخلاصكم وجهودكم ونتائج أعمالكم.

انتهَى الاجتماع بوليمة أقامها المقيمون في القلعة لضيوفهم قُدّمت فيهـا أطايب الأطعمة مـع خمـرٍ فـاخرةٍ وأصـناف عديـدةٍ مـن الحلـوَى، فـأكلوا وشربوا في جوٍّ أخويٍّ حميم.

* * *



الفصل الخامس

ذات يومٍ من أيام صيف اشتدّ قيظه، شُوهد رجل عجوز ينـاهز عمـره الستّين، تخفـره مفـرزة مـن الخيالـة عنـد مـدخل النطـاق الأمنـي للقلعـة. استوقفهم خفير الحراسة واستوضحهم عن هويّاتهم وأسباب قُـدومهم إلى القلعة فقدّم العجوز نفسه: أنا القائد الـسابق لموقـع أصـفهان «أبـو فاضـل لمباني» قادِم من الرّيّ، وإنّ قائـد هـذه المدينـة كلّفنـي نقـل رسـالة في غايـة الأهمّية إلى الرئيس الأعلَى. انطلق ضابط الخدمة مسرعاً على صـهوة جـواده إلى القلعة ليعلم رئيسه بوصول الغرباء.

كان الوقـت عـصراً والتلامـذة في قيلولـة، عنـدما دوّى البـوق معلنـاً دعـوتهم إلى التجمّـع، فـسارعوا لارتـداء ملابـسهم وتنـاولوا دروعهـم وأسلحتهم وتراكضوا إلى الفِناء. «النقيب مينوشهر» وكـلٌّ مِـن الـدّاي أبـو سراقة وإبراهيم وعبد الملك على صهوات خيولهم. امتطَى التلامذة جيادهم بأمر من النقيب، وبات الجميع على أُهبة الاستعداد. بعـد ذلـك بلحظـات، ظهر الدّاي أبو علي مسرعاً فامتطَى حـصانه الـصغير الأبـيض واتّجـه نحـو التلامذة قائلاً بحماسة:

- أيُّها الفتيان، لقد خصصتكم بشرف استقبال رجل ذي مقـام رفيـع، هو صديق كبير لمعلِّمنا؛ هذا الرجل هو الرئيس السابق عبد الفاضـل الـذي على امتداد أربعة أشهُر غامَر بإخفـاء سـيِّدنا عـن أعـين جواسـيس الـوزير الأول وعملائه. يجدُر بنا أن نستقبله بها يليق بمقامه وخدماتـه التـي قـدّمها لقضيّتنا، ثم لكز جواده وعبر الجسر باتّجاه الضيف، بوصوله ترجّل وسارع لمعانقة الضيف الكريم.

- أنا سعيد جداً بأن أكون أول مَن يستقبلك في «آلامـوت Alamut»، قال أبو علي.

- شكراً، يسعدني ذلك، أجاب عبد الفاضل بصوتٍ ينِمُّ عن قليل مـن العتاب. ولكنّي لم ألحَظ أحداً في إثرك. فيما مضَى كان الآخَرون ينتظرون إلى أن أحضُرَ لاستقبالهم، ولكن كما يقول المثل الشائع: «يوم لك ويوم عليك».

رغب أبو علي بالضحك لهذه الملاحظة وعلّق قائلاً:

- أجل، الأيام تتغيّر، ولكن، هوّن عليك أيُّهـا الـصديق القـديم، لقـد هيّأتُ لك استقبالاً يليق بمقامك.

ما هي إلاّ لحظات حتى شوهدت على الأكمة المواجِهـة لمكـان تواجُـد الزائرين شرذمةٌ من الخيالـة في ترتيـب رائـع، حيـث انقـسمت بـسرعة إلى مفرزتين. وبإشراف النقيب مينوشـهر، بـاشر الخيّالـة تنفيـذ منـاورة قتاليـة تحاكي أيّة معركة حقيقية. الرجال يتضاربون بالسيوف بمهـارة فائقـة، هـذا يهوي على آخَر برمحه، وذاك يشيح عنه بترسه والخيل تصهل وتعدو والغبـار يتصاعد فيملأ ساحة المعركة.

- رائع، أيُّها الفتيان، هتف أبو فاضل بإعجاب، تهانيّ لكم.

إذ ذاك، أشرق وجه أبو علي وقال:

- ما رأيته ليس إلاّ أنموذجاً لِـما ينتظـرك مـن مفاجـآت، مهـلاً حتـى نصل إلى القلعة! ثم أصدر أوامره وتوجّه الجميع إلى الحصن.

لدَى وصـولهم إلى القلعـة، صرف النقيـب التلامـذة وأصـدر أوامـره للاهـتمام بـشرذمة المواكبـة، ثـم واكـب الـضيف والـدّايات إلى قاعـة الاجتماعات. في الطريق إلى القلعة، تأمّل أبو فاضل الأبنيـة ودهـش لكثـرة عدد الجنود والحيوانات فقال:

- في الواقع، هذا معسكر كبير يا عزيزي! كنت أحسب نفسي سـأزور نبيًّا، فإذا بي أزور قائد جيش، ولكنْ ما يدهـشني هـو أننـي لم أكـن أتـصوّر مُطلَقاً أن يكون ما رأيت هو محصّلة جهود صديقي العجوز ابن الصبّاح.

- ألم أقُل لك إنك سترَى ما يدهشك؛ قال أبو علي ضـاحكاً. إنّ عـدد الجنود في القلعة كبير جداً ولدينا كميات كبيرة من الذخيرة والعتاد والمـؤَن، أضِـف إلى ذلـك القِـوَى المتمركِـزة في القـلاع المجـاورة، وهـي عـلى أُهبـة الاستعداد لدَى أول إشارة لدعمنا. إنّ المنطقـة كلهـا مواليـة لنـا، ويمكننـا خلال فترة وجيزة حشد أكثر من ألف مقاتل.

- رغم ذلك، هذا قليل، قليل جداً، دمدم أبو فاضل، فرمقـه أبـو عـلي بنظرة اندهاش وقال:

- ماذا تعني بذلك؟

- لا أظنُكم تعتقدون أنه بوسعكم، بهذه الحفنة من الجند، أن تواجهوا جيش السلطان؟!

أخيراً وصلوا إلى الشُّرفة العُليا حيث يقف حُرّاس مدجّجون بالسلاح ودخلوا إلى قصر الرئيس الأعلَى.

في قاعة الاستقبال كان جمعٌ من الوجهاء بانتظار الضَّيف الذي راح يدقِّق في وجوههم من دون طائل بحثاً عن صديقه العجوز.

- أين هو ابن الصبّاح؟

- سوف أُعلمه بوصولك، سيهتمّ بخدمتك سواي ثم ابتعد قليلاً وسمع أبو فاضل يناديه:

- قل له إنّي لم أقُم بهذه الرحلة الطويلة من أجل المُتعة، بل إنّ الرئيس مظفّر أوفدني لأبلغه رسالةً ذات أهمّية. استرخَى أبو فاضل على الأرائك بادِي الانزعاج وأحاط به الوجهاء وتهافت الخدم لتلبية رغباته.

وإذ شعر أبو سراقة بتململ الضيف حاول أن يهوّن الأمر عليه فقال:

- خفّف عنك أيُّها الشيخ الجليل، هذه هي حاليًّا المراسم المتّبعة في «آلاموت Alamut». إنّ الرئيس الأعلَى لم يسبق له أن غادر مكانه منذ احتلاله القلعة، ويبقَى لأسابيع طويلة معتكفاً لا يكلّم أحداً باستثناء الدّايات الكبار.

- إنّي أعرف هذه الأساليب، قاطعه «أبو فاضل»، عندما كنت رئيس أصفهان، كنت أتعمّد إطالة انتظار بعض مَن يأتون لمقابلتي بغية تطويع إراداتهم، إلاّ أنّ بابي كان مُشرَّعاً على الدوام أمام أصدقائي.

- سمعناك تقول فضيلة الشيخ، أنّك فيما مضى أخفيته في كنفك لمدة أربعة أشهر عندما كان مطارَداً من قِبَل الوزير الأول، همس اليونانيّ، فاكتفَى أبو فاضل بالقول:

- هل قالوا لك أيضاً إنّي كنت أظنُّه مجنوناً، وأودّ لو أعرف إذا ما كان أحدٌ سواي كان يفكّر خلاف ذلك!

- تنامَى إليّ شيء من هذا، قال أبو سراقة، ولكنّي أعترف بأنّي لا أعرف بالضبط كيف سارت الأمور وقتها..

- حسناً، إن كنت لا تعرف ذلك، فسوف أخبرك إذا ما كان الأمر يهمّك، وبدأ كلامه قائلاً:

مضت سنوات عديدة على أخِر لقاء بيني وبين الصبّاح، بَيد أنّي أظنّ أنّ تغيُّراً ملموساً قد طرأ على شخصيته منذ ذلك الحين.

عندما تعرّفت إليه فيما مضَى كان مهرِّجاً فكِهاً لا يجارَى. كان القصر كلّه يستمتع بنكاته وظُرفه، فكاهة واحدة منه كانت تكفي للترويح عن السلطان. انتهَى الأمر بالوزير إلى أن بات يضمر له الكراهية والحسد، ولم يتوانَ عن الكيد له بغية الإيقاع به، ولكنّ الصبّاح وُفِّق بدهائه من الفرار إلى مصر. بعد أقلّ من سنة على فراره طواه النسيان لدَى أهل القصر، ما عدا

بالطبع، الوزير الأول الذي كان لديه من الأسباب ما جعله دائماً في خشيةٍ من انتقامه. عندما سَرَت شائعاتٌ عن رجوعه من مصر، عهد الوزير الأول إلى عددٍ من عملائه أمرَ تعقُّبه ومطاردته للقبض عليه وتصفيته فوراً عند العثور عليه، لكن بدا الأمر وكأنّ الأرض ابتلعته ولم يُعثَر له على أثر. ذات يوم فتحت ستارة بابي، وإذ بشيخ وقور يقف أمامي متدثِّراً بمعطَفٍ فضفاض، أذهلتني المفاجأة وارتعدت فرائصي للحظات خِلتُ في أثنائها أنني مستهدَفٌ من قِبَل أحد الأعداء. صِحتُ بأعلَى صوتي منادياً خدم منزلي: أيُّها الحمقَى مَن منكم أدخل هذا الرجل إلى بيتي! في تلك الأثناء كشف المجهول عن وجهه الذي كان يحجبه بطرف ياقة المعطف وكانت المفاجأة. أمامي صديقي «الحسن» بن الصبّاح مبتسماً سالماً معافى.

عندها دَبَّ الرُّعب في قلبي، وبسرعة أسدلت الستارة وسألته هل أنت مجنون، قلت ذلك بعصبيّة، ثمّة مائة من الجواسيس في أعقابك وجئت تتنزّه في أصفهان! ضحك «الحسن»، وكسالف عهده، ربّت على كتفي قائلاً: هوّن عليك أيُّها الرئيس الطيّب، كان لي أصدقاء كُثُر عندما كنت في القصر، وعندما نزلت النقمة عليّ أغلقتم جميعكم أبوابكم دوني. ماذا عليّ أن أفعل؟

كان عزيزاً عليّ، لذلك قرّرت استضافته في منزلي مع حرصي الشديد على أن لا يعرف أحدٌ بوجوده. كان عليه أن يلازم غرفته بشكل دائم، ولكنَّه كان صبوراً، واستمرّ أياماً عديدة يستغرق في تأمّلاته أو ينصرف للكتابة.

ذات يوم، قال لي بشكلٍ جدّي، يا صديقي العزيز، إذا ما تيسّر لي أن أجد ثلاثة رجال مخلصين لي، بإمكاني في غضون سنة أن أُسقِط السلطان ومملكته. ضحكت ملء شدقيّ؛ فإذا به فجأةً يبدو رجلاً وَقوراً صارماً ثم يقبض على كتفيّ وينظر إليّ بنظرة ثاقبة أسلمتني لقشعريرة رهيبة، ويقول: إنّي جادٌّ فيما أُعلنه لك أيُّها الرئيس عبد الفاضل. تراجعت إلى الخلف مذهولاً مما سمعت، وراودني شعورٌ قد أصابه مسٌّ بسبب بقائه وحيداً لفترةٍ طويلةٍ شريداً طريداً. إذ كيف له أن يحلُم بإسقاط مملكة شاسعة الأطراف تمتدّ من أنطاكية إلى الهند، ومن بغداد إلى البحر الأسود! استدعيت طبيباً ورجوته أن يجد علاجاً لصاحبي؛ وعندما عرضت العلاج عليه غضب ورفضه بازدراء، ومنذ ذلك اليوم، أدركت أنه لم يعُد يثق بي.

هذه الرواية أدهشت الرؤساء وجعلتهم حَيارَى لا يكادون يصدّقون ما يسمعون. أخيراً، ظهر أبو علي وأسرع نحو ضيفه قائلاً:

- تفضّل، ابن الصبّاح في انتظارك.

نهض الضيف متثاقلاً، حيّا الحاضرين وتبع الدّاي الكبير. اجتاز الاثنان رواقاً طويلاً يقوم على حراسته من كِلا طَرَفيه عبدٌ عملاقٌ مدجَّجٌ بالسلاح حتى بلغا سُلَّماً دوّاراً يبدو أنه يؤدّي إلى أعلَى المرقب وراحا يتسلّقانه.

- تُرَى هل يقيم ابن الصبّاح في أعلَى المرقب، قال الضيف، وهو يجفّف العرق المتصبّب من جبينه.

- أصبت، أيُّها الدّاي المحترم.

تابع أبو علي التسلّق برشاقة كما لو كان في العشرين من عمره في حين بدا الضيف مقطّع الأنفاس.

- لنسترِح قليلاً، لم أعُد شاباً. اقترح الضيف.

توقّفا لفترة وجيزة ثم عاودا الصعود، لكنّ الضيف بعد لحظات دمدم قائلاً:

- قَسماً بلحية والدي، إنّ هذا السلَّم اللعين لا نهاية له! هل أقام هذا الثعلب حجره على هذا العُلُوّ الشاهق ليتابع تهريجه على حسابنا!. ضحك أبو علي في سرّه وأعلمه أنهما قد شارفا بلوغ أعلَى السُّلَّم. الضيف في الرمق الأخير حانِيَ الرأس لدرجةٍ لم تسمَح له برؤية «العبد» القائم بالحراسة، وبارتقائه الدرجات الأخيرة اصطدم بساقين سوداوين عاريتين. رفع رأسه وانتابه رعب شديد جعله يرتدّ إلى الوراء. أمامه ينتصب «عبد» ضخمٌ كأنه تمثال من البرونز يحمل بيده سيفاً ضخماً. أخيراً بلغا باباً محروساً «بعبد» آخَر. همس أبو علي في أذنه بضع كلمات فأزاح الستارة ودخلا إلى غرفة داخلية متواضعة الأثاث. تنحنح أبو علي فتحرّك شيءٌ خلف سَجَفٍ مُدَلًّى، من خلال الفتحة ظهر الرئيس الأعلَى «الحسن» الصبّاح بعينين تلمعان بشعور الاغتباط. تقدّم بخطًى سريعة نحو صديقه القديم وهزّ يده بقوّة.

- ما بالك يا مضيفي في أصفهان! آمُل أن تكون قد عدلت عن رغبتك في أن تُحضِر لي معك دواءً ضدّ الجنون! ثم أدخل ضيفيه العجوزين إلى

غرفته وعلى وجهه ابتسامة مُشرِقة.

وجد الضيف نفسه في غرفةٍ فُرِشَت بأثاث مُريح، كلُّ شيء فيها يُوحي بأنها غُرفة عالِم. على امتداد الجدران ترتفع خزائن مليئة بالكتب والمدوَّنات، الأرض مُغطّاةٌ بالسَّجّاد. هنا وهناك أجهزةٌ مختلِفةٌ لعِلم الفلك، للقياس والحساب وألواح وأقلام ومحابر وكلّ ما يلزم للكتابة، مما يثير الدهشة والإعجاب. أجال الضيف بصره هنا وهناك فلم يرَ أيّ رابط بين ما شاهده في أسفل القلعة وما يشاهده الآن.

- إذًا، ليس دواءً للجنون ما أحضرته لي، قال الصباح ضاحكاً وهو يداعب لحيته الطويلة التي ما زالت في غالبيّتها بلون أسود جميل. هل يمكن معرفة سبب هذه الزيارة الكريمة وأنا في هذا المكان النائي؟

- طبعاً، بالتأكيد، ليس الوقت مناسباً لاستحضار الدواء لك، قال الضيف، لكنّ مُظفَّر كلَّفني نقل بعض المعلومات إليك. بأمر من السلطان انطلق الأمير «أرسلان طاش» من «همدان» باتّجاه «آلاموت Alamut» على رأس جيشٍ قِوامه ثلاثون ألف رجل، ويمكن لطليعة الخيّالة أن تصل اليوم أو غداً قريباً من «رودبار» وأن تعسكر خلال بضعة أيامٍ تحت أسوار القلعة.

تبادل «الحسن» وأبو علي النظرات للحظة، ثم تساءل «الحسن» غارقاً في التفكير، لم أتوقّع قراراً بهذه السرعة، يبدو أنّ تطوُّراتٍ قد حصلت داخل قصر السلطان.

جلس أبو فاضل على السرير قرب صديقه وبدأ يفكّر ويهزّ رأسه.

- سأقول لك كلّ ما أعرف، وعليك من جهتك ترتيب إخلاء كلّ الأمكنة بأقصى سرعة ممكنة.

الْتزَم «الحسن» الصمت، في حين راح أبو فاضل يراقبه خلسةً. لا يبدو عليه أنه في الستّين من العمر، حركات جسمه طيِّعةٌ كما في السابق ولا يزال يحتفظ بنضارةٍ في البشَرة.

- إنّي مُصْغٍ إليك، زوّدني بالتفاصيل، قال لضيفه واضعاً يده على جبهته.

أكمل الضيف كلامه بهدوءٍ، موضِّحاً له أنّ عدوّه القديم نظام المُلك لم يعُد الوزير الأول.

انتصَب الصباح غير مصدِّقٍ أذنيه.

- لقد أقال السلطان نظامَ المُلك وعيّن مكانه أمين سرّ السُّلطانة، أعْلَمَه الضيف.

- تاج المُلك! علت الدهشة وجه أبو علي، إنه حليفنا.

- لم يعُد كذلك منذ أن أمِلَت السُّلطانة تبوُّأ ابنها العرش بطريقة شرعيّة، أفصَح أبو فاضل.

- خيانة دنيئة، دمدم الدّاي الكبير.

استغرق «الحسن» في تفكير عميق منحنياً إلى الأمام، وراح يرسُم

بصمت تامٍّ بأصبعه على السجّاد دوائرَ مختلفة. صمت العجوزان واكتفيا بملاحقة حركات الصباح بانتظار أن يتكلّم.

- إذاً، حلَّ أمين سرّ السُّلطانة مكان نظام المُلك، قال ابن الصباح: هذا يعني بوضوح أنّ وضعنا في القصر طرأ عليه تغيير أساسي، وهذا يفسد إلى حدٍّ ما كلَّ حساباتي. كنت أعتقد أنّ السلام سيبقَى قائماً حتى الربيع حيث تكون استعداداتي قد أُنجِزَت، لذلك علينا الآن تسريعها بشكلٍ جدّي.

- كدت أنسَى أمراً مُهمّاً، تابع أبو فاضل، احتفظ نظام المُلك بمنصبه كوزير على أن يكرِّس نفسه لَمَهَمَّةٍ دقيقة: إبادة الإسماعيلية بأسرع ما يمكن.

- هذا يعني، اقتتالاً حتى الموت، أفصح أبو علي بصوتٍ جافّ. بات الوزير الأول السابق في وضع الذئب الذي يترتّب عليه تصفية القطيع.

- لم نصبح بعد قطيع نعاج، قال «الحسن» بسخرية. ينبغي علينا اتّخاذ تدابيرَ استثنائية. ما هو رأي مُظَفَّر؟ هل هو على استعدادٍ لمؤازرتنا؟

- لقد استعرضنا بدقّةٍ كلّ الاحتمالات، أجاب أبو فاضل. أنت عزيزٌ عليّ وأنا على استعداد لتغطية انسحابكم أمام خيّالة الأتراك، فإذا ما تصدَّيت للقوّة الأساسية في جيش الأمير فلن تستطيع تأمين انسحابك منفرداً.

- أسمعُك جيداً، أسمعُك جيداً، تمتم «الحسن» وعلى شفتيه ابتسامته المعهودة وفي عينيه شرر لاهب، وإلى أين ينصحني جلالته المستنير بالانسحاب؟

- هذه الاحتمالات هي بالتحديد ما ناقشناه بالتفصيل، قال أبو فاضل متظاهراً بعدم ملاحظته ملامح الخُبث على تقاسيم «الحسن». ليس أمامك سوَى مسلَكَين، أقصرهما نحو الغرب، عبر مناطق الأكراد المُوحِشة، وهذه تسمح لك ببلوغ بيزنطية ثم مصر، أمّا الثانية، وهي الأطوَل، وينصح مُظفَّر بسلوكها نحو نيسابور حيث يمكن «الحسين الكاييني» أن ينضمّ إليك بقواته ثم تنفّذون انسحاباً نهائيًّا نحو كابول حيث ستجد بين أمراء الشرق مَن يمكنه أن يؤمّن لكم موئلاً.

- خطّةٌ رائعةٌ، علّق «الحسن»، وماذا إن لم تكن قوّاتي سريعة الحركة بمواجهة خيّالة السلطان؟

- لقد استعرضنا أيضاً هذا الاحتمال، أردف أبو فاضل مقترباً من مُضيفه.، إذا بدا الانسحاب مغامرةً خطِرة، عندها يكفل مُظفّر تأمين ملجأٍ عنده لك ولأعوانك، ومِن أجل هذا أوفدني إليك.

- مُظفّر ذو بصيرة، ولن أنسَى مطلَقاً تعاطفه معي، ولكنه لا يعرف ما يجول في رأسي ولا يقرأ ما في قلبي. «آلاموت Alamut» عصيّة على الأعداء وسنبقَى فيها. سوف نسحق الخيّالة الأتراك، وعندما يصل عظيم جيش السلطان سنكون بانتظاره. نظر أبو علي إلى الصّباح بعينين برّاقتين مُفعمَتين بالثقة، أمّا أبو فاضل فبدا مذعوراً.

- عزيزي الصّباح، كنت أعتبرك على الدوام رجلاً فطِناً، حسَن التدبير، قال أبو فاضل. خلال الفترة الأخيرة ازداد تقديرك بشكل مُلفِت،

وبات اسمك على كلّ لسان في إيران. لقد أثبتّ جدارتك في القصر، وإنك قادرٌ أن تكون رجل دولةٍ أكفأ من كثيرين سواك، ولكنّ ما تقوله الآن يقلقني ويخيفني.

- لم أُكمِل حتى الآن سوَى نصف مَهمَّتي، أجاب «الحسن». حاليًّا لا أُبالي بكفاءتي كرجل دولة، إنما سأختبر ما يمكن أن يصنعه الإيمان.

تلفّظ بهذه الكلمات ثم توجّه إلى الدّاي الكبير قائلاً:

- عليك تنظيم اجتماعٍ لمجلس الرؤساء ثم أصدِر أمراً بالاستنفار العامّ فوراً. غداً صباحاً يجب أن يخضع التلامذة للاختبار النهائي الذي سيُكرَّسون بنتيجته فدائيين. سوف تنوب عنّي في رئاسة المجلس. عليك أن تُعلِم الرؤساء أنّ زائرين يقتربون منّا، وأننا قرّرنا انتظارهم في أماكننا. عندما تنتهي من كلّ ذلك عليك العودة إليّ وتقديم تقريرٍ مفصَّل لي. أبلِغ النقيب بأن يُصدِر أوامره إلى الضبّاط لاتّخاذ التدابير المناسبة للدفاع عن القلعة.

- سمعاً وطاعةً، أكّد أبو علي، ثم غادر القاعة.

على أصوات قرع الطبول، وعجيج الأبواق، هبّ الجنود لاستلام أسلحتهم، والرؤساء للاجتماع. أبو علي في القاعة بانتظار «الدّايات» والضبّاط الذين حضروا خلال لحظات. نظر أبو علي إليهم الواحد تِلوَ الآخَر ثم قال:

- أقال السلطان الوزير الأول، ابتدأ كلامه من دون مقدّمات، وكلّفه بمَهمّة طارئة: إبادة الإسماعيلية.

أمير همدان، «أرسلان طاش» يتقدّم نحو «آلاموت Alamut» على رأس جيش من ثلاثين ألف مقاتل، ومقدَّمة الخيالة الأتراك يُتوَقَّع وُصولهم اليوم أو غداً إلى النهر الكبير «رودبار»، وخلال بضعة أيام من المُحتمَل أن نشاهد الرايات السوداء تخفق أمام قلعتنا. لقد وعدنا قائد حامية الرّيّ مُظفَّر بمدّ يد المساعدة إلينا، لكنّ أبرز حليف لنا هو إرادتنا وعزمنا على القتال حتى النصر، وقد طلب سيِّدنا إليّ استمزاج رأيكم توصُّلاً لاعتماد أفضل السُّبُل لمواجهة الأعداء، وبعد أن يتعرّف إلي وجهات نظركم وآرائكم سوف يُصدر أوامره لاتّخاذ التدابير النهائية.

في قاعة الاجتماع، وهُم جلوس على الأرائك راح الرؤساء يتبادلون الآراء ويتناقشون في أفضل الطّرائق لمواجهة الخطر القادم.

– أيُّها النقيب، بما أنّك جنديّ عرَكَته الأيام، توجَّهَ أبو علي بالكلام إليه، ما هو بنظرك أفضل تدبير يمكن اتّخاذه؟

– ليس علينا أن نخشَى هجوم خيّالة التُّرك، أجاب النقيب، يمكن للقلعة أن تصمُد أمام هجوم من هذا النوع، ومَنْ يحاول الاستيلاء عليها عنوةً سيُمنَى بفشلٍ ذريع. يبقَى المهمّ كم من الوقت يمكننا الثبات أمام ضغط جيش من ثلاثين ألف رجل مزوّدين بمُعدّاتٍ وآلات الحصار، تلك هي المشكلة.

– كم من الوقت يمكننا الثبات اعتماداً على المؤَن المتوافرة لدينا؟ استوضحَ اليوناني.

- لنقُل ستّة أشهُر، أجاب النقيب، ولكن إذا سنحت لنا الظروف بتسيير قافلة إلى الرّيّ فبإمكان مُطفّر أن يمدَّنا بما يكفي لستّة أشهُر أخرَى.

بدَوْره تدخّل عبد الملك قائلاً:

- أرَى من الغباء أن نبقي أنفسنا أسرَى القلعة، إذْ بإمكاننا أن نحاول مناوشة طلائع التُّرك في العراء، سيّما إذا أمدّنا مُظفّر بالدعم المناسب. أثار هذا الرأي حماس صغار الضبّاط مما دفع أبو سراقة إلى أن يلفت إلى ضرورة عدم التسرُّع. علينا أن نُدرك أنّ لدينا في القلعة نساءً وأطفالاً، لا بدّ أن نخشَى عليهم سوءَ المصير إذا ما دارت الدائرة علينا.

وهنا تدخّل الدّاي إبراهيم قائلاً:

- دعُوني أقدّم لكم هذه النصيحة؛ لِنضع النساء والأطفال على ظهور الإبل والبغال ولْنُرسلهم إلى مُظفّر على أن تعود القافلة إلينا بالمؤَن الغذائية. بهذا نحقّق ثلاثة أهداف: أولها تقليص عدد الأفواه التي تحتاج للغذاء في القلعة، وثانيها إزاحة هموم الانشغال بعوائلنا، وثالثها الحصول على المؤَن.

- فكرة ذكيّة، أقرّها أبو علي ودوّنها على مفكّرته. بعد هذا جرَى نقاش حول توزيع المَهامّ، وكلٌّ واحد من الحاضرين أدْلَى بدلوِه. أخيراً أعلن أبو علي انتهاء الاجتماع وطلب إلى قائد الحامية انتظار الأوامر لاتخاذ التدابير النهائية، ثم أسرع إلى المَرقَب للقاء الرئيس الأعلَى.

احتاج «الحسن» إلى وقت غير يسير ليستعلم من الرئيس السابق لأصفهان عن التطوّرات التي حدثت في القصر، والتي تبرّر تصرُّفاً سريعاً بهذا الشكل من قِبَل السُّلطان.

لقد بقي «الحسن» على علاقة طيّبةٍ مع دوائرَ معيّنة في السُّلطة، فتاجُ المُلك، وزير السُّلطانة الشابّة «توركان خاتون»، يقوم بدَورٍ مهمٍّ في هذا المجال. بصورة شرعية أوصَى السلطان بولاية العهد لابنه البكر «برقيارق» من زوجته السابقة، وتمكّن هذا الشابّ الذي لا يزيد عمره على العشرين سنة من إخضاع طائفة الأمراء المتمرّدين خلال معركة قاسية على امتداد الحدود الهندية. استغلّت السُّلطانة الشابّة غيابه لتضمن لصالح ابنها محمد البالغ من العمر أربع سنوات وراثة العرش.

كان نظامُ المُلك من أشدّ المناوئين لهذا المشروع، أمّا السُّلطان فكان عليه أن يقاوم من جهته تأثير وزيره العجوز، ومن جهة أخرَى جَمال وإغراء زوجته الجديدة الفاتنة. ظنّ الوزير الأول أنّ رأيه سيكون الراجح اعتماداً على مساندة الخليفة القويّ له بالإضافة إلى تأييد رجال الدين السُّنّة. في حين وجدت السُّلطانة دعمها لدَى كلّ خصوم «نظام المُلك»، وبصورة عامّة، من أولئك الذين يحكمون بصيرورته إلى العجز، ولكي يتمكّن حزب السُّلطانة من مواجهة ثقَل رجال الدين، عمَد وزير السُّلطانة إلى توثيق الروابط مع أتباع عليّ حيث يأتي الصّباح في طليعتهم. هذه الدسائس التي كانت تُحاكُ في كواليس القصر جاءت كنعمةٍ من السماء بالنسبة لسيّد

«آلاموت Alamut». تعهّد «الحسن» للسُّلطانة بدعم قضيّتها لـدَى أتباعه في كلّ إيران، وتعهّد تاجُ المُلك بأنه سيحاول إقناع السُّلطانة بممارسة أقصَى الضغوط لتهدئة السُّلطان الذي ربّما بفضل النجاحات العسكرية الأخيرة في شمالي البلاد أقدم على إجراء غير متوقَّع.

على امتداد عامَين الْتزمت السُّلطانة ووزيرها بتعهّداتهما، وعندما أشار «نظامُ المُلك» على السُّلطان بضرورة الإسراع في البَدء بعمل عسكريّ ضدّ الإسماعيليين، بذلا قُصارَى جهدهما للتقليل من الخطر الذي يمثّله هؤلاء بغية دحض مزاعم الوزير الأول، واعتبار مخاوفه نابعة عن كراهيته الشخصية للحسن بن الصباح. علِم «نظامُ المُلك» أنّ «حسين الكاييني» على وشك حشد قوّاته حول قلعة «زورجابعادان» بعد أن عبَّأ باسم «الحسن» كلّ خوزستان ضدّ السلطان، وهذا أمر مخيف، وهو يعرف أنّ لديه حساباً ثقيلاً مع «الحسن». كلّ هذا حفزه لإعادة الكرّة في سبيل إقناع السُّلطان بخطوةٍ ما باتّجاه الصَّباح.

منذ سنوات عديدة، بالمكيدة والخدعة، حاول «نظامُ المُلك» أن يحرم الصَّباح من الحظوة التي كان يتمتّع بها لدَى السُّلطان، فلجأ إلى تشويه صورته معتبِراً إيّاه مهرّجاً فاشلاً، وكلُّ ذلك بهدف إبعاده عن القصر؛ وقد نجحت المكائد الخسيسة التي نسجها في إثارة نقمة السلطان وغضبه على «الحسن» الذي تخوّف من تفاقم الأمور وصولاً إلى تهديد حياته، فغادر القصر خلسةً ذات ليلة تحت جنح الظلام. منذ ذلك الوقت لم يأخذ

السلطان على تحمَل الجِدّ النجاحات التي حقّقها الصَّباح، إلى أن كان يوم أوضح فيه الوزير الأول للسُّلطان أنه تعمّد تقزيم قُدُرات «الحسن» أمامه انطلاقاً من أدلّة لا أساس لها عن قصدٍ وتدبيرٍ منه، وأنّ الصباح خلافاً لِما قيل عنه هو رجل موهوب وخطِر. إزاءَ هذا، ووفقاً لِما يُروَى، استشاط السُّلطان غضباً ولم يتوانَ عن توجيه رفسةٍ إلى العجوز الراكع عند قدميه، ثم انسحب إلى جناحه من دون أن يتفوّه بأيّة كلمة.

بعد ذلك بوقت قصير، أصدر قراراً بإعفاء نظام المُلك من منصبه كوزير أول، وعيّن مكانه أمين سرّ السُّلطانة بصورة مؤقّتة. وفي الوقت نفسه تلقّى نظامُ المُلك أمراً حازماً بالقضاء على الصباح بأسرع ما يمكن وإبادة الإسماعيلية بشكلٍ لا تقوم لهم قائمةٌ بعدها. من هذه الزاوية يمكن تفهّم موقف السُّلطانة وأمين سرِّها تجاه حليفهما السابق، لأنّ خصمهما اللدود أُزيح عن السُّلطة ولم يعودا بحاجةٍ لأيِّ عونٍ لمتابعة الضغط والتأثير على السُّلطان.

عندما عاد أبو علي من الاجتماع ليقدّم تقريره إلى الرئيس الأعلَى، كان الأخير قد أصبح على اطّلاع بتفاصيل ودسائس القصر في أصفهان، فتناسَى كلّ ما كان يفكّر فيه وطلب إلى «أبو علي» تناوُل لوح وقلم والمباشرة بالكتابة.

نفّذ الدّاي ما أُمر به وقال:

– أنا جاهز يا ابن الصباح.

تسمّر الصباح قُربه وباشر بإملاء تعليمات مقرونة بكلّ التفاصيل الضرورية:

- فيما يتعلّق بالخيّالة التُّرك، أرَى أنّ عبد الملك على صواب، وعلينا أن لا نـدَعَها تطوِّقنا داخل القلعة. على العكس علينا مفاجأتها في أرضٍ مكشوفةٍ نختارها ونعمل على تشتيتها، ومِن أجل ذلك ينبغي أن نحرص على أن يمدّنا مُظفَّر بالإمدادات اللازمة. عليك يا أبو علي أن تتولّى بنفسك قيادة الجيش الذي سيكون في استقبال طلائع جيش السُّلطان. أمّا النقيب فيُناط به أمر الدفاع عن القلعة. أنا أعلم أنه لن يكون راضياً لأنه يهوَى ميادينَ القتال حيث يسيل الدم غزيراً، ولكننا بحاجة لكفاءته في القلعة تحسُّباً لأيّ احتمال، من ثَمّ ينبغي التخلُّص من الأفواه غير المفيدة، ومن أجل ذلك على «عبد الملك» تشكيل قافلةٍ من الإبل والبغال لنقل النساء والأولاد قبل هبوط الليل. بالإضافة إلى ذلك، يجب أن نُوفِد رسولاً فوراً إلى الرَّيّ لإعلامهم بما ينتظرهم، أي تحضير المؤَن الواجب إرسالها لدَى عودة القافلة. وأنت أيُّها العزيز عبد الفاضل، ماذا في نيّتك أن تفعل؟ نظر عبد الفاضل إلى الرئيس وعلى شفتيه شبه ابتسامة قائلاً:

سوف ألوذ بالفرار مع القافلة، لا أنوي أن أبقَى لأجد نفسي في هذه المصيدة، عندما ينقضّ جيش السُّلطان علينا. لقد أدَّيتُ واجبي، وما عليّ إلاّ الفرار قبل فوات الأوان. توجّه «الحسن» مجدّداً إلى «أبو علي» قائلاً:

- ليتوجَّه على الفور رسولٌ إلى «رودبار» ليطلب من صاحبنا هناك أن يهُبّ للانضمام إلينا، إنّي أحتاج إليه، أنا آسف لأنّ خوزستان بعيدة عنا، ولا

يسَع «حسين الكاييني» القدوم إلينا. فيما تبقّى من وقت، سوف تحصل هنا أشياء ستدهش أجيالَ المستقبل.

غارقاً في تأمّلاته، بدا الرئيس وكأنه هائمٌ في عالَمٍ آخَر، بعد صمت قصير، توجّه إلى عبد الفاضل قائلاً:

- يخيَّل لي أنّك تحسبني أحمق، كسالف الأيام في أصفهان، لأنّك تعلم أننا بعددنا المتواضع سوف نواجه جيشاً من ثلاثين ألف مقاتل، إلاّ أنّ ما يغيب عن بالك أنّ الملائكة سوف تساعدنا كما حصل مع النبيّ في الزمن الماضي خلال معركة بدر.

- حتماً أنت تمازحني، أجابه أبو فاضل بنظرة غاضبة، إذ ساءه أن يرَى الرئيس يحاول الهُزءَ منه في هذه الظروف.

- مُطلَقاً ليس هذا مزاحاً، يا صديقي القديم، قال «الحسن» بمرَح. لِنقُل إنني أتكلّم بأسلوب مجازي. لكنّي أؤكّد لك أنّي بصدد تحضير مفاجأة، مفاجأة لن تصدِّقها عيناك وأذناك. أريد أن أدَلِّل على ما يمكن أن يصنع فعل الإيمان في القلوب. استأنف «الحسن» إصدار تعليماته قائلاً:

- ليعلم كلّ واحدٍ مَهمّاته المُوكَلَة إليه بكلّ دقّة، اختر بنفسك الرُّسُل وزوّدهم بنفسك بالأوامر اللازمة. عليهم الانطلاق فوراً. أبلغ عبد الملك استحضار ابنتيّ إليّ قبل انطلاق القافلة. عندما تنتهي من كلّ ذلك عليك أن تأمر التلامذة بالاستعداد لأنه سيبدأ غداً صباحاً اختبارهم النهائي، وفي مساء اليوم نفسه، سوف تنظّم اجتماعاً لهم برئاستك في قاعة الصلاة

وتكرّسهم فدائيين. هل كلُّ شيءٍ واضح؟

- كلُّ شيءٍ واضح، يا ابن الصَّباح.

عقب ذلك، صرَف «الحسن» العجوزَين ثم تمدّد على الأرائك وراح يفكّر في مُجمَل الأوامر التي أصدرها. عندما تأكد له أنه لم ينْسَ شيئاً، أخلَد إلى النوم.

ها هي فِرَق الجند في الفِناء تحت أشعّة الشمس الحارقة في ترقّب وانتظار يشاهدون الرؤساء يدخلون إلى مبنَى الرئيس الأعلَى ويجدون صعوبة في السيطرة على نفاد صبرهم. أمّا التلامذة المنتظِمون أمام الثُّكنة كأشجار الحَوْر فإنهم يحدّقون بثباتٍ إلى الأمام. إنّ اختيارهم ليكونوا في استقبال رجل ذي مقام رفيع هو شرف يثير لديهم الفخر والاعتزاز. ومع ذلك، بدأ صبرهم ينفَد، وما لبثوا أن بدأوا التعليق، كلٌّ بدَوره، على بعض الأمور لتمضية الوقت وتبديد التوتُّر.

فجأةً، شوهد العريف «أبونا» يجتاز الفِناء مسرعاً وهو يقول: يبدو أنّ الوضع جدّي أيُّها الفتيان، فجيش السلطان يتقدّم نحونا. عمّ الصمت، وتبادلوا النظرات، ثم استغرقوا في التفكير بما ينتظرهم في مُقبِل الأيام.

في تلك الأثناء، اجتاز العريف الساحة مصحوباً برجُلَين يقودان ثلاثة خيول وحصان «أبو علي» الصغير.

أمام مدخل القصر، حيّا حارس، بسلاحه، الدّاي الكبير وبقية

الرؤساء لدَى خروجهم من المبنَى؛ امتطَى «أبو علي» والـدّاي إبراهيم فرسيهما في حين لحق بهما الآخرون. وقف كلٌّ منهما أمام رجاله وأصدر أمراً للنظر باتجاه قصر الرئيس الأعلَى.

تقدّم أبو علي على صهوة جواده إلى محاذاة الشُّرفة العُليا، ثم رفع يده طالباً الْتزام الصمت، فعَمّ الساحتين سكونٌ مُطبِق، وعندها ارتفع الـدّاي الكبير بجسمه قليلاً متكئاً على مهمازيه وصاح بصوتٍ عالٍ:

- أيُّها المؤمنون الإسماعيليون، أُعلن بأمرٍ من معلِّمنا الرئيس الأعلَى أنّ ساعة الاختيار قد حانت؛ بالسلاح الذي في أيديكم عليكم أن تبرهنوا عن إخلاصكم وحبّكم لرئيسنا ولشهدائنا الأبرار.. إنّ «ابن الكلب»، «أرسلان طاش»، بأمر من السلطان، يتقدّم نحونا أيُّها المؤمنون، على رأس جيش كبير وهدفه القضاء علينا. خلال أيام سوف تزعق أبواقهم أمام «آلاموت Alamut»، وسوف يخفق العلم الأسود «للكلب» العبّاسي أمام قلعتنا. لذلك، فإنّي آمركم باسم سيِّدنا أنْ لا يدَع أحدكم من الآن وصاعداً سلاحه بعيداً عنه ليلَ نهار تحت طائلة اعتباره مرتداً ومعرَّضاً للموت. لدَى سماعكم النفير، عليكم بأقصَى سرعة التوجّه إلى مكان التجمُّع ورؤساؤكم سيوجِّهون إليكم التعليمات المناسبة، ثم أدار زمام فرسه وتطلّع باتجاه التلامذة قائلاً لهم:

- أنتم الجاهزون للتضحية، اسمعوا أمر سيّدكم. صباح الغد سوف تُستدعَون للاختبار، من يجتازه بنجاح سيتمّ تكريسه فدائيًّا مساءَ اليوم نفسه. استعدّوا جيّداً لأنّ اللحظة التي سيتمّ تكريسكم خلالها كفدائيين

هي لحظة مشرقة لكم على امتداد حياتكم. توجّه أخيراً إلى بقية القِطَع، وبصوت أجشّ سُمع في كلّ الأرجاء قال:

- يا مقاتلي القضية الإسماعيلية، تذكّروا كلام الأنبياء، عندما يحين الوقت عليكم أن تقاتلوا كالأُسود، فالخوف لا ينقذ أحداً من الموت، الله هو الله، محمدٌ نبيّنا، تعالَ إلينا أيُّها المهديّ!

كان للكلمة التي ألْقاها أبو علي على التلامذة وقعٌ مثير.. لقد حان اليوم الذي طالمًا انتظروه، ولكنّ أحداً منهم لم يستعدّ له الاستعداد الكافي. بدا عليهم الوجوم وراحوا من فوق مطاياهم يتبادلون نظرات القلق والحيرة.

في الناحية الأخرَى من الشُّرفة السُّفلَى، يُخفي سياجٌ كثيف من أشجار الشوح والسَّرو مبنَى الحريم ملاصقاً للتمراد (برج الحمام). غاص أبو مالك كالنسر بين الأطفال والنساء وطلب إليهم الاستعداد للمغادرة فوراً. تخلّل ذلك صراخ وبكاء وهرج ومرج. الحرّاس الخصيان لم يعيروا اهتماماً لهذا المشهد إلى أن طُلب إليهم مدّ يد المساعدة لتحضير القافلة. عشرات الحمّالين والبغّالين هيّأوا المطايا أمام المبنَى. أخيراً وصل الضبّاط والدّايات لوداع نسائهم وأولادهم قبل الرحيل. بعد ذلك عاد الرجال لمزاولة أعمالهم في حين انزوَى كلٌّ من الحكيم وأبو سراقة يتبادلان أطراف الحديث:

- الآن سيبدو الحصن فارغاً، قال أبو سراقة متحسِّراً.

- عليّ أن أمتدح هؤلاء الفلاسفة الذين أكّدوا أنّ المُتعة مع النساء بوسعنا الاستغناء عنها بالطعام والشراب، عقّب اليوناني.

رؤساؤنا كما أعلم هذا هو رأيهم أيضاً، قال أبو سراقة بـإيماءةٍ سـاخرة، قال الطبيب:

لعلّك برأيك تتكلّم كتلميذ! ثم أخذ بيد أبو سراقة وهمس في أذنه:

- ما تظنّ أنّ أسيادنا يخبّئون هناك في تلك البساتين خلف القصر؟ ربما قطيعاً من القطط الصغيرة. دعك من هـذا! أنـا وأنـت لم يتـسنّ لنـا مطلَقـاً تذوُّق الإوزّ السمين الذي يربّونه هناك بعيداً عن الأنظار.

توقّف أبو سراقة مفكّراً، ثم قال:

- كلاّ، لا أُقرُّك على ما تقول، أشكّ بوجود شيء مما تـشير إليـه، هنـاك خلف الجدار، وبالرغم من ذلك ما زلـت مقتنعـاً بـأنّ هـذا الأمـر إذا كـان حقيقةً فليس من أجل تسليتهم، بل من أجل خيرنا جميعاً.

- لك ملء الحرّية في أن تُصرّ على رأيك. أجابه الطبيب، وهو ينظر إليه نظـرةً ذات مغـزًى. لكـنْ، اعلـم أنّ المعلّـم يحـتفظ لنفـسه دائـماً بأفـضل الوجبات.

- آه، كدت أنسَى شيئاً، قال عبد الفاضل للحسن في الوقت الذي كان يهمّ بالاستئذان للانصراف. لقد أحضرت لـك معـي هديّـة مـن نـوعٍ مـا، ولكن، تأكّد أنّ الأمر لا يتعلّق هذه المرّة بدواء للجنون بل بهديةٍ خاصة ربما تجلب لك السرور، هل تعلم ما هي؟

ضحك «الحسن» وتطلّع في عيني «أبو فاضل» متسائلاً:

- حقاً، لا أعرف، ربّما أحضرت كتاباً!

- لقد أصبت أيُّها الرئيس، يتعلّق الأمر بمخطوط، أجل، ولكن لِمنْ؟

- كيف يسعُني أن أعرف، ربّما شاعر قديم، ابن سينا مثلاً؟

- كلاّ! هل هو معاصر لنا؟ أيكون الغزالي؟

- كلاّ، في الواقع لم أفكّر في إهدائك كتاباً من مؤلّفاته فهو يبدو أكثر تديُّناً منك، قالها مداعِباً، إنّ ما لديّ عائدٌ لشخصٍ قريب جداً منك.

- قسماً بالله، لا أدري إلى ما تلمّح!

ابتسم أبو علي وقال:

- هل يسعُني المحاولة؟

- حاوِل، قال الصّباح.

- إنّي أراهن على أنّ الهديّة هي مخطوط لصديق قديم لك، هو عمر الخيّام.

انفجر الصّباح ضاحكاً وقال:

- لم يخطُر في بالي هذا مُطلَقاً، صاح «الحسن» واضعاً يده على جبهته.

- لقد اخترت لك أربع قصائدَ اختطّها صديق لي في نيسابور، وقد سمعها مشافهةً من الخيّام نفسه، أظنّ أنّ هذا من دواعي سرورك.

- لا يسعُك تخيّل أهمّية هذه الهديّة، إنّي أشكرك لحُسن اختيارك. فتح «الحسن» اللفيفة وبدأ قراءتها وما عتم أن غرق في لُجّة التفكير.

- كم يبدو هذا غريباً! ها أنا أتلقّى في يوم واحد تقريباً أخباراً مِن تِربَيّ: نظام والخيّام!

في هذه الأثناء أعلن خصيٌّ وصول عبد الملك مع ابنتي «الحسن».

- اذهب الآن يا صديقي العزيز، قال «الحسن»، وهو يطوّق بذراعه كتفَي «أبو فاضل». عليك الاهتمام بنسائي وأولادي. ربّما في يوم ما احتجت إلى شيء، تذكّرني واعلم أنّي رهن إشارتك، ثم حيّاه بإيماءةٍ من يده وافترق الصديقان.

أزاح «عبد الملك» الستار، فتقدّمت ابنتا «الحسن» خديجة وفاطمة بخوف ظاهر، ووقفتا لصق الجدار قريباً من الباب بينما كان الدّاي يتّجه بخطوة ثابتة نحو الرئيس الأعلَى.

- أحضرت لك ابنتيك، سيّدنا.

رمق «الحسن» الفتاتين بنظرة ثاقبة وقال:

- ما بالكما تسمّرتما هناك كدجاجتين مذعورتين! اقتربا، قال مؤنّباً، أرسلتكما أمّكما إليّ لمضايقتي كي أظلّ أذكرها، وهي تعلم جيداً أنّني لا يسعُني كبت غضبي لدَى رؤيتكما. لقد استقبلتكما كما يُملي عليّ الواجب كوالد، يكفي الآن، عليكما الالتحاق ببقية الحريم إلى الرّيّ حيث سيتعهّدكما «مُظفّر». ثم توجّه نحو عبد الملك قائلاً:

- أبلغ «مُظفّر» أنْ لا يعطيهما من الطعام إلاّ بمقدار جهدهما مـن دون أيّ اعتبـار كـونهما ابنتـيّ، وإذا لم يكونـا طـائعتين فيمكنـه بـيعهما في سـوق النخاسة، وفي هذه الحالة عليه أن يحتفظ بنصف المبلغ له ويرسل الباقي لي.

انسحبت الفتاتان كفأرتين فيما بقي عبد الملك في مكانه بناءً لإشارة من «الحسن».

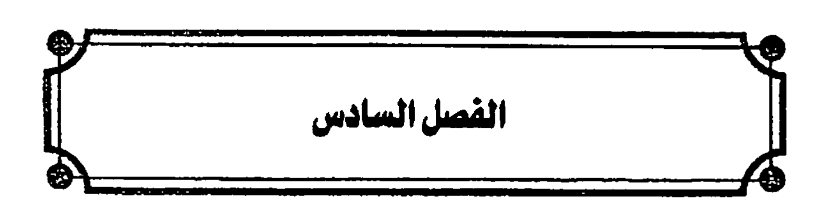
- مُظفّر يعرف جيداً كيف يعاملهما، إنه رجل عاقل ولديه أيضاً قطيـع من الأولاد.

انتظرت الفتاتان عند المدخل قُدومَ الدّاي بعيون باكية.

- لماذا لا يحبّنا والدنا؟ تنهّدت الابنة البكر من خلال دموعها.

- لا تخشيا شيئاً يا صغيرتَيّ، قال عبد الملك ليخفِّف عنهما، مظفّر طيّب القلب وسوف تلعبان مع أولاده وتأنسان بهم، هيّا لنلتحق بالقافلة.





الفصل السادس

عندما أحضر الطاهي طعام العشاء، لم يلحَظ الصباح دخوله، فقد كان مستغرِقاً في تفكير عميق. تناوَل المشعل، وبحركة حذرة متمرّسة، أزاح الستار الذي يقوم بدَور الباب، ثم دلَف إلى رواق ضيّق ينتهي بسلّمٍ حديديٍّ يؤدّي إلى شُرفة المِرقَب، مُمسِكاً بالمِشعَل على عُلوٍّ مناسب يسمح له بإنارة الممرّ أمامه، بلغ مصطبة مرتفعة حيث يهُبُّ هواءٌ نقيٌّ بارد، ثم اقترب من الحاجز (درابزون) ورفع المشعل ولوّح به ثلاث مرات فوق رأسه.

بعد قليل، ظهر مشعل في الظُّلمة أجاب بإشارة مماثلة. عندها أطفأ «الحسن» القبس في مطفأةٍ مخصَّصةٍ لهذه الغاية وتدثَّر بمعطف كبير، ثم أزاح ستارة أخرَى عن الحائط المقابل ومن خلال باب صغير دخل إلى غرفة ضيّقة تُشبه الكهف. الْتقط مطرقةً كبيرة وضرب بها صنجاً من معدنٍ لمّاع فانتقلت تموّجات صوت الصنج عبر سلك سرّي إلى أسفل المِرقَب، بدأت الحجرة بالتحرُّك ثم أخذت تهبط وبداخلها «الحسن» بوساطة عتَلة تديرها أيدٍ خفيّة من الأسفل. بدأ الهبوط بطيئاً طويلاً. في كلّ مرّة يستعمل الصباح هذه الحجرة للنزول ينتابه شعور بالقلق والضِّيق، ماذا يحصل إذا ما تعطّلت

إحدَى قِطَع الآلة أو إذا ما انقطع السِّلك، عندها ستهوي الحجرة به فوق الصخور التي تشكّل أُسُسَ القلعة! ماذا يحصل إذا ما خطر في ذهن أحدٍ من هؤلاء «العبيد» أن يرسله إلى الجحيم؟! إنّ واحداً من هؤلاء العمالقة الذين اعتُدي على رجولتهم إلى الأبد قادر في لحظة ما أن يثأر لكرامته من خلال ضربة سيفٍ قاطعٍ على رأسه! أجل، إنّ هؤلاء الحُرَّاس المُرعبين الذين يسيطر عليهم بنظرة كأنهم حيوانات متوحِّشة، بوسعهم لسبب ما أن يثوروا ويفتكوا به. لقد فعل كلّ ما في وُسعه ليضمن ثقتهم، فهم لا يطيعون سواه، مَن يمرّ أمامهم يرتجف رعباً حتى «أبو علي» تنتابه رِعشةٌ من الخوف عندما يصادفهم في طريقه. هم بالنسبة إليه السلاح المدمِّر الذي بوساطته يفرض نفسه على الجميع حتى الدّايات. وبُغية ضمان السيطرة على مرؤوسيه، ويكونون بين فكّي كلاّبة، سيكون له فدائيُّوه أيضاً.

توقّفت «الغرفة» في أسفل البُرج. على الفور أزاح «العبد» الذي يحرّك العتَلة الستارة ودخل الصّبَّاح في رواق بارد حيث نسمات الهواء الخفيفة جعلت لهب المشعل يتراقص كالطيور المذعورة. الْتفت إلى «العبد» خلفه وحدّق فيه بنظر ثاقب فاستشعر الأمان وقال له:

- أخفِض الجسر.

قبض «العبد» على عتَلةٍ ضخمة وضغط عليها بقوّة فإذا بجدارٍ يدور فيسمع خرير الماء وتشاهَد في السماء نجوم متلألئة من خلال فتحةٍ ضيّقة، وما لبث الجسر أن انخفض فوق السيل. من الجهة المقابلة، ثمّة رجل بيده مِشعَل ينتظر المعلّم.

- ماذا وراءك يا عديّ؟

- كلّ شيء يسير سيراً حسناً، سيّدنا.

تبادل الرجلان ابتسامةً قصيرةً ثم سارا حتى بلغا فرعاً من النهر رسا فيه قارب، صعدا إليه وانطلق بهما. بعد قليل وصل القارب إلى ضفّة رملية. قريباً منهما أكَمة مزروعة بالأزهار المختلِفة الألوان ومغروسة بأشجار متنوِّعة وإلى الأعلَى مقصورة يلمع زجاجها في الظلمة كأنها قصر من البلّوْر.

فتح عديّ الباب وسارع لإنارة المقصورة.

- ليس في نيّتي أن أضيّع الوقت بالانتظار، قال «الحسن» مسترخياً على الأرائك. اذهب فوراً وأحضر مريام.

- السلام عليك، يا ابن الصّبَّاح، هتفت مريام، فأشار إليها بالاقتراب، حيث وضعت على الأرض سلاًّ كبيراً ممتلئاً بالطعام والشراب. أرخت رداءها الذي انزلق عن كتفيها وجلست على ركبتيها أمامه، ثم انحنت لتقبيل يده فتظاهر بالتمنُّع.

- كيف حال الفتيات؟

- وفقاً لإرشاداتك يا ابن الصّبَّاح.

- حسناً، انتهَى وقت الدراسة. جهّز السلطان جيشاً وهو في طريقه إلينا. خلال بضعة أيام سيعسكر عند أسفل القلعة. جحظت عينا مريام ولمحت ابتسامةً مكتومةً على شفتَي الصّبَّاح.

- مع ذلك، تبدو هادئاً!

- ماذا عساي أن أفعل، ما هو مقدَّر لا رادّ له، وعليه فلا أرَى مانعاً من أن نشرب الخمرة التي أحضرتها. نهضت مريام، لم تكن ترتدي سوَى قميصٍ ورديٍّ من الحرير. بيديها البضّتين بدأت تسكب الخمرة، إنَّها فاتنة. لم يكن أمام «الحسن» إلاّ أن يكتم زفرة من الألم أحسّ بها تقبض على صدره، إنه يعرف أنه عجوز، وكلّ شيء على هذه الأرض يأتي متأخِّراً.

قدّمت له كأساً، وشرب كلٌّ منهما نخب الآخر. لقد لحظت مريام في عيني هذا الرجل القاسي بريقاً خاطفاً وأدركت مغزاه المكبوت ثم ارتسمت كالعادة على شفتيه ابتسامةٌ ساخرة.

- كان يجدُر بكِ منذ زمن أن تسألي، قال «الحسن»، ماذا ستفيدني هذه الجنائن الساحرة وهذه المقصورات الزجاجية، وماذا أنوي أن أفعل بالتحديد بهؤلاء الفتيات اللائي أمرت بتثقيفهنّ.. ثقافة معيّنة.. لم تسألي أبداً عن هذا الأمر ولا إخالُني إلاّ مقدَّراً تكتُّمَك هذا!

- في الواقع، إذا ما حصل أنّي لم أسألك، فهذا لا يعني أنّي غافلة عن نواياك.

- أعِدُك بأن أهبك كامل مملكتي إذا ما كنت تعلمين.. قال «الحسن» وهو يضحك بعطف وسخرية في آنٍ معاً.

- وماذا إذا ما كشفتُ نواياك؟

- تكلّمي.

- ألا تحتفظ بهذه الحدائق لأتباعك مقابل تضحياتهم وولائهم؟

- رأيك هذا بعيد جداً عن الحقيقة، يا عزيزتي.

- قيل لي ذلك، وفيما عداه، لا أعرف شيئاً.

أربك الأمر مريام، أمّا الصباح فاعتبر الحديث ضرباً من التسلية.

- هل ترغب الآن في أن تبوح لي بشيء؟ قالت مريام.

- أجل، قال «الحسن» ضاحكاً، ولكنّي لا أعرف من أين أبدأ كي تفهمي بدقّة ما سأقول. إنّي أحمل هذا السّرّ منذ عشرين عاماً وأكتمه عن الجميع. الآن، وقد حان الوقت للإفصاح عنه، أرَى نفسي عاجزاً عن العثور على الكلام المناسب. هذا السِّرُّ يتعلّق بهذه الرياض وبتدمير المملكة السلجوقية. هذه الحدائق، هذه الفتيات، «أباما» ودروسها، أنت، أنا، وبالاختصار، هذه القلعة وكلّ ما خلفها، كلّ هذا يدخل ضمن مخطّط كبير من صنع خيالي، والآن بات من المحتّم أن أنتقل إلى مرحلة التنفيذ. لا مجال للعودة إلى الوراء.

- إنك تفاجئني، يا ابن الصّبّاح، تكلّم، فأنا مصغية لك بكلّ جوارحي.

- كي تتمكّني من فهمي بشكلٍ أفضل، سوف أعود بذاكرتي إلى عهد شبابي البعيد. كما تعلمين وُلدتُ في طوس، والدي يُدعَى عليّ، كان عدوًّا لبغداد والسُّنّة. كثيراً ما كانت تُثار في منزلنا مناقشات حول هذه الأمور في ذلك الزمن. كانت هذه المشاحنات حول النبيّ وورثته يكتنفها الغموض وتثير في أعماقي الافتتان والسّحر. من بين المسلمين المقاتلين الأشداء، كان

يبدو لي الشهيد عليّ في الطليعة، وكلّ ما له علاقة به أو بعائلته تحيط به هالةٌ من الغموض. إلاّ أنّ أكثر ما كان يدهشني ما كان يعلَن من أنّ الله سوف يبعث بعده إلى الأرض شخصاً من نَسله هو المهديّ سيكون آخر الأنبياء وأعظمهم. استوضحتُ والدي وأقاربي وأصدقاءهم حول هذا الأمر. وكنت أتلهّف لمعرفة مؤشّرات عودة المهديّ، لكنّ أحداً لم يكن لديه كما بدا لي العلم اليقين.

ذات يوم، سمعت الناس يتحدّثون عن رجل غريب يقال إنه على علمٍ بالأسرار المتعلّقة بقدوم المهديّ. استعلمت عن هذا الداعية مستعيناً بأحد أصدقائي الذي لم يكن من أتباع عليّ، فأوضح لي أنّ هذا الدّاي ينتمي للطائفة الإسماعيلية، وأنّ أتباع هذه الطائفة ومريديها تغمرهم السرّيّة كسائر الأحرار أو المتصوّفين أو الملحدين. بحماسٍ واندفاع قرّرتُ القيام بزيارة لهذا الدّاي. لدَى لقائه، أرهقته بجملةٍ من الأسئلة. بدأ مضيفي يشرح لي معتمداً على آلاف البراهين موضّحاً أنّ عليًّا هو الوريث الأوحد للنبيّ، وأنّ محمّدَ بن إسماعيل الخلف الثامن لعليّ سوف يعود ذات يومٍ إلى الأرض تحت اسم المهديّ، وعقب ذلك، راح يشرح لي حججَ الفِرَق الأخرَى من أتباع عليٍّ من دون أن يفُته الإعراب عن غضبه ونقمته على مَن يعتبرون الإمام الثاني عشر هو المهديّ المنتظَر الذي هو بالطبع ليس من نسل إسماعيل. هذه التناقضات أدخلتني في دوّامة شوّشت أفكاري، ففقدتُ العزم على أن لا أبالي بعد الآن بالتباينات الدينية وأن أنصرف للحياة العادية إسوةً بسائر الناس.

هذا المنحَى الذي اختطُّه لحياتي كاد أن ينجح لولا مجيء داعية جديد إلى منطقتنا. سعيت للقائه، والغضب لا يزال يعصف بي من جرّاء سَلَفه الذي عجز عن أن يكشف لي الغموض، والذي وجدت نفسي مُرغَماً في حينه على السخرية منه ومن نظريّاته الخرقاء التي لا تجاريها غباءً وحمقاً في نظري إلاّ عقائد رجال الدين السُّنّة.

كنتُ على شكٍّ مِن أن يكون هو شخصيًّا، أو أحدٌ من أتباعه المقرَّبين، على علمٍ بأسرار قُدوم المَهديّ. كُلُّ ما في الأمر أنَّهم يجهَدون في دَفع المؤمنين المتعطِّشين للحقيقة إلى لُجَجٍ سحيقةٍ من الإبهام والغموض. قارَعتُه بالحُجَّة وحاصرته بالأسئلة، ولكنَّ الرفيق كان يصغي بهُدوءٍ ظاهر مقرونٍ بابتسامةٍ تنِمُّ عن الرِّضَى، ثم لم يلبث أن توجَّه إليَّ قائلاً: يا صديقيَ الشَّابّ، دَعني أقول لك إنَّك ستصبح يوماً ما مِن كبار الدُّعاة. أجل، إنَّك جاهزٌ لتلقِّي العقيدة الإسماعيلية الحقيقيّة، لكن عليك أولاً أن تَعِدَني بعدم البَوْح لأحدٍ بما سأقوله لك إلى أن يتِمَّ تكريسك كداعية.

هذا الكلام أدهشني. لقد كنتُ مخطِئاً في ظنِّي أنّ الأمور يلُفُّ بها الغموض. ردّدت وراءه بصوتٍ مُرتَجِفٍ الوعد الذي لقَّنَني إيّاه، وبعدها انطلق في حديثه قائلاً:

إنّ قضيَّة عليٍّ والمهديّ ليستا إلاّ سرًّا مُوَجَّهاً إلى العامّة من المؤمنين الذين يُجِلُّون صهر النبيِّ ويحتقرون بغداد، أمّا ذوو العقول الراجحة على غرار الخليفة الحاكم بأمر الله، فَنُبَيِّنُ لهم أنَّ القرآن هو ثمرة عقول مضلِّلة.

إعلم أنّ أحداً لا يستطيع الوصـول إلى الحقيقـة، وبالتـالي، فـنحن لا نـؤمن بشيء، ويمكننا فعل كلِّ شيء. أفقـدني هـذا الكـلام صـوابي. النبـيُّ رجـل مضلِّل! صهره عليٌّ رجل أحمق كونه آمن برسـالته! ومـاذا عـمّا تلقَّنتـه عـن مَهَمّة المهديّ المقدَّسة المتعلِّقة بمجيء مخلِّص للناس! كـلُّ هـذا، أيُعقَـل أن يكون أسطورةً ابتُكرت للبسطاء من النـاس! أعـترف أنّي لم أسـتطِع وقتهـا كبتَ صيحة استنكار قويّة: «لماذا إذاً تخادعون الناس بتُرَّهاتكم؟!». رمقنـي بنظرةٍ قاسية وقال: «ألا ترَى أنّنا أصبحنا «عبيداً» للأتراك؟ وأنّ بغـداد مـن جهتها خائفة والناس بغالبيّتهم نـاقمون، مِـن أجـل هـذا صـار اسـم عـليٍّ مقدَّساً. إنَّنا نعبِّئ المشاعر والنفوس لتُثير الشعب عـلى الـسلطان والخليفـة، هذا كلُّ ما في الأمر. أسرعت إلى المنزل كـالمجنون، وارتميـت عـلى سريـري مُجهِشاً بالبكاء. إنهار العالَم الموعود أمامي، ولزمني المرض. بقيت بين الحيـاة والموت أربعين نهاراً وليلة تحت وطأة الحُمَّـى، إلى أن شُـفيتُ واسـترجعت قواي، ولكنّي غدوت إنساناً آخر.

إثر إبلالي من المرض، قرَّرت تنظيم حياتي بطريقـة تـسمح لي بالنُّـضج والاستزادة من المعارف والعلوم. بدأت بإجراء مناقشات مع والدي الـذي كان من أتباع عليّ، حول ما يجول في خـاطري مـن أمـور الـدين، لكـنّ أبي انتابه الخوف من عمق أسئلتي وخوفاً من افتضاح أمـري، قـرَّر إيفـادي إلى نيسابور للدراسة هناك لدَى أحد الدُّعاة، حيث شاءت الظروف أن أتعرَّف إلى عُمر الخيَّام، ثمّ فيما بعد إلى نظام المُلك الذي غدا لاحقاً الـوزير الأول في بلاط السلطان.

لم أجِد عند أُستاذي الجديد ما يـروي ظمـأي إلى المعرفـة، فهـو يحفـظ القرآن من أوّله إلى آخره، وعلى اطّلاع على كثير مـن الفلاسـفة والمفكّـرين، لكنّ كلَّ هذا لم يكن ليَشفي غِلِّي.

كانت لقاءاتي مع رفاقي أكثر جدوًى، فنظام المُلك كان مثلي مـن أبنـاء طوس ويحمل اسمي نفسه حسن بـن عـليّ، وكـان يكـبرني بعـشر سـنوات تقريباً، ومعارفه، خصوصاً، في الرياضيات وعلم الفلك كانت مميّزة. لكـنّ المواضيع الدينية والبحث عن الحقيقة لم يكونـوا مـن صُـلب اهتماماتـه، ولم يكن قد سمع شيئاً عن الدُّعاة الإسماعيليين المقيمـين في طـوس، كـما أنّـه لم يتعرَّض خلال حياته لأزمةٍ فكريَّةٍ روحيَّة كـالّتي كـادت أن تُـورِدَني مـورد التهلُكة. أمّا عمر، فكان مختلفاً، فهو من أبنـاء نيـسابور، ذو طبـعٍ متواضِـعٍ هادئ ومن طراز مختلف، فهو مزاجيٌّ مثقَّف ومحدِّث لبِق.

كنّا نجلس ثلاثتنا مساءَ كـلِّ يـوم في حديقـة والـده، نرسـم مخطَّطـات للمستقبل. ذات يوم، اعترفت لهما أنّني عـضوٌ في أخَويَّـة إسـماعيلية سرّيـة، وحدَّثتهما عن لقاءاتي مع بعض الدُّعاة.

ثم عرضت أمامهما معلوماتي عن هذه العقيدة، مصوِّراً إياها كمعركـةٍ ضدّ الحُكّام السلاجقة وخادمهم خليفـة بغـداد. وإذ لاحظـت اندهاشـهما لدَى سماعهما آرائي، ظننت من المفيد متابعة عرض أفكـاري بكـلِّ حماسـة: «هل تريدون منّا، نحن، أحفاد كسرَى فارس القديمة، رستم والفـردوسي، أن نحالف هؤلاء، لصوص الخيول في تركـستان؟. بـما أنّ عَلَمهـم أسـوَد، فليكن عَلَمنا أبيض.

- ماذا علينا أن نفعل؟ تساءل عمر. حاولوا أن تتسلَّقوا بأسرع ما يمكن السلَّم الاجتماعي، ومَن يصل أوّلاً يُلزَم بمساعدة الآخرين. قلتُ لهما فأعجبهما ردّي. وعلى هذا تعاهدنا وتواثقنا..

... صمت الصَّباح لبعض الوقت، اقتربت منه مريام بحنان لتقول:

- الواقع إنّ الحياة أشبه بالخُرافة والأُسطورة.

- لقد احتفظت أنا شخصيًّا في قلبي بحنين لأحداث طفولتي وذاك الاعتقاد الراسخ بعودة المهديّ، قال «الحسن»، ولكنَّ هذا الاعتقاد بالإضافة إلى الإشكالية المتعلِّقة بخلافة النبيّ أصابها التصدُّع والشَّكُّ نظراً لتناقض الآراء والنظريات بشأنها. فكما يدافع أهل السُّنّة عن نظرياتهم، نلمس الحماس نفسه لدَى أطيافٍ أخرَى في المجتمعات على اتِّساع العالَم واختلاف الأديان. عند المسيحيين من كلِّ الفِرَق، واليهود والبراهمة، والبوذيّين، وعَبَدة النار، وبالاختصار لدَى كلِّ الوثنيين. والفلاسفة بدَورهم على اختلاف آرائهم، لهم وجهات نظرهم المتبايِنة، بعضهم يعتقد بوجود خالق واحد، وبعضهم بآلهة متعدِّدة، وبعضهم يُنكر وجود الله، وأنّ كلَّ ما هو موجود حاصلٌ بالصُّدفة.

لقد بدأتُ أتفهَّم بشكل أفضل، وتدريجيًّا، سُمُوَّ حكمة رجال الدين الإسماعيليين. الحقيقة تبدو عصيَّة علينا، الحقيقة بالنسبة لنا غير واضحة. ما هو السُّلوك الذي يقتضي اعتماده؟

بالنسبة لمن أدرك أنّه لا يسعُنا بُلوغ الحقيقـة، أو بالنـسبة لمـن لا يـؤمن بـأيّ شيء. فكُلُّ شيء مُباح، ويمكنه بارتياح اتّباع نزواته ورغباته. هل ثَمَّة طريق آخر يَفتَح أمامنا الفَهم الحَقّ؟ هذا كان حافزي للدراسة بالاستعلام عن كلّ شيء.

زُرتُ بغداد، البصرة، الإسكندرية والقاهرة. تعمَّقـت في كـلّ ميـادين المعرفة وفي كلّ العلوم: الرياضيّات، علم الفلك، الفلسفة ودرست اللُّغات الأجنبية، وتعرَّفت إلى أخـلاق الـشعوب المختلفـة وعـاداتهم ومـستوياتهم الفكريّة، فتبيّن لي بعد كلّ هذا، أنّ القضيَّة الإسـماعيلية أصـبحت الأقـرب إليَّ. كنتُ شاباً آنذاك وبدأت أتألَّم لكون القِسم الأكبر من الناس على خطـأ، يتأثرون بتُرَّهاتٍ حمقاء، وتطيب لهم الأكاذيب. لذلك بـدا لي أنّ واجبـي في هذه الدنيا أنْ أُباشر ببذر بـذور الحقيقـة، وأن أفـتح عيـون النـاس وأُحـرِّرَ الإنسانية من أوهامها، وأُنقذها من الدجّالين. أصبحت الإسماعيلية بالنسبة لي راية القتال ضدَّ الرياء والخطأ واستـشعرت نفـسي حـاملاً مِـشعَل النـور للإنسانية في مسيرتها العمياء.

إلاّ أنّني أُصِبتُ بالإحبـاط، فـيما بعـد، مـرَّةً أُخـرَى! كـلُّ الأخويَّـات اعتبرتني متحمِّساً للإسماعيلية. وعندما عرضت أمام الرؤساء خطَّتي التـي تقضي بتنوير عقول الشعب، هزُّوا رؤوسهم وتحفَّظـوا عـلى آرائـي، وكنـتُ أحياناً أُطرَد من مجالسهم. تأكّد لي إذ ذاك أنّ هرميّة الحركة حريصة على عدم كشف الحقائق أمـام النـاس، وأنّهـم يرغبـون في تـركهم غـارقين في الخطـأ بدوافع أنانية. لذلك، عمدت في أثناء سفراتي المتكرِّرة إلى التوَجُّه مباشرةً إلى

الناس، وجُموع الشعب، سواءٌ أكان في الأسواق أو في أماكنَ استراحة القوافل أو المزارات. كلَّمتهم وبرهنت لهم أنَّ كلَّ ما يؤمنون به هو خطأ، وأنهم إذا لم يتحرَّروا من هذه الأساطير والأكاذيب سيموتون محرومين من الحقيقة، لكنَّ جهودي راحت عبثاً، وكثيراً ما كنتُ أتعرَّض للقذف بالحصَى وشتَّى أنواع السُّباب والشتائم.

تراءَى لي بعدها أنه ربّما كان من الأنسب أن أتوَجَّه بالكلام لأشخاصٍ معيَّنين. أصغَى بعضهم لآرائي باهتمام، ولكن، ما إن كنت أُنهي كلامي حتى كانوا يبادرون إليَّ بالقول: إنَّهم تراودهم الشكوك حول ما يؤمنون به، إلاّ أنَّهم مع ذلك يرون من الحكمة الإيمان بشيء ما عِوَضاً عن التخبُّط والضياع في الشَّك.

هذه المحاولات أضاعت منِّي وقتاً ثميناً. بخاصّة عندما لمست الفارق الشاسع بيني وبين صديقيَّ العزيزَين اللذَين تسنَّى لهما تجاوُزي بأشواطٍ بعيدة. أحدهما دخل في خدمة أمير سلجوقي ثم ما لبث السلطان «ألب أرسلان» أنْ عيَّنه في البلاط بصفة وزير، أمّا عمر فبات مشهوراً كعالِم فلك ورياضيات، وظلّ نظام المُلك أميناً على عهده السابق فلم يتوانَ عن إمداده بالمال من خزينة الدولة بشكل دوريٍّ سنويّ.

ذات يوم عزمت على زيارة عُمر في منزله في نيسابور. كان ذلك منذ سنوات عديدة. فاجأت صديقي القديم تائهاً بين الخمر والنساء والكُتب. لم يكن حضوري ليُوحي له بالثقة، لكنّ هذا الرجل اللامبالي هبَّ لاستقبالي

قائلاً: «لقد تغيَّرت كثيراً، يُخيَّل لمن يراك أنَّك عائد من الجحيم». عانقني ودعاني لضيافته. استمتعت بالراحة عنده بعد تلك السنوات الطويلة من التَّيهان. أخيراً تذوَّقت الراحة وقيمة الأحاديث الروحية والفكرية التي تبادلناها. قَصَّ كُلٌّ منّا للآخَر ما حصل معه خلال السنوات الطوال، واعترف كلانا باكتشافاته الروحية وتجاربه الشخصية. كانت المفاجأة أننا توصَّلنا كلانا عبر طرائق مختلفة إلى نتائج مدهشة ومتقاربة. موضوع واحد أُشكِل علينا: محدودية المعارف.

قال عُمر: - إنَّ معرفةً كاملةً ونهائيَّةً ضربٌ من المستحيل لأَنَّ حواسَّنا قاصرةٌ، ومع ذلك فهي الوسيلة الوحيدة القائمة بين عقولنا والموجودات من حولنا. وهذا بالتحديد ما أكّده «بيثاغور» وسواه. من أجل ذلك اتَّهمهم الناس بالإلحاد. تلك هي حال العامّة في كلِّ زمان ومكان. الناس يخشَون الشَّكّ ويُفضِّلون الأكاذيب على المعرفة مهما كانت إن لم تكن تستند إلى أساسٍ متين. لا سبيل لتغيير هذا الواقع. من أجل هذا يتحتَّم على مَن يريد أن يكون نبيًّا الاعتماد على الخرافات والأباطيل. لذلك تجد العاقل ينأى عنهم. محمد كان يريد الخير للجميع، أجل، كان يريد لهم الخير، ولكنَّه كان يعلم أنَّ غباءهم غير قابل للعلاج فدفعته شفقته عليهم لوعدهم بالجَنَّة مقابل ما سيعانونه في هذه الدنيا.

- لماذا إذاً بنظرك سمح لآلافٍ من المؤمنين أن يموتوا من أجل عقيدته التي تستند إلى أسطورة؟

- أظنّ أنّه كان يعلم أنّهم سيقاتلون شاؤوا أم أبَوْا لأسبابٍ أُخرَى أكثر تفاهةً، فأراد أن يحقّق لهم قسطاً من السعادة في هذه الدنيا. من أجل هذا استنبط موضوع لقائه بالملاك جبرائيل ومكالمته إياه، ولولا ذلك، لم يكن لأحدٍ أن يصدُقه القول، وأن يعِدَهم بالثروات وكلّ المباهج بعد الموت، الأمر الذي حوّلهم إلى رجالٍ أشدّاءَ لا يُقهرون.

- يبدو لي، تابع قائلاً، بعد قليلٍ من التفكير، ما من أحدٍ اليوم على استعداد للاقتناع بمحض إردته بالموت لقاء دخول الجنة. لقد تغيّرت الشعوب وفكرة الجنّة آخذةٌ بالتضاؤل في عقول الناس، ولم تعُد تثير الحماس كما في السابق.

- هل تظنُّ إذاً، أنّ أيَّ نبيٍّ في أيّامنا هذه يعِدُ الناس بالجنّة لن يلقَى وعدُه أيَّ قسطٍ من النجاح؟

ضحك عُمر وقال:

- بالتأكيد إنّ الناس راضون بما هو كائنٌ وموجود، وإذا لم يكن هذا النبيُّ يملك المفتاح الذي يتيح له فتح باب الجنّة لمن يريد، فلا حَظّ أمامه ليكون نبيًّا.

أذهلتني هذه الفكرة الجديدة التي أشار إليها عمر، عندما قالها لامست أعماق نفسي. أجَل إنّ الشعوب تحبّ الأساطير وتصدّق التُّرّهات. في هذه اللحظة بالذات، تولّد في ذهني مخطّط كبير واسع لم يشهد له العالَم مثيلاً! أستخدم الغباء البشريّ إلى أقصى الحدود بُغية بلوغ قمّة القوّة، تجسيد

الأسطورة وتحويل الخرافة إلى حقيقة، القيام بتجربةٍ كبيرةٍ مع الإنسان.

أبعد الصّبَّاح مريام وهبَّ واقفاً بعصبيّة ظاهرة، ثم راح يعدو كالمسعور حول الحوض القائم في وسط المقصورة. بدَت عليه في تلك اللحظات ملامح أقرب إلى الشيطانية، أقرب إلى الجنون.

بصوت خافتٍ سألته مريام:

- وماذا فعلت بعد ذلك؟

توقّف «الحسن» فجأةً؛ تمالك نفسه وبدَت على شفتيه ابتسامةٌ ممزوجةٌ بالسخرية والبلاهة.

- ما فعلتُه بعد ذلك، أنّني درست وفتّشت عن إمكانيّة تحقيق الأسطورة، وجئت أخيراً إلى «آلاموت Alamut». أصبحت الأسطورة حقيقة؛ أُنشئَت الجنّة وهي لا تنتظر إلاّ زوّارها.

نظرت إليه مريام مذهولة وقالت بهدوء:

- ربّما أنت كما تصوّرتُك..

ضحك «الحسن» بتكلُّف وقال:

- مَن أكون إذاً؟ اسمحي لي أنْ أعبّر عن نفسي بطريقة رمزية بعض الشيء. أنا حالمٌ مُرعب! ثم أطلق ضحكة مدوّية غريبة.

الآن، أصبحتِ على علمٍ بمقاصدي، حان الوقت لأُعطيَك تعليمات

دقيقة. اعلمي أنّ مَن يُفشي الأسرار أمام الزائرين سوف تُقطَّع أوصاله على الفور كائناً مَن كان. أظنُّك فهِمتِ ما أقول، عليك إبلاغ الفتيات بشكلٍ واضح أنّه لأسباب عُليا عليهنّ التصرُّف كأنّهُنَّ في الجَنَّة فعلاً. هذا دورك الآن، استعدّي وكوني في انتظاري مجدَّداً غداً مساءً. عِمْتِ مساءً. عانقها بحنان، ثم غادر مسرعاً.

على الضّفّة، عديّ على أُهبة الاستعداد. صعد الصّبّاح إلى القارب وقال له بصوت خافت:

- «إلى «أباما».

صديقته العجوز في انتظاره في مقصورة أُخرَى. أرهفت السمع وعلمت بقدومه. اقترب الزائر فتوقّفت بكلِّ خيلاء وتقدَّمت نحو المدخل.

عندما لمحها الصّباح وجد صعوبة في كبت ضحكة ساخرة، بدَت في أفضل حال. لقد اكتست أجمل لباسها وتزيَّنت بأجمل حُلاها، لقد تعرَّف «الحسن» إليها منذ ما يقارب الثلاثين عاماً خلال أحد الاحتفالات لدَى أحد أُمراء الشرق؛ ولكن شتّان ما بين «أباما» في تلك الأيام و«أباما» اليوم. إنَّه يحتفظ في ذاكرته بمنظر فتاةٍ ذات ساقَين جميلتين بامتلاء واستقامة، بينما هي الآن هيكل مغطًّى ببعض الجلد. قبّلت بسرعة يد مضيفها ودَعَته للجلوس ثمّ توجّهت إليه معاتبةً:

- إنّك قادِمٌ مِن لدُنها، في الماضي لم تكن تترك فرصةً للجلوس.

- دَعينا من هذا، استدعيتك لأشياءَ مُهمّة، هل كلُّ شيءٍ جاهز؟

- كلُّ شيءٍ كما أمرت.

- سوف نستقبل ضيوفاً في الحدائق، آمُل أن تكوني عند حسن ظنّي.

- بالنسبة لهذا الأمر، كُن مطمئنّاً.

- كيف حالُ المدرسة؟

- كلُّ شيءٍ على ما يرام.

- حسناً..

- أظنُّ أنّه من واجبي أنْ أُلفِتَكَ إلى نقطةٍ معيَّنة. لا يبـدو أنَّ «عبيـدكَ» يمكن الركون إليهم.

- أجاب «الحسن» ضاحكاً:

- هذه أغنيةٌ مكرَّرة، ألا تعرفين سواها؟

- لا أقصد بذلك أنّه لا يسعُنا الوثوق بهم والاعتماد عليهم، لا أقـصد ذلك، ولكنّي أشكُّ في أنّ بعضهم لا يزال يحتفظ ببعض رجولته.

غمر السرور «الحسن» فقال:

- هل اختبرت ذلك؟.

شعرت بالإهانة وأجابته: مع هكذا كلاب؟

- لماذا تشيرين إلى ذلك الآن؟

- إنهم يطوفون حول الفتيات بشكل ظاهر ولا يتجنَّبون لقائي.

- ماذا تقصدين بذلك؟

- منذ مدّة أظهر لي مصطفَى شيئاً ما عن بعد!.

امتعض «الحسن» وابتسم ثم أجاب:

- لا تكوني غبيّة، أنتِ عجوز ولم يفعل ذلك إلاّ هُزءاً منك، أتظنّين أنّك ما زلتِ تثيرين الشهوة؟

- إنَّك تحقِّرني بهذا الكلام، فليفسدوا الفتيات إذاً!...

- هل هم قادرون على أكثر من ذلك؟

- ثمّة واحدة تثير لديك التحسُّر على الأيام الخوالي.

- دَعكِ من هذا، أما تَرَين أنِّي أصبحت عجوزاً؟

- ليس للحدّ الذي يمنعك من أن تتعرَّض للغواية.

- إذا كان الأمر كذلك، فما عليك إلاّ توجيه التهاني إليّ. للأسف، أشعُر بنفسي قد أصبحت أشبه ببركان خامد.

- لا تنخدعنَّ بذلك، في سنِّك تحتاج إلى شيء أكثر نضجاً.

- «أباما»، «طبعاً»! يا عزيزتي العجوز، الحُبُّ كالشِّواء، كلَّما تقادمت الأسنان، كلَّما احتجنا إلى نعجةٍ أكثر فتوَّة.

عندها، ترقرقت الدُّموع من عينيْ أباما، ثم تمالكت نفسها وقالت بعصبيّة ظاهرة.

- لماذا إذاً تتمسَّكُ بواحدةٍ لا تحيد عنها؟ ألا تعلم أنَّ الحكمة تقضي بالمعاشرة المتكرِّرة، بها يبقَى الرجل متمكِّناً قادراً على الدَّوام، والنبيُّ نفسه كان الأنموذج والمثال. منذ مدّة شاهدت إحدَى فتياتنا وقد لفَتَتني قوامها وجمالها وتذكّرتك، إنَّها في الرابعة عشرة من عمرها.

- اسمها حليمة، أعرف، أعرف، لقد أخذتها بين ذراعيّ قبل أن تشاهديها. هل تدرين أنّني شخصيًّا أسلمتها إلى عديّ يوم وصولها.

- قل لي، ماذا يجذبك إليها؟

- لا أعلم، ربّما قرابةٌ عاطفية بعيدة.

- هل تقول هذا لإهانتي؟

- كلا، على الإطلاق، عزيزتي «أباما»، ولّت الأيام، ثلاثون عاماً مضت، فمك أضحى بلا أسنان، وعظامك ناحلة، وبشرتك جفّ ماؤها.

- وهل تظنُّ نفسك أفضَلَ حالاً منّي؟

- ليس بيننا إلاّ هذا الفارق، أنا عجوز ومتكيِّف مع واقعي، وأنت عجوز ترفضين واقعك.

قرّر «الحسن» إقفال هذا الحديث فقال بكلّ جدّيّة:

- عليكِ تحضير المقصورات تمهيداً لاستقبال الضيوف الذين سأرسلهم. احرصي على النظافة التامّة وراقبي ثرثرة الفتيات. غداً مساءً كوني في انتظاري هنا، وسأعطيك التوجيهات التفصيلية. هل لديك رغبة ما؟

- أبداً، أيُّها المعلّم، أشكرك.

- طابت ليلتك.

عادت مريام إلى غرفتها مُثقلَةً بالهموم. ما حدَّثها به الصَّباح أرهقها وشعرت برغبةٍ لتبادل الحديث مع إنسان لا يلوِّثه الخُبثُ والمكر. تقدَّمت من سرير حليمة ونظرت إليها في الظُّلمة. تراءَى لها أنّ الفتاة تتظاهر بالنَّوم.

- حليمة، همست وهي تتّكئ على طرف السرير. دعك من هذا، أنا أعلم أنّك تتظاهرين بالنّوم، انظري إليّ.

فتحت حليمة عينيها، وأزاحت الغطاء كاشفةً عن صدرها البَضّ:

- ماذا هناك؟ قالت خائفة.

- هل يسعُك السكوت؟

- أجل، مريام.

- إذا ما علم «الحسن» أنّي أكلّمك، فسوف يقطع رأسينا. جيش السلطان يحاصر القلعة.

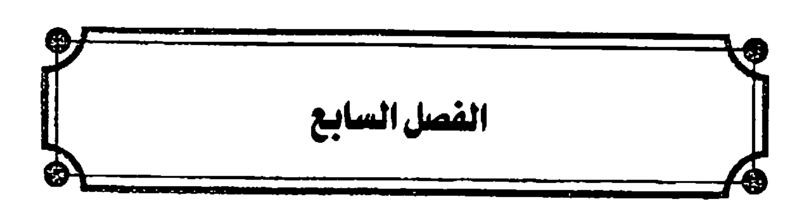
أطلقت حليمة صرخةً، وقالت:

- ماذا سيحلُّ بنا؟

- اصمتي، سوف يهتمّ سيّدنا بنا، مِن الآن فصاعداً، سيعاقب كلُّ مَن يخالف القوانين بالموت. ثمّة استحقاقات قاسية بانتظارنا، يجب أن تكوني على علمٍ بذلك، إيّاك أن تبوحي لأيٍّ كان إذا ما سُئلتِ مَن نحن وأين نقيم. ثم قبّلتها في خدّيها وقصدت سريرها.

تلك الليلة لم تعرف مريام وحليمة طعم النوم. انتاب مريام شعور بأنّ الجبال سوف تهوي على رأسها، وأنّ العالَمَ كلّه على حدّ سكّين قاطع. لا أحد يعلم إلى أيّ جانب سنصبح في المقبل من الأيام.

* * *



الفصل السابع

عند بزوغ الفجر، امتطَى التلامذة خيولهم وخرجوا من القلعة برفقة أساتذتهم. ولدَى وصولهم إلى الوادي، أوقفهم النقيب عند سفح أحد المنحدَرات. التلامذة في توتُّر شديد انعكس على مطاياهم التي راحت تصهُل. بعد قليل انضمَّ إليهم «أبو علي» فوق حصانه مصحوباً بـ«الدّاي إبراهيم». تبادل بضع كلمات مع النقيب ثم انطلق إلى قمَّة الأكمة.

بأمرٍ من النقيب، انطلق التلامذة بخيولهم الهيدبا في خطَّين متعاكسَين، ثم نفَّذوا حركاتٍ صعبة ومعقّدة، يهاجمون حيناً ويتراجعون أُخرَى، في صفوف متراصّة وفي نظام تامّ.

من أعلَى الأكمة، ومن فوق مطيّته تابع «أبو علي» الاختبارات وشارك سائر الدّايات ملاحظاتهم.

- لقد أتقن النقيب تدريبهم، لا أُنكر ذلك، ولكنِّي أتساءل إذا كان الأُسلوب التُّركي في القتال يتلاءم مع مناطقنا الجبلية. في الماضي كنّا نهاجم فُرادَى فنقضي على كلِّ مَن يقف أمام سيُوفنا، ثمّ نتفرَّق بطرفة عين، بعد هجومين أو ثلاثة من هذا النوع لا يعود للعدُوِّ أيُّ أثر.

في التمرين التالي، عندما غيّر الشُّبّان أسلوب هجومهم وواجه كلٌّ واحدٍ منفرداً خصمه بحركاتٍ سريعة مُتقَنة، الْتمعت عيناه بالرِّضَى والاستحسان. ترجَّل عن جواده، وخطا بضع خطواتٍ إلى أسفل الهضبة ممسكاً بيده زمام فرسه، ثم مدَّ على الأرض في الظِّلِّ بساطاً واقعده وحوله باقي الدّايات.

أصدر النقيب أمراً جديداً، فقفز التلامذة عن صهوات خيولهم ثم خلعوا أرديتهم باستثناء لباسٍ خفيفٍ من الزَّرَد. تركوا سيوفهم وتناولوا الدروع والرِّماح فأوْحُوا بمظهرهم أنَّهم مقاتلون مُشاة بقدْر ما هُم فرسان صناديد.

ركّز التلامذة أهدافاً على مسافةٍ محدَّدةٍ، وباشروا الرماية بالسِّهام. من بين عشر رشقات أصاب كلٌّ من «ابن طاهر» وسليمان تسعة، أمّا الباقون فكانت نتائجهم دون ذلك بقليل.

بعد ذلك، ابتدأ اختبار في رمي الرِّماح. أخذ الحماس من التلامذة كلَّ مأخذ، وبدأ التنافس بينهم على أشُدِّه، كُلٌّ واحدٍ يسعَى لأن يفوز بفرس الرِّهان.

بعد ذلك، باشروا المبارزة بالسيوف. تغلَّب «ابن طاهر» على عبيدة ثم على «ابن وقّاص»، ولكنه لم يستطِع الثبات لهجوم يوسف، أمّا سليمان فقد أقصَى من الساحة منافسيه الواحد تِلْوَ الآخَر، وأخيراً وجد نفسه وجهاً لوجه أمام يوسُف.

- الآن، أظهِر لنا أيَّ بطلٍ أنت، صاح سليمان متحدِّياً.

الْتحم المقاتلان في مبارَزةٍ حامية كادت أن تسبِّب أذًى لكليهما، فأراد النقيب إيقافهما عند الحدّ الذي وصلت إليه، لكنّ «أبو علي» أومأ إليه بتركهما وشأنهما. مجدَّداً الْتحم المقاتلان، وعلى وقع صليل السيوف اشتبك الاثنان في مبارزة ضارية انتهت بجرح يوسُف في صدره فهتف التلامذة وحيَّوْا المنتصر. هنا، نهض أبو علي وتناول من أحد حرّاسه درعه وسيفه ودعا سليمان لمبارزته. اتّجهت الأنظار إليهما، أبو علي رجل عجوز قياساً إلى سليمان، ويستحيل عليه الثبات أمام خصمه. بدا القلق على سليمان، فتوجَّه بنظره إلى النقيب متسائلاً:

- نفِّذ الأمر، صاح النقيب.

أخذ كلٌّ منهما موقعه، واستعدّ سليمان للهجوم، لكنَّه قبل أن يهُمَّ بأيّة حركة وجد سيفه قد أفلت من يده. علت صيحة من الإعجاب صفوف الجميع في حين راح أبو علي يبتسم بهُزء:

- هل تريد أن تحاول مرَّةً أخرَى؟

استعدّ سليمان هذه المرّة بكلِّ جدِّيّة، والْتحم الخصمان، سليمان يضرب بكلِّ قوّة والعجوز يتصدّى بكلِّ مهارةٍ للضربات المتلاحقة، ومرّة ثانية أسقط العجوز السيف من قبضة خصمه. علَت وجه أبو علي ابتسامة الرِّضى، فأعاد الدرع والسيف لحارسه، وقال لخصمه:

- سوف تصبح مقاتلاً ماهراً، عزيزي سليمان، إنَّما عليك الانتظار

طويلاً ليتسنّى لك خوض عدد كبير من المعارك، ثمّ أشار إلى النقيب مُبدِياً رضاه عن الاختبار، وتوجّه إلى التلامذة المنتظِمين في صفَّين متراصَّين:

- سوف تُظهِرون لنا مدَى التقدُّم الذي حققتموه في مجال ترويض الإرادة. أستاذكم «أبو مالك» غائب في رحلة، سوف أتولّى الأمر بالنيابة عنه.

تسمَّر التلامذة وُقوفاً في أماكنهم، وببرودة تامّةٍ أمرهم بكتم أنفاسهم. علا الضِّيقُ وجه الجميع واختنقت وُجوههم وجحظت عيونهم وتراخت أطرافهم، ثم ما لبثوا، بعد أن استنفذوا كامل قدراتهم، أن بدأوا يتهاوَون الواحد تِلو الآخر، ثلاثة منهم استمرّوا ثابتين: يوسف، سليمان وابن طاهر. فجأةً، هوَى يوسف، وبعد قليل تبعه سليمان وأخيراً ترنّح «ابن طاهر» قليلاً، ثم ما عتم أن انضمّ إلى رفيقيه.

عندما همّ «أبو علي» بالانتقال لإجراء اختبار آخَر، وصل مِن القلعة رسول مسرعاً على جواده ودعاه للمثول على الفور أمام الرئيس الأعلَى، فقرَّر متابعة الاختبارات في الثكنة بعد الظهر. أصدر أبو علي أمراً بالعودة، فامتطَى الجميع خيولهم وتوجَّهوا بانتظام إلى القلعة.

بعد وقت قصير من مغادرة التلامذة للقلعة لإجراء اختباراتهم، لاحظ الخفير القائم بالخدمة في بُرج المراقبة حمامةً غريبةً تحوِّم حول برج الحمام. على الفور أفاد المسؤول عن الرسائل فسارع هذا إلى السطح مجهَّزاً بسهم خاص.

لكنَّ الطَّيرب ما لبث أن هدأ وحطّ على الشُّرفة فالتقطه الموظَّف المسؤول وعثر في قائمته على لُفافةٍ من الحرير، فكّ رباطها وسلَّم الحمامة لأحد مساعديه ثم هرول مسرعاً إلى الرئيس.

فضَّ الرئيس اللُّفافة وقرأ:

«إلى «الحسن» بن الصَّباح زعيم الإسماعيليين، تحيَّةً! إنّ أمير همدان أرسلان طاش قد هاجمنا على رأس جيش كبير، استسلمت القلاع الواقعة غربي النهر. نجد صعوبةً في صدّ هجوم فرسانه التي تتابع مسيرها نحو آلاموت.. بانتظار أوامرك. التوقيع: «بوزرك أميد».

ابتسم الرئيس وبدا عليه الهدوء وقال متحسِّراً:

- حبّذا لو كان الفتيان قد تمّ تكريسهم سابقاً!

أخذ الرئيس من صندوقٍ بقربه لفافةً من الحرير شبيهةً بالتي حملتها في قائمتها. ووجَّه رسالةً إلى «بوزرك» يأمره فيها بالتوجّه فوراً إلى آلاموت. ما إنْ همَّ بربط اللُّفافة إلى قائمةِ أحد الطيور الزاجلة حتى وصل حارس آخر ناقلاً رسالة جديدة. فضّ «الحسن» الرسالة فقرأ فيها:

«إلى «الحسن» بن الصَّباح زعيم الإسماعيليين، تحيّة وبعد، يتّجه نحوكم الآن «كيزيل سارك» بكلِّ قواته من «خراسان وخوزستان». استسلمت القلاع الصغيرة، والْتجأ الأتباع إلينا في «زورغامبادان». العدوّ يحاصرنا،

الموادّ الغذائية في تناقُص. أُعطِيَت الأوامر بالثبات، ولكنّ ابنك حسين أقنع أتباعنا بتسليم القلعة لقوّات السلطان لقاء ضمان سلامتهم. بانتظار أوامركم.

التوقيع

«حسين الكاييني»

امتقع وجه «الحسن»، وانتابته سَوْرةٌ من الغضب، وراح يصرخ:

- أيُّها الابن المجرم، سأرميك في جهنّم، سأخنقك بيديّ هاتين!

عندما مثُل الدّاي الكبير أمامه، اكتفَى بعرض الرّسالتين عليه من دون أيِّ تعليق، فقرأهما أبوعلي باهتمام بالغ.

- لا أظُنُّ أنّ ثمّة أيّة فرصة لإنقاذ القلعتين، قال أبو علي، ولكنَّك قلت إنَّك حبكت مكيدةً فعّالة وأنا أثق بك.

- رائع! أجاب «الحسن»، سوف أبعث برسائلَ مع توجيهاتي إلى القلاع المحاصَرة وسأطلب أن يُلقَى ابني الخائن في السجن، وعلى الباقين أن يثبتوا حتى النهاية.

فور دخوله إلى جناحه، توجّه الى كبار الدّايات بالقول:

- يجب تكريس التلاميذ على الفور، إنّهم الصخرة التي سوف أُشيد فوقها قوّتي، كيف سارت الاختبارات؟

- أنا مسرورٌ منهم، أجاب أبو علي، لقد صنع منهم النقيب وأبو مالك جنوداً أشدَّاء.

استؤنفت الاختبارات بعد صلاة الظهيرة. الأساتذة والطلاّب مجتمعون في القاعة الكبرَى. لدَى وصول أبو علي بُوشرت الاختبارات الشفهية. لاحظ الجميع تغيُّراً طرأ على الدّاي الكبير. منذ أن جلس على الأرائك المصفوفة على امتداد الجدار، لا يظهر عليه الاهتمام والإصغاء لأجوبة التلامذة بل يبدو شارد الذهن، مشتّت التفكير.

طُرحت على التلامذة تباعاً أسئلةٌ متعلِّقة بتاريخ الإسماعيلية بكلِّ تفاصيلها، منهم مَن لاقت أجوبتهم الرِّضَى والاستحسان، ومنهم مَن لم يكن بالمستوَى المطلوب.

حلَّ الآن دور الحكيم.. إنّه يعرف أنّ «أبو علي» لا يحبِّذ كثيراً وجهات نظره حول الإنسان عموماً. أحسن التلامذة جميعهم في كلِّ الموادّ المتعلِّقة بالجغرافيا والقواعد والحساب والشِّعر. توقَّف الدّاي الكبير أمام مادّة أُصول العقيدة التي يعوِّل عليها أهمّية كبرَى. طرح على التلامذة أسئلةً واضحةً سهلةً فأجابوا غالبيّتهم بشكلٍ مُرضٍ.

- الآن سننتقل إلى أسئلةٍ تحتاج إلى بعض الفطنة والتحليل. توجّه إلى يوسف طالباً إليه أن يجيب عن سؤاله: مَن هو أقرب إلى الله، النبيُّ أم الملاك جبريل؟

نهض يوسف ولم يُحسن الإجابة، وكذلك الطُّلاّب الجالسون بقُربه. بعضهم يرَى النبيّ هو الأقرب، وبعضهم يرَى الملاك جبريل، ولكنَّ أحداً منهم لم يقدِّم حُجّةً صلبةً تدعم رأيه.

ضحك أبو علي بخُبثٍ قائلاً:

- أظُنُّ «ابن طاهر» سوف يحسم الموضوع.

نهض «ابن طاهر» وأجاب بصوت هادئ:

- أرسل الله الملاك جبريل شخصيًّا ليؤدّي إلى محمّد رسالته السماويّة، ولو كان الله ليس بنيَّته تمييز محمّد عن الجميع لكان اكتفَى بتكليف جبريل مباشرةً بهذه المَهمّة، وكونه لم يفعل ذلك، فهذا يعني أنّه اختصّ محمَّداً بدَوْر فريد، وهذا يدُلّ على أنّ محمَّداً يحتلُّ في الجَنّة مقاماً أسمَى من مقام جبريل.

- هذا الجواب الصحيح، وافقه أبو علي. الآن، اشرح لنا هذه النقطة: كيف ترَى المقارنة بين سيِّدنا والنبيّ؟

ابتسم «ابن طاهر»، فكّر قليلاً، ثم أجاب:

- بين النبيّ وسيِّدنا، ما بين البِكر والثاني من الأخوة.

- لا بأس، مَن منهما يمارس تأثيراً أكبر على أتباعه؟

- سيِّدنا، لأنَّه يملك مفتاح الجنّة.

نهض أبو علي ووقف الجميع، وبعد أن تفرَّس في وجوه التلاميذ واحداً تِلوَ الآخر توجَّه إليهم بصوتٍ وَقور:

- بإمكانكم التوجُّه إلى الحمّامات، ومِن ثَمَّ ارتداء ملابس التكريس. كونوا سعداء، اقتربت اللحظة الحاسمة في حياتكم. عند موعد الصلاة الخامسة ستكرَّسون جميعكم فدائيّين.

انحنَى قليلاً مبتسماً وغادر القاعة بخُطًى سريعةً.

بعد قليل، وصل رسولٌ من الرَّيّ وأعلم الصّباح أنّ خيّالة الدعم المُوفَدة من «مظفّر» في طريقها إلى القلعة، ويُتوَقَّع وصولها خلال الليل. بعد قليل أفاد أحد العملاء السرِّيِّين أنّ الطلائع التُّركية تتقدَّم بخطوات سريعة، ويمكنها بلوغ القلعة في أواخر الليل وبالتأكيد عند الفجر. استدعَى «الحسن» على الفور «أبوعلي» والنقيب «مينوشهر» وأحاطهما علماً بما توافر لديه من معلومات، ثم بسط على الأرض خريطة كبيرة وانكبّ ثلاثتهم على دراسة الموقف وتقدير أفضل الفرص تسمح لهم بالثبات والمقاومة، واستناداً إلى ذلك اتّخذ «الحسن» سلسلةً من التدابير وأصدر أوامره بتنفيذها فوراً، ثم طلب المباشرة بحفل تكريس الطُّلاّب. من أجل ذلك أعطَى «أبوعلي» نَصّ القَسَم المُفترَض تأديَته في أثناء الحفل، وألحَّ عليه بوجوب إجراء التكريس في جوٍّ من الجدِّيّة والوقار، وأن يتحدّث الدَّاي إلى المتخرِّجين عن أهمّية التضحية والبطولة لدَى الشهداء، وأن يثير في نفوسهم حيوِيَّتهم ومشاعر الفتوّة فيهم. في الوقت نفسه، طلب إليهم أن يهدِّدهم بعقوبات مُرعبةٍ إذا لم يلتزموا الطاعة العمياء. سنوات عديدة مَضَت وأنا أحلُم بتنشئة أتباعٍ وفق مفاهيمي، فأُعيد صياغة طبيعتهم وتغيير مفاهيمهم كي أستطيع أن أشيِّد قدرتي وإمكاناتي وإمكانات مؤسَّستي على أساسٍ صُلب متين. أخيراً تحقَّق الحُلم!..

- أنت تعلم كم أعتزُّ بحكمتك، قال «أبو علي»، ولكنّي أظنّ من الأنسب أن تترأَّس شخصيًّا هذا الاحتفال. إنَّهم يتلهَّفون لمشاهدتك منذ زمنٍ كي يشعُروا أنَّك رجلٌ حيٌّ وليس فقط قوّة غير مرئية عليهم طاعتها.

- صحيح ما تقول، ولكنّي لن أحضر، أجابه «الحسن»، ثم غرق في التأمُّل والتَّفكير وعيناه جامدتان لا تبرحان الأرض، عقّب بعدها بالقول:

- أنا أعرف تماماً ما أفعل، عندما تريد استخدام الرجال، أعني استخدامهم كوسائل، مجرَّد وسائل، يُستحسَن اجتناب التقرُّب منهم. في اللحظة الحاسمة، لحظة القرارات النهائية، ينبغي أن تكون حُرًّا مستقلاً من دون عاطفة. سأشرح لك كلَّ شيءٍ عند وصول «بوزرك يوميد». العَلَم الذي ستقدِّمه للفدائيين جاهز، اذهب ونفِّذ ما أمرتك به. هذا التكريس بنظري هو أكثر أهمّية من انتصارك على التُّرك.

هذه الليلة تحوَّلت قاعة الاجتماعات في قصر الرئيس الأعلَى إلى قاعةٍ للصلاة. إنَّها المرَّة الأُولَى التي يُسمَح فيها للتلامذة بدخول هذا القِسم من القلعة. تمّ تشديد الحراسة حول المبنَى لهذه المناسبة. عندما وجد التلامذة أنفسهم في القاعة بمفردهم شعروا ببعض الانقباض، لبسوا جميعهم جلابيب بيضاء وطرابيش طويلة من اللون نفسه، أمّا أقدامهم فعاريةٌ تنفيذاً للأوامر الصادرة إليهم.

بعد قليل، أُعلن موعد الصلاة الأخيرة. أطلَّ «أبو علي» بجلبابه الأبيض وطربوشه من اللون نفسه، فاجتاز القاعة واتّخذ مكانه أمام التلاميذ، في حين انتظم خلفه في صَفَّين بقيّة الرؤساء وابتدأ الحفل.

في البداية، أَمَّ «أبو علي» المجتمِعين وبدأ يتلُو الآيات بنبرةٍ يُتقنها في مثل هذه المناسبات، ثم الْتفت نحو التلاميذ وشرع يشرح لهم مغزَى التكريس

الذي سيعيشونه هذا المساء. حدَّثهم عن سعادة الشُّهداء ونُبل الأنموذج الذي سيقدِّمونه لسواهم والذي يجب أن يشكِّلَ هدفهم الأسمَى.

- حانت اللحظة الحاسمة في حياتكم، سوف تصبحون مجموعةً من النُّخبة، أيْ فدائيِّين جاهزين للتضحية من أجل القضيّة المقدَّسة، أنتم اثنا عشر شاباً، الوحيدون بين مئات آلاف الأتباع الذي سيُمنَحون هذا الشرف. إنّ ساعة الامتحان باتت قريبةً وعليكم أن تُثبِتوا بسلاحكم قوّة إيمانكم ومدَى تفانيكم في سبيل سيِّدنا.. العدُوُّ يقترب من «آلاموت Alamut». هل ثمّة أحدٌ بينكم على استعدادٍ لأن يُوصَم بالتخاذُل والخيانة ليستحقّ لعنة الموت؟ لا أظُنُّ بينكم مثل هذا أو ذاك. لقد تدخَّلت لدَى سيِّدنا لتكريسكم جميعاً وتقبَّل رجائي، ولا إخالُكم ستكونون إلاّ صدًى طيِّباً لكرَمه وثقته.

بِاسمه أُكرِّسكم فدائيِّين جميعاً! سوف أقرأ عليكم نَصَّ القَسم الذي يرسِّخ الْتزامكم وسوف تردِّدون معي كلماته. عندما ستُقسمون ستشعرون بتحوُّلٍ كبير في ذواتكم؛ بعدها لن تعودوا تلاميذ بل ستُصبحون الذّائدين بامتياز عن معلِّمنا. أصغُوا الآن وردِّدوا معي كلَّ كلمة!.

فتح يديه الكبيرتين ورفع نظره إلى الأعلَى وبصوت وَقور مُشبَعٍ بالإيمان هتف:

- قَسماً بالله، بمحمَّدٍ نبيِّه، بعليٍّ وبكلِّ الشُّهداء، أُعلن الْتزامي من دون تردُّد بتنفيذ أيِّ أمرٍ صادر عن معلِّمنا أو ممثِّله، وأتعهّد بالدفاع عن عَلَم

الإسماعيلية الأبيض طوال حياتي وحتى مماتي.

بهذا الالتزام، أتلقَّى تكريسي فدائيًّا، ولا أحد سوَى سيِّدنا بإمكانه تجريدي منه. صدق الله ورسوله، تعالَ إلينا أيُّها المهديّ.

أشار «أبو علي» إلى الدَّاي إبراهيم فسلَّمه الراية؛ نشرها أمام الجميع فشوهد على صفحتها الناصعة البياض آيةً من إحدَى سُوَر القرآن مخطوطةً بماءِ الذّهب.

- تقدَّمْ يا «ابن طاهر»، أنتَ أوّل الدُّفعة، إنّي أضع الرّاية بين يديك، فلتكن رمزاً لشرفك وكبريائك. إذا ما قُدِّر للعدُوِّ أن يدوسها بقدميه فهو بذلك إنّما يدوس شرفك وعزَّتك، حافظ عليها خفّاقةً وذُد عنها بحياتك. اختَرِ الآن خمسةً من زملائك الأشدّاء وسوف يحدِّد القَدَر مَن سيتبعك في حمل هذه الراية. استلَمها «ابن طاهر» ثم عاد وانتصب في مقدَّمة رفاقه.

خلال هذا الوقت، وردت إلى القلعة رسائلُ عديدةٌ، وأُرسلَت أُخرَى. أُحيط عبد الملك عِلماً في الوقت المناسب، فتوجّه مع مُظفَّر إلى حيث يُتوقَّع وُصول الخيّالة الأتراك. تمّ استخدام عددٍ من العملاء للاستعلام عن تحرُّكات العدُوِّ فشكَّلوا سلسلةً متواصلةَ الحلَقات تستطيع تبادُل المعلومات السّرّية بإشاراتٍ مُتَّفَق عليها، جهاز الاستعلام يؤدِّي دوره بشكل رائع.

عندما عاد أبو علي من الحفل هتف الصَّباح مغتبِطاً:

- أخيراً انتهَى الحفل!

بعدها، أمر «الحسن» بحشد القوّات المناسِبة في الوادي كي تكون على استعداد لمواجهة طلائع السلطان.

- ماذا عسانا نفعل بالفدائيّين؟ سأل أبو علي.

- هذه المعركة ستكون ملائمةً لهم، أجاب «الحسن». سوف تصحبهم معك وليكن «أبو سُراقة» في مقدَّمتهم. إحرصْ على سلامتهم!

إنّي أحتفظ بهم من أجل أهدافٍ أسمَى، لا تعرِّضهم لأخطارٍ كبيرة حتى لو أوعزت إليك بأن تعهَد إليهم بمَهامٍّ حسّاسة. دَعْهم يرشقون السِّهامَ الأُولَى، ولْيُبادر الجنود القُدامَى للقتال المتقارب. بالاختصار، جنِّبهم قدْر الإمكان خَوْض غِمار المعركة إلاّ إذا بدا النَّصر مرجَّحاً أو إذا بات الخطر داهماً مؤكَّداً. إذا لاحت الفُرصة مؤاتية، ادفعهم لانتزاع الراية من العدُوّ. أنت الركيزة التي أعتمِد عليها لبناء مستقبلنا المشترَك.

ما كاد «الحسن» ينتهي من إصدار توجيهاته إلى الدّاي الكبير ويأمره بالانصراف، حتى سارع باتّجاه الطريق المؤدّية إلى الحدائق خلف القلعة.

- سِرْ بي إلى مقصورة مريام، ثم اذهب واستحضر أباما. أمر الصّباح «العبد» عديّ.

حضرت مريام، فأعلَمها أنّه أرسل يستدعي أباما.

- منذ البارحة، طرأ تغيُّر على سلوك هذه المرأة، قالت مريام، يُخيَّل إليَّ أنّك أصدرت إليها بعض التوجيهات المحدَّدة.

- ليس الوقت مناسَبةً للشكوَى، حسم الصَّباح الحديث، تُواجهنا الآن مسؤوليات ضخمة، ونحتاج لكلِّ قوانا كي ينجح مخطَّطُنا وننتصر على العدُوّ.

أدخل عديٌّ «أباما» التي رمقت بعينٍ تغشاها الغَيرة أرجاء المقصورة.

- لقد تدبَّرتما غُشًّا جميلاً، قالت أباما باستهزاء!

تظاهر الصَّباح بعدم سماعه تعليق العجوز وقال:

- انطلق «أبو علي» بكلّ القوات لملاقاة جيش السلطان، وهي على وشك محاصرتنا بين لحظة وأُخرَى، قال «الحسن»، ثم دعا المرأتين للجلوس قبل أن يأخذ مكانه بدوره.

أرعب هذا النبأ العجوز وبدأ نظرها يجول بين مريام والحسن.

- ما هو مصيرنا؟ تساءلت بادية الاضطراب.

- لا بأس علينا إذا نُفِّذت أوامري بحرفيّتها، قال «الحسن»، وإن حصل العكس فسنكون جميعاً عُرضةً لمجزرةٍ لم يشهد لها التاريخ مَثيلاً.

- أنا رهن إشارتك سيِّدَنا، قالت «أباما» وهي تسكُب الخمر في الكأس.

- هذا ما أطلبه منك ومن مريام. اسمعا جيِّداً، إنّ الشرط الضروري لنجاح مشروعي يرتكز بشكلٍ أساسيّ على نجاحكما في ترتيب الحدائق بشكلٍ يجعلها تبدو خياليّةً خارقةَ الرَّوعة، وبتعبير آخَر بشكل يجعلها تُوحي

للقلوب الفتيّة البريئة كأنَّها جنّة حقيقية. بالطبع لن يتمّ الأمر في وضح النهار بل خلال الليل، وعلى هذا، يلزَمنا تجهيز الحدائق بإنارةٍ قويّة جداً تُظهِر ما نريد إظهاره، وتُبقي ما عداه في ظلامٍ دامس. لا بدّ أنّك تذكرين القناديل المزركَشةَ الصينيّة التي تُحيل الليل إلى نهار سحريّ. إنّي أطلب إليكما السرعة والاستعانة بالفتيات. يجب أن يكون كلُّ شيءٍ جاهزاً غداً مساءً. على «العبيد» تحضير المآكل والخمرة. آمُل أن يكون لدينا ما يكفي من الخمرة في الأقبية.

– لدينا منها ما يكفي، أجابت «أباما».

– حسناً، غداً عند العصر سأزور الحدائق، سوف أظهر أمام الفتيات لإثارة حماستهنّ ومن أجل إعطائهنّ بنفسي التوجيهات المناسِبة حول طريقة تعاملهنّ مع الضيوف. لن أتحمّل المُزاح. مَن تُبح من الفتيات إنَّها ليست حوريّة وأنّ هذه الحدائق ليست الجنّة الحقيقية سوف تُدان بلا شفقة. لا أظُنُّ أنّه يصعُب عليهنّ لعب هذا الدَّور.

– فلتتخيَّل كُلُّ فتاة أنّها أميرةٌ، علَّقت «أباما».

– في مُطلَق الأحال ينبغي تحضيرُهنّ كي يُحْسِنَّ إتقان هذه الشخصيّة بشكلٍ طبيعيّ، قالت مريام.

– إنّ للتهديد بصرامةِ وقساوةِ العقاب تأثيره الذي لا يُنكر، أكّد «الحسن». بالطبع، يجب أن تكون المقصورات الثلاثة جاهزةً للاستقبال، وعلى الفتيات أن يرتدين ألبِسةً بمنتهى الأناقة، ألبِسةً مُوَشّاة بالحرير والدِّيباج ومُرصَّعةً بالحُلِيّ والجواهر الثمينة.

- لا تقلق سيِّدَنا، سوف نهتمّ بكلّ شيء أنا ومريام.

- عليكما أن تقولا لي الآن كيف عليَّ أن أبدوَ أمام الفتيات لأضمَنَ أقوَى تأثير عليهنّ؟

- عليك أن تبدُوَ بمظهر الملك، أجابت مريام.

- عليك أن تكون مُواكَباً بجَمْع كبير، أردفت أباما.

- باستثناء حرسي ومساعديّ، يجب أن يبقَى الأمر سرِّيًا بكلّيته.

أخيراً همس «الحسن» في أُذُن أباما.

- هل الحمّامات جاهزة... بكلِّ متمّماتها؟

- كلُّ شيء جاهز، سيِّدنا.

- حسناً، غداً صباحاً باشِرا العمل جدِّيًا وكونا مع الفتيات بانتظاري، عمتما مساءً. ثم توجَّه إلى مخرَج الجنائن يواكبه عديّ.

لدَى عودته إلى جناحه، استعرض «الحسن» مرَّةً أُخرَى الوضع بكامله. إنَّه منذ عشرين عاماً يستعِدُّ من دون هوادة لهذه اللحظة. خلال هذه الأعوام الطويلة، لم يُصَب بالإحباط ولم تلِن إرادته. كُلُّ هذا التصميم والعزم والإرادة يهدف لتحويل رغبته المكتومة إلى حقيقة ملموسة.

بعد تفكير طويل، وإعادة النظر بكلِّ التفاصيل خوفاً من إغفال أيِّ شيءٍ ينسف مشروعه، حاول أن يستريح وينام. لكنّ قلَقاً مُرهِقاً يُثقِل

فكره. ماذا لو أصابه الفشل. إنّه يفكّر جدّيًا بهذا الاحتمال ونتائجه. للمرّة الأولَى انتابته الهواجس المُخيفة وأحسّ بالضِّيق. نهض من سريره وصعد إلى أعْلَى البُرج. فوقه السماء الشاسعة الأبعاد تتضافر نجومها، وفي الأسفل هدير السيل، وحوله الحدائق بحياتها الغريبة. هناك في الخارج عند أسوار القلعة ينتظر جيشه وصول طلائع جيش السلطان.

الجميع لهم ملء الثقة فيه، الجميع يخضعون لسلطانه من دون تحفُّظ. هل من المحتمَل أن يشُكَّ أحدٌ إلى أين يقودهم!...

راودته فكرة التراجع والانسحاب من كلِّ ما خطَّط له، ما عليه إلاّ أن يقفز فوق حاجز السُلَّم ليختفِيَ في مياه النهر الكبير «شاه رود». هكذا تتلاشَى مسؤوليته عن كلِّ شيء، ولكنْ ماذا سيحِلُّ برجاله؟ حتماً سوف يُعلِن «أبو علي» أنّ الرئيس الأعلَى قد صعد إلى السماء حيًّا، وأنّه سيُكرَّم هناك شأن الأنبياء؛ لكن ربّما عثروا على جثّته، ماذا سيُقال عندها؟

تملَّكَه إحساسٌ غريب يشُدُّه إلى الأعماق فتمسَّك بالجدار. ألْفَى نفسه يتحمّل معاناةٍ هائلةً، لمقاومة نداء العدم، ولم يبارحه هذا الشُّعور إلاّ لدَى رجوعه إلى غرفته. هناك على سريره أخلد إلى النَّوم وغطَّ في سُباتٍ عميق.

حلِم أنّه في بلاط أصفهان... كعهده منذ عشرين سنة خلَت في قاعة انتظار كبيرة، حوله شخصيّات مُهمّة ومقامات عُليا، السُّلطان «ملك شاه» على عرشه مُستَرخٍ قليلاً يُصغِي إلى تقريره وهو يداعب شاربيه ويحتسي

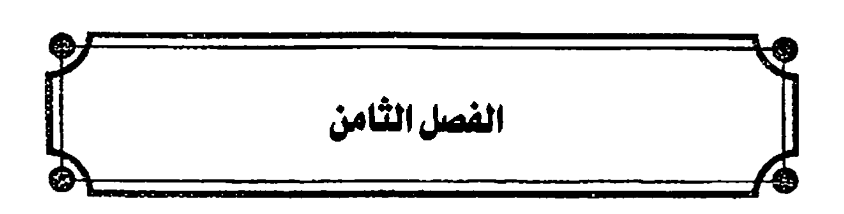
الخمرة، وإلى جانبه الوزير الأول، صديقه القديم، يرمقه بنظرات الغيرة. فجأةً، وفي أثناء قراءة التقرير، رأى صفحات بيضاء خالية، فلم يستطِع المتابَعة، تلعثم وهو يتلفَّظ بعض الكلمات. حدَّق فيه السُّلطان بنظر بارد وقال:

- كفَى، أخرج.

اصطكَّت ركبتاه وسمع ضحكةً جهنَّميَّة تدوّي في أرجاء القاعة. هبَّ من نومه مذعوراً، مبلَّلاً بالعرق، مضطرباً يرتعد خوفاً.

- حمداً لله، همس في سرِّه، لم يكن هذا إلاَّ حُلُماً. استرخَى وأخلد إلى النوم من جديد.





الفصل الثامن

كانت ليلةً مُضاءةً بالنجوم، من تلك الليالي التي يكاد يشعُر المرءُ فيها بنبضات قلب الكون، وحيث يتمازج النسيم البارد الصقيعيّ المُنبعِث من جبل «داماڤان» وبقيّة القمم الحارّة التي تتنفّسها الأرض من تأثير حرارة شمس النهار.

المقاتلون يتقدّمون في المضيق على صهوات خيولهم بخطّ واحد وعلى رأسهم «أبو علي». بين كلّ رهطٍ من المقاتلين يحمل واحد مصباحاً لإنارة الطريق. الفَراش يحوّم حول اللّهيب ويقضي احتراقاً. أوامر الضُّبّاط والعُرَفاء وصيحات الحمّالين وصهيل الخيول تتماهَى كلُّها مع الأصداء في الوادي لتُبعد عن الذِّهن هدير السَّيْل العارم. أقام الفدائيون معسكرهم عند أسفل المنحدر الذي يُغلق مدخل المضيق في مكانٍ مستُور أُحسِن اختياره.. نصبوا خيامهم، نظّموا الحراسة وأوقدوا ناراً. بعيداً عنهم بمائتي متر تقريباً أقام المقاتلون مع خيولهم معسكَراً مؤقّتاً ثم أوقدوا ناراً في حُفرةٍ من الأرض للاستدفاء وطهيِ طعامهم الحصادي، شواءُ ثور كامل.

بعد نهارٍ طويل مجهِد، تدثّر الفدائيون بأغطيتهم باكراً وحاولوا الإخلاد للنوم، بعضهم استغرق في نومٍ عميق، وبعضهم تركوا فراشهم

وتحلَّقوا حول النار شبه الخامدة.

- حمداً لله، لا دروس بعد الآن، قال سليمان متنهِّداً. لا مقارنة بين رصد العدُوِّ ليلاً ومتابعة الدروس والكتابة على الألواح.

يبقَى السؤال أن نعرف ما إذا كان العدُوُّ سيأتي فعلاً، تساءل «ابن وقّاص» بقلق. عندما كانوا تلاميذاً كان أكثرهم هدوءاً، ولكنّه الآن إزاء الخطر الداهم يستشعر نوعاً من الحُمَّى في أوصاله.

- أظُنُّ أنَّ كلَّ جهودنا ستتبدَّد سُدًى، قال يوسف، كلُّ هذه الاستعدادات، كلُّ هذه التحرُّكات ستكون من دون جدْوَى! أظُنّ أنّ التُّرك لن يظهروا.

- مصيرنا مقدَّر في عِلم الله، قال جعفر من دون مبالاة.

- مهما يكن من أمر، إنَّه لمُؤسف جداً، بعد كلِّ هذا العناء الذي قاسيناه في التدريب أن يأتي أوّل متوحِّش ويرسلني إلى الجحيم، قال عبيدة مازحاً.

- الجبان يموت ألف مرّة، والشُّجاع لا يموت إلاّ مرّة واحدة، قال جعفر.

- كُفّوا عن الثرثرة، تدخَّل يوسف، انظروا إلى «ابن طاهر» يتسلَّى بتعداد النجوم، ربّما يعتقد أنّه يراها للمرّة الأُولَى.

ممدَّداً على الأرض تحت غطائه على بُعد خطوات من رفاقه يحدِّق «ابن طاهر» في السماء متأمِّلاً:

- كم غريبة هي حياتي! راح يستذكر سنوات عمره الأُولَى في منزله الأبويّ. كيف كان يسترِق السمع إلى الأحاديث التي كانت تدور بين

الرِّجال المتحلِّقين حول والده، يتنافسون في شرعيّة تـولّي الخليفـة الـسُّلطة، مـستَوْحين مـا ورد في القـرآن، منـدِّدين بالـسُّنّة، يـروون بـصوتٍ خافـت مُعجزات المَهديّ الذي سيكون من عقب عليّ، والذي سـوف يعـود لينقـذ البشرية من الظُّلم والفساد. آه! كم أتُوق أن يرجع وأنا حَـيّ! قالها متنهِّـداً بحماس مُلتهِب.

هذه المناسبات هي بالتحديد التي ألهبت مشاعره وترسّـخت في عقلـه وقلبه فجعلتـه يـرَى في عـليٍّ الأنمـوذج والمثـال اللـذَين عليـه أن يـدانيهما ويقاربهما. كـم اهتـزّ فرحـاً عنـدما أرسـله والـده إلى «آلامـوت Alamut» ليدخل في خدمة سيِّدنا! كان يسمعهم يقولون إنّ الرجل قدِّيس، وبعـضهم يعتبره نبيًّا. ولكن، لماذا لا يظهر على أحـد؟ لمـاذا لم يـترأس شخـصيًّا حفـل تكريسهم فدائيين؟ لماذا أوكَل المَهَمَّة إلى رجلٍ مُسِنٍّ، من دون أسـنان يُـشبه عجوزاً هرِماً أكثر منه مقاتلاً جديراً بهذا الاسم؟

حتى هذه اللحظة لم تطرأ على خاطره فكـرة الـشَّكّ بوجـود سـيِّدنا في القلعة، لكنّه الآن في هذه اللحظة من الاستنارة العقلية تُساوره مخاوف مـن أنه ربّما يعيش أوهاماً، وأنه ليس هنـاك ربّـما وجـود للـصّباح في «آلامـوت Alamut»، أو أن يكون سيِّدنا اختفَى فجأةً مخلِّفاً عرشاً خالياً اسـتولَى عليـه «أبو علي» بالتواطُؤ مع بقيّة الدّايات والمشايخ.

مهما يكن من أمر، يشعر «ابن طـاهر» بغمـوض يلُـفّ القلعـة، وهـذه الليلة يعذِّبه الفُضول أكثر من أيِّ وقت مـضَى. هـل يُكـشَف لـه الحجـاب ويواجه الحقيقة؟ هل يقدِّر له أن يرَى الـصَّباح؟ في هـذه اللحظـات سُـمع

وقع حوافر خيل، تناول سلاحه بحركـة عفويّـة، نهـض ثـم تطلّـع حولـه. زملاؤه ينامون تحت أغطيتهم. وصل رسول للتّوّ، شاهده يـتكلّم مـع «أبـو علي» بصوت خافت. صدر أمر فَوري فأُطفئـت النـيران. لـيس هنـاك مـن شكٌّ في أنّ العدد بات قريباً. أطلق البوقُ صوت الاستنفار وقُرعت الطُّبول وهبَّ الجُنود على الفور. سارع الفدائيون إلى سيوفهم واعتمروا خوَذ القتال وتقلَّدوا الدُّروع وتوشَّحوا بالكنانات واستعدُّوا صفًّا واحـداً. تقـدّم مـنهم «أبو سُراقة» وطلب إليهم تحضير أقواسهم والتمركُز فـوق التّـلّ قريبـاً مـن مركز الرصْد. تمدَّدوا على الأرض بانتظار العدُوّ الـذي بـدا أنـه لـيس عـلى عجَلةٍ من أمره. بعد فترةٍ، بدأوا يأكلون ما في مزاداتهم من تينٍ مُجَفّف وبلـحٍ بتوتُّر وقلق، بقيت الخيول في الأسفل بحراسة جنديَّين.

بزغ الفجر، وتمكّن الفدائيون من رؤية الهضبة حيـث عـسكرت القُـوّة الأساسية من الفرقة. ركّز «أبو علي» خيّالته خلف صـفٍّ مـن دغـلٍ وقوفـاً بجانب مطاياهم، رماحهم في أيديهم وقدم في الركاب. أمّا النّبالة فانتـشروا فوق قمة الأكمة، وأقواسهم على أُهبة الاستعداد. الدّاي الكبير يتجوّل على قطعاته ليتأكّد من استعداد الجميع للقتال عندما يحين الأوان.

بعد لحظات، شوهدت عند أُفق الوادي بقعة بيضاء، فـأسرع أبـو عـلي لملاقاة «أبو سُراقة»، تشاوروا قليلاً، ثم أمر بالاستعداد للمعركة.

بدأت الغشاوة البيضاء تكبر، فظهـر مـن خلالهـا خيّـال يحُـثُّ فرسـه، شاهده أبو علي عن بُعد فصاح:

- لا تُطلقوا، إنّه أحد رجالنا.

ترجَّل «أبو علي» وانحدر من الأكمة مشيراً إلى بعض الخيّالة للانضمام إليه. انتزع من أحدهم الراية وانطلق الهيدبا باتّجاه الفارس الذي أدهشته هذه الحركة المفاجئة فشدّ زمام مطيّته، ولكنه ما إن لاحظ الرّاية البضاء حتى توجّه بجواده نحوها. تعرّف إليه أبو علي فصاح:

- بوزرك يوميد!

- أبو علي! وأشار الفارس إلى شيء ما عند الأُفق.

نظر الاثنان فشاهدا خطاً أسود يرتسم ويتماوج بنمطٍ سريع ثم بدأت تظهر ملامح الخيّالة وأعلام الخليفة السوداء تخفق فوق الرؤوس.

- فليستعدّ النبّالة، صاح أبو سُراقة.

ثم صدر أمر جديد:

- فليسدّد كلُّ نبّال على هدفه.

الخيّالة الأتراك أصبحوا على مرمَى النبّالة، في مقدَّمتهم قائدهم على صهوة جواده. فجأةً انهمرت عليهم النّبال من كلّ صوب؛ أُصيب بعضهم وتابع بضعهم عَدْوَه، ثم بدأ التردُّد عليهم وما لبث أن سُمع صوت قائدهم: هيّا إلى المضيق.

كان أبو علي في انتظار هذه اللحظة يصدر إشارته. هبط من الأكمة على رأس خيّالته قاطعاً الطريق عليهم عند مدخل الممرّ قبل أن يبلغه الأتراك. وهنا عمّت الفوضَى والْتحم الخصمان في قتالٍ ضارٍ لا رحمة فيه ولا هوادة.

من أعْلَى التّلّ شاهد الفدائيون ساحة القتال متلهّفين للمشارَكة فيها، وعندما استبدّ الحماس بسليمان، وهَمّ بامتطاء جواده، سارع أبو سُراقة زاجراً إيّاه ومنعه من القيام بأيّة خطوة قائلاً له:

- هل أصابك مَسٌّ، ألم تستوعِب الأوامر؟!

بعد تشتُّتهم من هول المفاجأة، حاول الجند الأتراك إعادة تجميع صفوفهم للقيام بمحاولة ثانية لاختراق العدُوّ باتّجاه المضيق في محاولةٍ يائسةٍ لفتح ثغرةٍ تنقذهم من مأزقهم.

تراءى للقائد التُّركي أنّ وجود كلّ هذه القِوَى الإسماعيلية في الوادي يؤكّد أنّ دفاعات القلعة أصبحت ضعيفة، وبالتالي هذه هي الفرصة المؤاتية لاحتلال المراكز الرئيسة من دون مخاطر كثيرة.

لقد تسنّى للفدائيين أن يرَوْا بأُمّ العين ضحايا الإسماعيليين يتساقطون خلال المعركة، فثاروا غضباً. لم يعُد يسعُهم تحمُّل بقائهم متفرّجين عاجزين عن التدخُّل.

لم يتوقّف أبو سُراقة عن استكشاف الأُفُق. أخيراً ارتسم عند الأفق خطٌّ قاتم! لم يعرف الفدائيون ماهيّته، ولكنّ «أبو علي» امتلأ قلبه غبطةً عندما شاهد فوق رؤوس القادمين البيارق البيضاء خفّاقة. حانت الآن اللحظة المناسبة لإطلاق الشُّبّان إلى المعركة. فتّش في جيش العدُوّ عن علم الفرقة وصاح:

- إلى خيولكم، هيّا إلى رايتهم، كونوا كلُّكم قلباً واحداً.

أطلق الشُّبّانُ صيحات الفرح وهبطوا المنحدَر كالسِّهام إلى مطاياهم،

وانطلقوا بها شاهرين سيوفهم وبينهم جعفر، حاملُ الراية. اندفعوا جميعهم نحو مجموعةٍ من التُّرك، أخذوهم على حين غرّة وأرغموهم على التراجع نحو النهر، مستفيداً من تضعضعهم أسقط سليمان أحد مقاتليهم، أمّا جعفر فقد صمَّم على استثمار عنصر المفاجأة واندفع مع رفاقه مخترقاً قلب العدُوّ واشتبكوا مع مقاتليهم في قتال مرير. بضربة قاطعةٍ شَقّ سيف «ابن طاهر» سُترة الزرد لأحد الأتراك فألقَى رمحه واستلّ سيفه إلاّ أنّ «ابن طاهر» عاجله بضربةٍ قاصمة أطاحت برأسه. سليمان مع ثُلّةٍ من رفاقه يضربون يَمنةً ويَسرةً، ويقتحمون الصفوف لبلوغ الراية السوداء التي ما لبثت أن انكشفت أمامهم، فهلَّلوا واندفعوا نحوها كالسَّيل العارم؛ لكنّ القائد التُّركي أدرك الخطر الداهم فصاح بجنوده بأعلَى صوته:

ذودوا عن الراية بأرواحكم.

جمع التُّرك قوّاتهم حول رايتهم للدِّفاع عنها ومنع العدُوّ من انتزاعها، وفي هذه اللحظة انقضَّ «أبو مالك» و«مُظفَّر» بقوّاتهم وكان صداماً دامياً انتهَى بتشتيت عسكر التُّرك وتمزُّق قوّاتهم.

لم يتوقّف سليمان عن الاستمرار في ملاحقة حامل راية العدُوّ يصحبه «ابن طاهر».

- التَّراجع، التّراجع، صاح القائد التُّركي، أنقذوا العَلَم! لكنّ «ابن طاهر» كان قد أصبح قريباً منه فانقضّ عليه واشتبك الاثنان في قتالٍ ضارٍ، إلاّ أنّ حامل الرّاية تمكّن من الإفلات وانطلق يعدو بموازاة النهر وخلفه سليمان وابن طاهر وبعض الرفاق. سليمان على صهوة جواده خلف حامل الراية المذعور والمُمسك برمحه بشكل يمنع مطارِدَهُ من تجاوزه، وعند

وُصول سليمان إلى محاذاته استدار التُّركي وطعنه برمحه فسقط أرضاً وتابع الفرار باتّجاه النهر يطارده «ابن طاهر» حتى وصلا إلى ضفّة السَّيل. هناك شعر التُّركي بالحافّة تنزلق تحت حوافر جواده فأُسقط في يده ولم يلبث أن هوَى مع مطيّته في الماء. تردَّد «ابن طاهر» قليلاً ثمّ ألْقَى بنفسه خلفه.. غمرتهما دوّامة كادت أن تبتلعهما، إلاّ أنهما ما لبثا أن ظهرا فوق السطح. سبح «ابن طاهر» باتّجاه التُّركيّ الذي كان يرفع الراية عالياً وعاجله بضربةٍ على رأسه أفقدته الوعي فتلاشت قواه وغار في اللُّجّة. قبض «ابن طاهر» على الراية من يد التُّركي قبل أن يهوي ورفعها عالياً.

تعالَت الهتافات من الضفّة، لكنّ التيّار ما لبث أن جرف «ابن طاهر» مع جواده الذي بدت عليه بوادر الاختناق.. سارع الرفاق لإنقاذهما، فانطلقوا بمحاذاة الضفّة يسابقون السَّيل، وفي اللحظة المناسبة ألْقوا له الحبل طويلاً تمكّن «ابن طاهر» من الْتقاطه وسارع إلى ربطه بسرج جواده ثمّ جرَى سحبهما من الماء سالمَين.

فور إنقاذه، بادر «ابن طاهر» بالسؤال عن سليمان ثم سلّم الراية السوداء إلى «ابن وقّاص» وأعاد السؤال مرّةً أُخرَى عن سليمان:

- كيف حاله؟.

نظر إلى الخلف فإذا بسليمان يسير بهدوءٍ مع جواده، فسارع «ابن طاهر» لملاقاته ومعانقته قائلاً:

- إليك يعود الفضل في انتزاع الراية.

بدا على سليمان الانزعاج فقال:

- كيف ذلك؟ عندما تهيَّأتْ لي الفرصة للقيام بعمل كبير خُذلتُ، إنّي أرَى القَدَر يعاندني.

في هذه الأثناء أعلن النفير الاجتماع العامّ. عليهم العودة إلى المخيّم.

انقشع غبار المعركة عن نصرٍ مؤزَّر لجُند القلعة. المحصِّلة النهائية تُشير إلى مصرع القائد التُّركي مع مائةٍ وعشرين من رجاله بالإضافة إلى ستّة وثلاثين جريحاً اعتُبروا أسرَى، أمّا الباقون فقد لاذوا بالفرار لا يلوون على شيء، في حين بلغت خسائر الإسماعيليين ثلاثين قتيلاً ومثلهم من الجرحَى.

أمر «أبو علي» بحفر حفرةٍ كبيرة في أسفل التلّة وإلْقاء جُثث الأعداء فيها كما أمر بحزّ رأس القائد التُّركي وتعليقه على رمحٍ في أعْلَى بُرج الحراسة.

عندما تمّ الانتهاء من دفن جُثث الأعداء ونقل الجَرْحَى، أصدر أبو علي أمراً بالعودة إلى القلعة، فتحرَّكت الجِمال والبغال المحمَّلة بالجَرْحَى والغنائم والأموات.

الصّباح من بُرجه، تابع سير المعركة منذ البداية وشاهد كيفية تدخُّل الفدائيين في المعركة وكيف حسم عبد الملك وخيّالة «مظفّر» المعركة النهائية، فشعر بالرِّضَى عن كلِّ ذلك. دوّى صوت الصَّنج مُعلناً وُرود أنباءٍ جديدة، فعاد «الحسن» إلى مقرِّه حيث كان «بوزرك يوميد» في انتظاره. سارع الصَّباح إليه وعانقه بحرارةٍ قائلاً:

- كم أنا سعيد بلقائك!

على خلاف «أبو علي»، كان «بوزرك» رجلاً ذا هيبةٍ ووقار، ضخماً ذا وجه جميل تحيطه لحيةٌ سوداء؛ أمّا نظره فحادٌّ ينمّ عن عزم وتصميم. كعادة كلّ الرؤساء كان الضيف يرتدي جلباباً عربيًّا أبيض، ويعتمر عمامةً بيضاء، وعلى كتفيه تتدلّى كوفية جميلة.

- كدتُ اقع طعماً لسيوف الأتراك، قال ضاحكاً. أمس بعد العصر حملت لي حمامةٌ أوامرك في اللحظة التي أوشكت على الانتهاء من إعطاء توجيهاتي طوال غيابي؛ ثم روَى له كيف اعتمد الطريق الأقصر من الضفّة الأُخرَى للنهر لتضليل مطارديه الأتراك، وأنّه وصل بصعوبةٍ إلى القلعة في رحلةٍ طويلةٍ تحفُّ بها الأخطار عند كلِّ منعطَف.

بدا السُّرور على وجه «الحسن» فقال:

- كلُّ شيء يسير بشكلٍ مُرضٍ. سوف تشاهد ماذا هيّأتُ لك مع «أبو علي». سوف تُدهَش أيّما اندهاش! في هذه الأثناء دخل «أبو علي» فاستقبله «الحسن» بابتسامة كبيرة قبل أن يعانقه.

- الواقع، إنّ ثقتي بك وبجدارتك كانت في مكانها، قال «الحسن»، ثم راح يصغي إلى «الدّاي» وهو يشرح له سَير المعركة وتفاصيلها.

- هكذا إذاً، شاعرنا، حفيد طاهر هو الذي استولَى على الرّاية! رائع! رائع!.

- سليمان هو الذي انطلق في أعقاب حامل الراية، وعندما أخفق تولّى «ابن طاهر» إكمال المَهمّة. سقط التُّركي في الماء فطارده شاعرنا إلى السيل وقضى عليه واستولَى على الرّاية.

ثم قدّم له لائحة بضحايا المعركة وجرْدةً عن الغنائم.

- هيّا، إلى هيأة المجلس، قال «الحسن»، أريد أن أهنّئ بنفسي رجالنا على هذا الانتصار العظيم.

في قاعة المجلس الكبرَى، جميع الرؤساء وأصحاب المقامات والدّايات يتناولون الطعام والشراب بتآلُف وسرور، ويتبادلون الأحاديث المختلفة، وبخاصة تلك المتعلِّقة بمُجرَيات اليوم، كما يحاولون استقراء القرارات المتوقَّع أن يتّخذها الرئيس، ونتائج انتصار معركة القلعة. كان لانضمام «الحسن» وكبار الدّايات إلى المائدة الأثر الأكبر في إضفاء جوٍّ من الارتياح لدَى الجميع. وجْه الصَّباح يشُعُّ بالسعادة والرِّضَى، وابتسامُه المتواصلُ، لكلِّ مَن يكلِّمه ينِمُّ عن مزاجه الطيِّب وارتياحه العميق. اتّخذ مكانه على المائدة، وقبل أن يبدأ بتناوُل الطعام، توجَّه بالتهنئة الخاصّة إلى «أبو علي» الذي قاد وجْه المعركة ثمّ إلى عبد الملك واستوضحه كيف تدبّر مع «مظفَّر» أمر الحريم، ثم أثنَى على فاعليّة تدخُّله في القتال موجِّهاً الشُّكر له، كما شكر «أبو سُراقة» الذي تولّى قيادة الفدائيين ونفّذ تعليماته بحرفيّتها، ثم الْتفت خلسةً صوب «مينوشهر» وعلَت وجهه ابتسامةٌ يشوبها الخُبث. لم يشارك النقيب في الحديث، كان مستاءً لأنه بقي مكتوف اليدين ليقطف سواه جوائز الانتصار. كان متجهِّماً، يأكل قليلاً ويشرب كثيراً.

صمت الصَّباح قليلاً ثم قال:

- يُوجد بيننا اثنان تستحقُّ حاليًّا تضحياتها منّا عظيم التقدير. إنّ

الشرف الأسمَى للجندي هو أن يقاتل العدوّ، ولكنْ ليس هو الشرف الأعظم أو الفرح الأكبر، إنّ مَن يجد نفسه بحُكم واجب الخضوع والطّاعة لدوافع عُليا، مُلزَماً بعدم المساهمة في ما نُذِر له، أي القيام بواجبه كمقاتل، فإنّما يعطي أروع دليلٍ على كونه الرجل الحقّ، وبهذا هو يستحقّ احتراماً خاصًّا، نظر حوله إلى الوجوه المشدوهة ثم تابع بوقار:

- يوجد بيننا اثنان، كما قلت، رغم كونهما جنديّين جسداً وروحاً، إلاّ أنهما تخلّيا عن هذا الشرف، إنّهما أنا ومينوشهر؛ ودوافع هذا التصرُّف واضحة. إنّي أشعر بالرِّضَى والارتياح عن الذين شاركوا في القتال وسوف ينالون ما يوازي تضحياتهم، أمّا مينوشهر فسيتلقّى تسميته كأميرٍ وقائدٍ عامّ لحاميات كلّ القلاع الإسماعيلية. وقف وتقدَّم من النقيب الذي وقف بدوره بادِيَ الخجل والارتباك.

- هل تمازحني يا سيّدنا؟

- مُطلَقاً يا عزيزي، أجاب «الحسن» وهو يعانقه. صدر الأمر وسيسلِّمك إيّاه «أبو علي». عدا ذلك ستنال من الغنائم بمقدار سواك وسأُنجز موضوع تقسيمها على الفور بقرار تفصيلي مع تعويضات لعائلات الجنود القتلَى بالإضافة إلى علاوات من القطع الذهبية للمستحقّين.

بعد الانتهاء من توزيع الغنائم والعلاوات استأنف كلامه قائلاً:

- إنّ أنباء هزيمة التُّرك سوف تعُمّ كلَّ إيران بسرعة الرياح، وهي حكماً ستثير حميّة أتباعنا وأصدقائنا وستشجِّع المتردِّدين. كثيرون من

مؤيّدينا سرًّا سيجدون الشجاعة لإعلان تأييدهم لنا، وأنصارنا المجاهرون في بعض القلاع سترتفع معنويّاتهم، أمّا أعداؤنا فسيجدون أنفسهم مرغمين للتعاطي معنا بجدّية؛ أمّا بعض الخونة بينهم فسيعانون أهوال الرُّعب، أقصد بذلك الوزير الأول. بعد هذا الانتصار، علينا توقُّع دخول أتباع كثيرين في صفوفنا. مُجمَل المنطقة حول «رودبار» هي مُوالية لنا، ولن يتردّد الآباء في إرسال أولادهم إلى قلاعنا للقتال معنا من أجل القضيّة الإسماعيلية. عليك يا «أبو سراقة» مَهمّة استقبال المتطوِّعين وتوزيعهم وفقاً لكفاءاتهم وأعمارهم. ليوجَّه الأفتَى والأقوَى جسديًّا إلى مدرسة الفدائيين على أن تبقَى القواعد المتَّبعة حاليًّا سارية المفعول: أن لا يكون المتطوِّع متأهّلاً، وأن لا يكون قد عاش حياةً مُنحلّة؛ أمّا الباقون فيُصبحون جنوداً إذا ما كانوا قادرين على حمل السلاح. على كلّ عنصر أن يكون جنديًّا ومؤمناً في الوقت نفسه. من جهةٍ أُخرَى، ليكن هذا اليوم، اليوم الأخير الذي يُسمَح فيه للجنود باحتساء الخمرة، وليعلم الجميع أنّني أنا شخصيًّا مَن يحلِّل ومنَ يُحرِّم. ليكن تطويع أتباع وأنصار جدُدٍ لنا أحد اهتماماتنا الكبرَى. سوف نرسل الفدائيين إلى كافّة أرجاء المنطقة لدعوة الناس لنُصرة قضيَّتنا، وعلينا كذلك الاهتمام بأسرانا لكسبهم وتأييدهم لنا. إنّ جيش السلطان يقترب وسوف لن يمرّ وقت طويل قبل أن نجد أنفسنا محاصَرين.

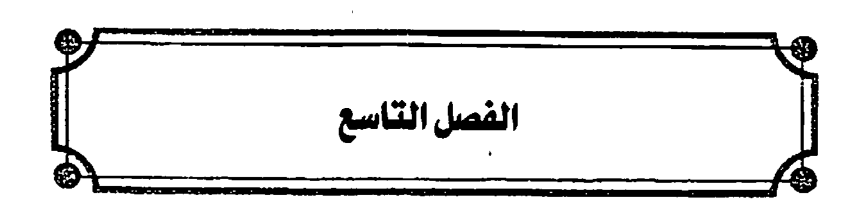
عليك أيُّها «الدّاي عبد الملك» أن تسارع إلى حشد عددٍ كافٍ من الرجال والسير بهم غداً إلى قلعة «رودبار» لطرد الأتراك، إذا وُجدوا هناك، ومطاردتهم حتى الرّيّ وجوارها. علينا بصورةٍ خاصةٍ إرسال عملاء لنا إلى

أماكن وجود جيش السلطان. إلى هنا، أنهى الصَّباح كلامه واستأذن المجتمعين مشيراً إلى الدّايات حيث عاد وإياهم إلى أجنحتهم الخاصة. خلال هذا الوقت عمّت الأفراح وأقيمت وليمةٌ كبرَى فوق الشُّرُفات السُّفلَى احتفاءً بمناسبة الانتصار على الأعداء. صُراخٌ وضجيجٌ وهُتافٌ وضحكٌ يعُمُّ الأرجاء وينتقل صداه في كلِّ أنحاء القلعة. رجال القصر، ومظفَّر، متحلِّقون حول مواقد النار المتأجِّجة ينتظرون بفارغ الصبر نضج الشواء وهي تدور بسفافيدها بأيدٍ خبيرة. الأفواه تتحلّب والشِّفاه تتلمَّظ، وبعضهم، وقد استبدّ بهم الجوع، لم يتوانَوا عن الْتقاط الدُّهن المُنثال من الشواء بقطع الخبز السميك لسدِّ رمقهم. إلى هذا، وُزِّعت على الجميع كمّيات من الخمر في قِرَبٍ وجِرارٍ من قِبَل العُرفاء بمقاديرَ معيَّنة، الأمر الذي أكسب طابع الوليمة جواً من البهجة والمرح.

لم يشغَل الطعامُ بعضهم عن التساؤل عمّن يسمح باحتساء الخمرة، فأجابهم العرفاء بأنه الرئيس الأعلَى زعيم الإسماعيليين والنبيّ الجديد، وأنّ الله قد خوّله سُلطة التحريم والتحليل، وفوق ذلك وهبه مفتاح الجنّة. لدَى سماعهم هذا الكلام، راح بعضهم، وقد أخذتهم النشوة بفعل الخمرة، يهلِّلون ويهتفون للرئيس الأعلَى.

بدَورهم، أقام الفدائيون وليمتهم الخاصّة بهم فوق الشُّرفة العُليا حيث أكلوا ما طاب لهم من الشواء وشربوا بقدْر ما حلا لهم.

* * *



الفصل التاسع

في الوقت الذي كان جيش «آلاموت Alamut» يقارع طلائع جيش السلطان، كانت الحدائق خلف القلعة تضُجُّ بالنشاط والحركة.

منذ الفجر رافق عديٌّ «أباما» إلى جناح الفتيات. كنّ ما زلن نائمات عندما انفجرت «أباما» غاضبةً. استفقن مذعوراتٍ على صوت الصّنج مصحوباً بصراخها.

- أيتها الكسولات، سوف يصل سيِّدنا بين لحظة وأخرَى، وسوف يقطع رؤوسنا إذا ما وجدنا ما زلنا هنا. لبست الفتيات على عجَلٍ خائفاتٍ مذعوراتٍ وتلقَّين من مريام وأباما المهامّ المطلوبة.

لقد أرسل «الحسن» إليهنّ الأوراق والألوان وكلَّ ما يلزم لصنع القناديل الصينية. شرحت «أباما» لفاطمة كيفيّة صنعها فشرعت هذه على الفور في العمل ونجحت في صنع أول قنديل، فوضعته في غرفة مظلمة ثم ركّزت شمعةً مُضاءَةً في تجويفِ داخله فبدأت الأضواء الزاهية تتلألأ ببريق يخطف الأبصار.

- أيّتها الفتيات، لا تُضِعن الوقت، اعملوا بجدٍّ ونشاط، ولا مجال للّهو، قالت العجوز.

وزّعت فاطمة المَهامّ على الفتيات فباشرن العمل بكلّ همّةٍ واندفاع وأنجزن المطلوب في مهلةٍ قياسية، ثم عُرضت القناديل في الهواء تحت أشعّة الشمس كي تجفّ وتُصبح جاهزةً للاستعمال.

بينما كانت الفتياتِ يتحادثن حول زيارة الرئيس الأعلَى، سمعت أباما حديثهنّ فتدخّلت قائلةً:

- أنتنّ تتحدَّثنَ عن سيِّدنا! حسناً! إعلمن أنّ بعضكنّ سوف تقطع رقابُهن هذا المساء! أجل سوف يأتي إلى هنا زائرون، إنّي أحذِّركنّ، مَن تَبُح منكنّ باسمها الحقيقي ومكان وجودها الحقيقي سوف تتعرَّض لموت رهيب.

لدَى سماعهنّ هذا التهديد، التفتت الفتيات مذعورات ناحية مريام التي بادرت للقول:

- «أباما» على حقّ، لقد أمر سيِّدنا بترتيب هذه الحدائق وفقاً لأنموذج الجنّة الحقيقية، وعليكنّ منذ الآن التصرُّف كأنّكنّ تعِشنَ في مكانٍ سماويّ، أنتنَّ لستُنّ فتياتٍ عاديات بل حوريات! عليكنّ تلبُّس هذا الدَّور، ليس الأمر بعسيرٍ إذا ما بذلتنّ قليلاً من الجَهد. أيّة خيانة تعرِّض مرتكبتها لعقوبة الموت.

- إذا كان الأمر كذلك، فسوف لن أفتح فمي، قالت «سارة».

- يجب أن تُجِبن عن كلّ الأسئلة التي تُطرَح عليكنّ بالشكل المناسب، حذَّرتهنّ «أباما».

وهنا أجهشت حليمة بالبكاء قائلةً:

- فيما خصّني، سوف أختبئ كي لا يراني أحد.

- حاولي، صاحت «أباما»، من دواعي سروري أن أراك مصلوبةً على منصبة التعذيب.

استبدّ الرُّعب بالفتيات فصمتن وتابعن العمل بتوتُّر ظاهر.

- فليكن ما يكن، قالت فاطمة، لقد عشتُ الحريم وأستطيع أن أتدبَّر أمري، إنّي أعرف الرجال وليس صعباً إرضاؤهم، وبخاصةِ الشُّبّان منهم، لأنّهم لا يتمتّعون ببُعد النظر. إنّي متأكّدةٌ أنّه ليس من الصعب لعب دور الحوريات في هذه الحدائق.

- الآن استوعبت كلَّ شيء! صاحت «سليكة»، أخيراً تفهّمت لماذا أرغمونا على حفظ آيات من القرآن تصوِّر الحياة في الجنّة.. ما رأيكنّ؟

ضحكت «مريام»، لم يكن قد خطر في بالي هذا التفصيل، لكن بالتأكيد فكّر الصَّباح بهذا!

- دعكُنّ من هذه الآراء أيتها البنات؛ خيالكنّ رحْب! قالت فاطمة باستهزاء؛ فلنتصرّف كأنّنا في الجَنّة فعلاً وسوف نَرى ما يحصل بعدها.

- بقدْر ما تكنّ طبيعيات، بقدْر ما تنجحْنَ في هذه اللُّعبة، لخَّصت «مريام» الموضوع.. لا تبالغْنَ في شيء، لا تتكلَّمن إلاّ للإجابة عن ما يُطرح من أسئلة.

أحسّت حليمة بمخاوفها تتبدَّد ثم تجاسرت وسألت:

- لماذا يريد «سيدنا» أن نبدوَ كأنّنا في الجنّة؟

- كي تتعلَّم «القِرَدة الصِّغار» أمثالك شحذ ألسنتها، أجابتها «أباما» مؤنِّبةً.

بعد قليل وصل العبدان «معاد ومصطفَى» يحملان سلَّين مليئين بالطيور على أنواعها وبأسماكٍ طازجة. تمَّ إفراغ السلَّين في المطبخ من قِبَل «أباما» ومساعديها..

لكنّ فضول حليمة لم يكن ليقف عند هذا الحدّ فأردفت سائلةً:

- مَن هم هؤلاء الزوّار الذين يترتّب علينا أن نقول لهم إنّنا حوريّات؟

- بدايةً، ليس المطلوب منكنّ أن تقُلن ذلك، أجابتها «مريام» كَوْن ذلك ينبغي أن يحصُل تلقائيًا، ثانياً: إنّ سيِّدنا سوف يزورنا تحديداً من أجل إعطائنا توجيهاته الدقيقة بهذا الشأن. وكي لا تسترسلي كثيراً في أسئلتك أودُّ أن أقول لك إنّه ربّما يكون هؤلاء الزوار شُبّاناً في غاية «الحسن» والجمال.... احمرَّ وجه حليمة خجلاً ونظر إليها الجميع، فقالت بارتباك:

- فيما خصَّني، لا أنوي المشاركة في هذه اللعبة.

- يتوجّب عليك ذلك، أجابتها مريام بنبرةٍ حادة. طرقت حليمة الأرض برجلها وأجابت بعناد:

- لا أريد ذلك.

وهنا استبدّ الغضب بـ«مريام» وتورَّد خدّاها فقالت لها:

- هذا يعني أنّك ترفضين أوامر سيّدنا؟

صمتت حليمة ولم تُجِب.. فقد أُسقِط في يدها ولكنها عادت تسأل:

- وماذا سيحصل بعد ذلك؟

ضحكت مريام قائلةً:

- سوف ترَيْن..

اقتادت «مريام» الفتيات إلى قاعة كانت على الدوام مغلقة، فتحت بابها، وما إن دخلت إليها الفتيات حتى أُصِبنَ بالذُّهول.. القاعة عبارةً عن مخزنٍ للألبسة من كلِّ الأصناف والألوان والقياسات منتقاةٍ من أفضل الأسواق في سمرقند، وبخارَى وكابول وأصفهان، وبغداد والبصرة، بالإضافة إلى كمّيات من أثمن الحُلِي والمجوهرات مصنوعة من الذهب والألماس.

- لمن كلُّ هذا؟ سألت حليمة.

- كلُّ هذا مُلك سيِّدنا، أجابت مريام. إنّ سيِّدنا غنيٌّ جداً، بل أكثر غِنًى من الخليفة والسلطان وكُلُّ هذا من أجلنا؛ على كلِّ واحدةٍ منكنّ أن تختار ما يناسبها وتأخذه معها إلى غرفتها.

أُعجبت حليمة بما رأت أشدّ الإعجاب فقالت:

- لا أظنُّ أنّه من الصعب علينا إزاء كلِّ هذا أن نتخيَّل أنفسنا حوريات!

استدعَى «الحسن» المجلس الأعلَى لكبار الدّايات لاجتماع مهمٍّ؛ وأضاء بنفسه المصابيح وتأكّد من وجود الستائر على النوافذ، بعد قليل أحضر عبدٌ قِربةً كبيرةً من الخمر، فتمدَّد الرجال على الأرائك وراحوا يحتسون الخمرة بلذّةٍ وانشراح.

- استدعيتك من «رودبار» يا عزيزي «بوزرك»، قال «الحسن»، لأُعلِمك أنت و«أبو علي» بوصيَّتي. كان بودّي أن يكون «الكاييني» بيننا، ولكنّ الأحداث حالت دون ذلك. يتعلّق الأمر بتنظيم موضوع تعاقب الرئاسة في مؤسّستنا.

ابتسم أبو علي وقال متدخِّلاً:

- إنّك تتكلّم وكأنّك غداً ستغادر هذا العالَم.

ثم تدخّل «بوزرك» قائلاً:

- لقد أشرت إلى «الكاييني» ولكنك لم تُشِر إلى ابنك حسين! علماً أنه وريثك الشرعي؟

انتفض «الحسن» كمَن لدغته أفعَى وأخذ يصرخ:

- لا تذكّرني بهذا العجل المتوحّش! إنّ مؤسّستي تقوم على العقل وليس على قواعد خرقاء. ابني! ابني! أيُّ ابنٍ هذا! أفضّل أن اتّبع أُنموذج الكنيسة الرومانية التي لا تنتخب رؤساء لها سوَى الأكفّاء، إنّ الأنظمة التي تستند إلى روابط الدم والقُربَى تؤول إلى التراجع والسقوط. بالطبع كنتُ في البداية أفكّر أن أضع آمالي في روابط الدم، كان ذلك إثر عودتي من مصر.

أحضروا لي ابني، كان جميلاً وقويًّا وكنتُ أُسَرُّ برؤيته. أدخلته في مدرستي، ولكن يا لخيبتي، لم أجد لديه الرغبة للمعرفة والعلم. لقد بذلت كلّ ما بوسعي لتنشئته وتثقيفه، ولكنّ جهودي كلَّها ذهبت أدراج الرياح، فلم أجد عند ذلك غير تسليمه لـ«حسين الكاييني» كي يخدم تحت إمرته كجنديّ عاديّ، وأنتما تعرفان ما جرَى مؤخَّراً.

– ثمّة شيءٍ يحيّرني يا ابن الصَّباح، قال «أبو علي»، سمعتك مراراً تقول إنّ مؤسّستنا ترتكز على العقل، فماذا تعني تحديداً بذلك؟

– بدايةً، ليست الفكرة بجديدة كما قد يُظَنّ! منذ تسعين عاماً حاول الخليفة الفاطميّ الحاكم بأمر الله القيام بتجربة مماثلة عندما أعْلَن نفسه تجسيداً للألوهية ثم انتهى به الأمر إلى الاعتقاد بأصله الإلهي.

قاطعه «أبو علي» قائلاً:

– قلت إنّك تريد مناقشة موضوع الوصيّة وتعاقُب الرئاسة، فما هو الدّاعي للتفكير بهذه الأُمور؟ إنّك كما نرَى لا تزال قويًّا وبصحّة جيدة.

ضحك «الحسن» وراح يزرع القاعة ذهاباً وإياباً ثم قال:

– لا نعرف مطلَقاً ما يخبِّئ لنا الغد، إنّ الوصيّة التي أنوي كتابتها تتطلّب من منفِّذها أن يكون على علمٍ ببعض التفاصيل الخاصّة، وسأُعلن أمامكما باعتباركما موضع ثقتي عن مخطَّطي، هذا المخطّط الذي يرتكز عليه كلُّ مستقبَل مؤسَّستنا، وإنّي أعترف أنّني استلهمت بعض عناصر هذه

الفكرة العزيزة عليّ من سيّء الطالع «الحاكم بأمر الله»، وكذلك من بعض رؤساء كنيسة روما. يبقى أنّ هذا المخطط في أساسه هو وليد ابتكاري الخاصّ. انتبِها لِما سأقول:

تمدّد قربهما وارتسمت على وجهه ابتسامةٌ شبه طفوليّة فقال:

- تعلمان أنّ محمّداً وعد المؤمنين بالحصول على كُلِّ ما تشتهي الأنفس في الجَنّة، لذلك اندفع المؤمنون في معاركهم إلى القتال كالأُسود، وحقّقوا بكلِّ اندفاع وسرور انتصاراتٍ باهرة. يقال إنّ بعضهم كان يسعَى للموت ولقاء ربّه باسِمَ الوجه موعوداً بالثواب في الآخرة. ولكن يا للأسف تضاءل بعض الشيء الاندفاع والإيمان بعد وفاة النبيّ، وأصبح الناس يميلون إلى الأمور الملموسة أكثر من الوعود الغيبية، ذلك لأنّ أحداً لم يرجع بعد الموت ليعلم الناس بحقائق الأمور. إذا كان إيمان أنصار النبيّ برسالته وبما تتضمّن من وعد للمجاهدين بثواب الآخرة قد خلق منهم أجيالاً من المقاتلين الأشدّاء يتفانَوْن في القتال عن الدين والعقيدة، فلا بُدَّ لمؤسَّستنا كي تنجح من أن تُنشئ أتباعاً مشبَعين بالإيمان الراسخ المتين اقتداءً بالنّبيّ.

- يمكنك أن تهنأ يا ابن الصباح - توجّه إليه «أبو علي»- لقد أثبت الفدائيون هذا الصباح أنّك نجحت في خطّتك.

- دعكَ من هذا يا عزيزي، هل تظُنّ أنّ بإمكاننا مقارنة شجاعة فدائيينا ببسالة أتباع الرسول؟ مُطلَقاً، ولكن دعني أقول لكما، عليَّ ابتكار طريقة تمكّننا من تحقيق هذه المقاربة. إنّ مخطَّطي، - استأنف «الحسن» كلامه بهدوء - يَهدفُ إلى تنشئة مقاتلين يتوقون إلى الموت ولا يهابونه، يسعَوْن إليه ولا يتهرَّبون من لقائه.

أغرق «أبو علي» و«بوزرك» في الضحك، مقتنعين أنّ «الحسن» كعادته يهزأ منهما.

لكنّ «الحسن» لم يُحبَط، بل ازداد ثقةً وعزماً.

- استمعا إليّ! على مؤسّستنا أن تصبح من القدرة بحيث يمكنها مواجهة أيِّ عدوٍّ، وإذا لزم الأمر مواجهة الدنيا بأسرها. ولكن من أجل تحقيق هذا الهدف ينبغي أن يعشق مقاتلونا الموت.. أنا أعرف أنّ أتباعي يرَون في شخصي نبيًّا جديداً ويؤمنون أنّي أملك مفتاح الجنّة، يبقَى عليّ كي أُكمل المخطَّط أن أجعلهم يرَوْن المجرَّد محسوساً ويلمسون الموعود كواقع حيٍّ.

- افتح لهم باب الجنّة ودعهم يرونها - قال أبو علي ضاحكاً- طالَما أنّك تقول إنّك تملك مفتاحها!

نهض «الصباح» وقال لهم، تعالا، اتبعاني يا عزيزَيّ، سوف أكشف لكما المفتاح الذي يفتح الباب إلى الجنّة. قفز باتّجاه النافذة وأزاح الستارة التي تحجُب السُّلَّم الذي يؤدّي إلى قِمّة البُرج.

– تقدّما، قال لهما وسبقهما إلى الشُّرفة. هذه الشُّرفة التي لم يسبق لأحدٍ أن عرف بوجودها.. إنه مِرقَبٌ حقيقيّ. في هذا المِرقَب شاهدوا بضعة ألواح صغيرة للحساب، عليها أشكالٌ هندسية مختلفة، دوائر، إهليلج، قطع متكافئ وغير متكافئ، هنا وهناك أجهزة قياس ورسم من كلِّ الأنواع والمقاسات، جهاز اسطرلاب، بركار وسواها من الأدوات المختلفة.. في وسط الشُّرفة ساعةٌ شمسيّة تشير بدقّة إلى تقسيم الوقت. بالإضافة إلى ذلك يوجَد عنبر صغير جرَى استدراكه لحماية هذا العتاد من تقلُّبات الطقس. داخل هذا العنبر أُقيمت دفيئةٌ بسقفٍ زجاجيّ حيث ينبُت فيها صنفٌ من العُشب ذي ساقٍ طويل. تأمّل الدّايات بسرعةٍ هذه الأدوات وتوقّفت أنظارهم على أعْلَى نقطة عند حاجز الشُّرفة، أمامهم ينتصب عبدٌ عملاق مدجَّج بالسلاح يتولّى الحراسة، يبدو للناظر إليه كأنه تمثال من البرونز..

فوق الشُّرفة تسطع الشمس فتُكسِب الجوّ دفئاً يمازجه لفحاتٌ من الهواء المنبعث من الجبال المحيط بالقلعة.

– ربّما أردت إقامة عُشِّك هذا على هذا الارتفاع كي تنظر بشكلٍ أفضل إلى الجنّة، مازحه «أبو علي»، ربّما يكون هذا أيضاً مفتاحك المزعوم!

– أجل، من هذا المِرقَب أنظر إلى الجنّة! أجابه «الحسن» بابتسامة غامضة، إلاّ أنّ المفتاح الذي يفتح الباب موجود في هذه الدفيئة. ثم اقترب من الغطاء الزجاجي وأشار إلى الحشائش التي استنبتها فيها.

– أيُّها العزيز الصَّباح، قال «أبو علي» بلهجةٍ محبَّبة، متَى ستنتهي من

هذه الدُّعابات؟ أتظُنّ أننا ثلاثتنا في عُمرٍ يسمح لنا بأخذ هذه الأمور على محمل الجِدّ؟.

تطلَّع إليه «الحسن» بنظر ثاقب وقال:

- هذا هو المفتاح الذي يؤدّي إلى مفاتن الجنّة، نطقها بكلّ أناةٍ.

- هذه العُشبة اللعينة؟ أجابه «أبو علي».

- أجل، لا مكان للمُزاح بعدها! ثم أشار إليهم بالجلوس فوق الأرائك في الظّلّ....

- إنّ العُشب الذي شاهدتموه ليس إلاّ قِنّباً هنديًّا؛ لكن اعلموا أنّ عصارته تحوي مميّزات عجيبة.، سوف أصِف لكما طبيعة هذه الخصائص. منذ زمنٍ بعيد كنتُ في كابول، وقد دُعيت ذات ليلةٍ مع سواي إلى احتفال في قصر أميرٍ ثريٍّ من أصلٍ هنديّ.. أمضينا اللّيل كلّه في غاية الفرح والألفة، وعندما انصرف الضيوف فجراً،استبقاني المُضيف مع ثُلّة من أصدقائه، ثم دعانا إلى غُرفةٍ جانبية، مغطّاة أرضها وجدرانها بسجّاد فاخرٍ حتى السقف، وعند أركان الغرفة مصابيح خافتة الضوء. بعد لحظات أعلن مضيفنا أنّه هيّأ لنا مفاجأةً خاصة تتيح لنا الاستمتاع بزيارة بلدان ومدنٍ لم يسبِق لنا أنْ زُرناها. قام وأحضر عُلبةً مذهّبةً صغيرةً وقدّم لنا قرصاً صغيراً حسبته حبة سكاكر، وضعتها في فمي فاعتقدت أنّها نوع من الحلوَى أراد الأمير أن يخصّنا بها، ولكن عندما ذابت طبقة السُّكّر المغلّفة بها شعرت بطعم مرارةٍ قويّ أزعجني وتملَّكني هاجسٌ من أن تكون سُمًّا، وما

هي إلاّ لحظات حتى بدأت أشعر بدُوارٍ أولاً ثم أحسست بأشياءَ غريبة؛ لون السَّجّاد بدا لي أكثر زهاءً ثم رأيت الرسومات على السجّاد تتبدّل وتتغيّر بشكل غامض،وأمامي شاهدت شبح رجلٍ بلحيةٍ سوداء جالساً في وسط مجموعةٍ من الجواري متحلِّقات حولي، ثم رأيته يختفي من أمامي، بينما قامت الجواري يرقصن على أنغامٍ لم أسمع لها مثيلاً. أصبح ذهني مشتَّتاً ورُحت أتساءل هل أنا في حُلُم أم ما أراه حقيقة. تشوّش فكري وظننت لفترة أنّ ما أراه هو وهمٌ أو سرابٌ أو نوعٌ من الهلوسة، لكنّي اقتنعت في النهاية أنّ ما أراه حقيقة قائمة. لم أعُد أشعر بوجود أصحابي، الأنوار تتلألأ أمامي، والجواري يتقدَّمن نحوي إلى وسط الغرفة وينفِّذن مئات الحركات البهلوانية. بلغت أقصَى درجات النشوة وتصوّرت أنّي الساحر الذي يتحكّم بهذه المشاهد، وعلى سبيل التجربة أمرت ذهنيًّا الراقصات بتغيير المشهد، فإذا بهنّ ينفِّذن الأمر بطرفة عَين، فشعرت أنّي أملك قوّة لا تُقهَر، قوةَ ملكٍ، حاكمٍ مُطلَق يأمر كُلّ شيء خلافاً لقوانين الزمان والمكان.. تتابعت المشاهد أمامي فأبصرتُ مكعّباتٍ تَشعُّ أنوارها ثم تتجمّع لتُصبح مدينة كبيرة، أكبر من القاهرة، وأكثر بهاءً ورونقاً من بغداد، وأعظم قوّةً من الإسكندرية. شعرت بروحي تطوف وتحلّق في الأعالي، وبعد فترةٍ بدأت الصُّوَر تتلاشَى تدريجيًّا أمام ناظريّ، ثم ما لبثتُ أنْ أحسست الضعف في أطرافي وفجأةً فقدتُ الوعي. عندما عُدْتُ إلى رشدي شعرت بدوار ممزوج بتقزُّزٍ. ولّما هدأت واستقرّ وضعي غادرت الغرفة مسرعاً.

أصغَى الدّايات إلى «الحسن» باهتمام بالغ، وعندما صمت سأله «أبو علي»:

- ماذا فعلتَ لتكتشف العناصر المكوِّنة لهذه الحبوب كي تكون فعّالة بهذا الشكل المدهش؟

أصغوا إلى بقيّة الحادثة، تابع «الحسن»، مساء ذلك اليوم تملَّكني قلق غريب، لم أكن قادراً على البقاء مكاني، فتساءلت عمّا أصابني وماذا ألمّ بي، وفجأةً وجدت نفسي رغم إرادتي في منزل الأمير . استقبلني الأمير مرحّباً كما لو أنّه كان بانتظار عودتي، ثم سمعته يقول لي: «أصدقاؤك هنا أيضاً». اعلم أنّ مَن تذوّق طعم هذه الحبوب العجائبية يصبح شغوفاً ومتعطِّشاً باستمرار للمفاتن التي تستحضرها، ثم لا يلبث مع الوقت أن يصبح عبداً لهذا المخدِّر إلى حدٍّ يجعله يفضِّل الموت على حرمانه منه. لذا أردت أن أُحذِّرك وسوف أمتنع عن تقديمها لك، بل بالإضافة إلى ذلك لن أبوح لك مُطلَقاً بسِرِّ تركيبها. بعد أيام هدأ اضطرابي؛ ولكنّ فضولي لكشف سرّها ازداد حدَّةً وإلحاحاً. في تلك الفترة كانت شهرة «أباما»، كأجمل راقصة في كابول، على كلّ لسان، ولا يفوتكما أنّي في هاتيك الأيام كنت ما زلتُ فتيًّا نشِطاً غير قادر على التحكُّم بمشاعري وعواطفي الملتهبة. كانت الراقصة إيّاها معشوقة الأمير، لكنّي نجحت في استمالتها إليّ فوقعت في حبّي وصرنا نتواعد ليلاً في حدائق سيّدها ونتذوّق طعم الحُبّ والغرام. استمرّت «أباما» على علاقاتها بسيّدها، وكان لها عليه تأثير بالغ، وعندما أسرَّيت إليها

برغبتي في كشف سرّ القرص لم تجِد صعوبةً في ابتزازه وحصولها على السِّرّ بالحيلة والخداع. علمت أنّ المادة التي تحتويها هذه الحبوب تُدعَى الحشيشة أو الخشخاش، وأنها تُصنَع من القنَّب الهندي كالذي ترونه في هذه الدفيئة.

- بدأت أستقرئ نواياك؛ من خلال عصارة هذه النبتة تريد أن تُلهِب عواطف الأتباع وتثير فيهم رغبة التكرار وتسيطر على إرادتهم، قال «بوزرك».

- هل تنوي الحصول على نتائج معيّنة؟ سأل «أبو علي». من خلال حرمانهم من هذا «الحشيش» أو سواه، أيًّا كان اسمه، تنوي التحكُّم برغباتهم وتدفعهم لمواجهة الموت مختارين! عذراً، أظنّ أنّ حساباتك خاطئة، إذْ لو افترضنا أنّهم لن يتمكّنوا من العيش من دون هذا المخدّر، فهذا لن يؤدي بالضرورة إلى استعدادهم للتضحية بأنفسهم وفقاً لأهوائك.. أتتصوّر حقيقةً أنهم سيقتنعون بأنّ حبّةً واحدةً تكفي لتقودهم إلى الجنّة؟ دعك من هذا! لنكن واقعيين أكثر ولنتكلّم بجدّية عن التدابير الاستثنائية التي ينبغي اتّخاذها لمواجهة جيش السلطان.

- أوافقك الرأي في كلِّ ما قلت، قال «الحسن» بنبرةٍ فيها بعض التهكّم، أمام تقدُّم جيش العدوّ الذي يزحف نحونا ليس أمامنا سوَى مخرجَين: إمّا أن نهيّئ على عجَلٍ قافلةً ونلوذ بالفرار إلى أفريقيا، كما نصحنا «مظفّر»، أو أن نبقَى على أمل حصول معجزةٍ ما. فيما خصّني اخترت الحلّ الثاني. ولكن يبقَى دائماً ثمّة مجالٌ لتغيير الخيار.

- أُقسم بلحية النبيّ، أردف «أبو علي»، ليس بوسع رجل شريف أن يتفهّم نواياك. أتمنّى لمرّة واحدة أن أسمعك تتكلّم بوضوح.

- حسناً، سأُحاول. في هذا المكان حيث نحن، كما قلتُ لكما، أمتلك مفتاح الجَنّة؛ ولكن ليس هذا كلُّ شيء. من هذا المكان نفسه بوسعي أن أراقب كلَّ ما يدور فيه! أنتم لا تجهلون أعمال وحركات كلِّ الذين يقيمون في هذه الجهة من القلعة، أي الجهة المواجهة للقصر. ولكنكم هل فكّرتم بما هو موجود في الناحية الأُخرَى من هذا البُرج؟ تفضّلوا إلى هنا وانظروا.

سارع «الدايات» واجتازوا الحاجز الحديدي ونظروا من خلال الفتحات في الجدار فتسمّروا في أماكنهم مذهولين. تمتدّ في الأسفل البعيد تحت أقدامهم رياضٌ غنّاءُ لم يرَوا في حياتهم لها مثيلاً، بجانب هذه الحدائق فرع من النهر يحيط بها إحاطة السوار بالمعصم. جنائن أُحسن غرسُها بشتّى الأشجار ومختلَف الأزهار تتخلّلها أقنية للرّيّ وممرّات مرصوفة بالحَصَى الأبيض وتلتمع في أماكنَ معيّنة منها مقصورات للراحة كأنها شُيِّدت من البلّور تنعكس عليها أشعّة الشمس فترتدّ ألواناً زاهيةً تخطف الأبصار.

- أعجوبة، أعجوبة حقّة، تمتم «بوزرك»، بعد صمتٍ طويل، نهض «الحسن» واقترب من «الدّايات» وعلى وجهه أمارات الرِّضَى وقال:

- لنفترِض أنكم كنتم معيَ في كابول لدَى الأمير، وأنكم تناولتم قرصاً من «الحشيشة» وعشتم بتأثيرها لحظات لم تخطُر على قلب بشر، وشاهدتم ما شاهدتُ، وشعرتم بما شعرتُ ثمّ فقدتُم وعيكم؛ وعندما عُدتم إلى وعيكم وجدتُم أنفسكم في وسط هذه الجنان تُحيط بكم مجموعة من الحسناوات يخدمنكم وفقاً لِما ورد في القرآن، فبماذا عساكم تفكّرون عندها؟

- لقد فكّرتَ في كُلّ شيء، علّق «أبو علي» مدهوشاً، شُبّانٌ من دون خبرة، فكرةٌ شيطانية؛ ولكن كيف ومتى تسنَّى لك صُنع كلّ هذا؟

- عندما شيَّد مُلوك الدَّيلم قلعة «آلاموت Alamut» هيّأُوا في الوقت نفسه هذه الأرض وغرسوها لتُصبح حدائق في المُستقبل؛ لكنّ الزعماء الذين تعاقبوا أهملوها فصارت بَواراً وتحوّلت مع الوقت إلى أدغال بريّة. لقد علمتُ مِن سلفي «المهديّ» الذي كان يجهل الطريق المؤَدِّية إليها بعض المعلومات عنها، ولمّا كان مخطَّطي ومشروعي لإقامة جنّةٍ على الأرض راسخاً في ذهني، فقد عقدت العزم على احتلال القلعة وجعلها مقرّي ثم باشرت بعدها بوضع الدراسات والتصاميم لهذه الحدائق واستقدمت من أجل هذه الغاية العبيد من مصر وباشرت تنفيذ مشروعي حتى تمّ إنجازه وأصبح واقعاً كما تَرَوْن. إنّكم، بالإضافة إلى «العبيد»، الوحيدون الذين يعلمون بوجودها. قال «بوزرك» بقلق: ألا تخشَى خيانة «عبيدك» يوماً ما؟

- لا أظُنّ أنك تعرفهم، هم لا يكلّمون أحداً مُطلَقاً سواي، ورئيسهم «الكابتن» علي مُتَفانٍ في خدمتي، وفضلاً عن ذلك يعرف كلُّ واحد منهم أنّ مصيره الموت إذا تكلّم، وأنا واثق بهم.

- أوَلا تظنُّ أنّه يمكن للضحايا الذين ستخُصُّهم بالجَنّة أن يكتشفوا لغزك؟ قال «أبو علي».

- من أجل ذلك وقع اختياري على شُبّان لا خبرة لهم. لا أحد منهم سبق له أن وقع في حُبِّ النساء، فليس أفضل مِن شابٍّ عُذريٍّ، وحدها المرأة تستطيع أن تصنع من الرجل رجلاً كاملاً.

- ومَن هم هؤلاء الفتيان؟.

اكتفَى «الحسن» بالابتسام.

- الفدائيون؟

- ها أنت قد عرفتهم..

أعقب ذلك صمتٌ مُطبِق، وفي الوقت الذي كان «الدّايات» غارقين في تأمُّلاتهم، كان «الحسن» يرمقهم بنظرة ساخرة.

- كما علمت، خسرنا هذا الصباح ثلاثين قتيلاً من رجالنا في القتال مع طلائع السلطان، وإذا ما اشتبكنا مع كامل جيشه سنهلك جميعاً. من أجل هذا أحتاج إلى أبطال يرتجف أمامهم المُلوك والأمراء. لقد استدعيتكم لأُبيِّن لكم كيف يمكن تنشئة مثل هؤلاء الرِّجال، سوف تشهدون معي هذه الليلة اختباراً حقيقيًّا لكيفيّة تحوُّل الطبيعة البشريّة. أنت، يا «أبو علي» بحُكم معرفتك الدقيقة بالفدائيين اختر ثلاثة أسماء يتمايزون بطبعهم وأهليَّتهم ويجسِّد كُلُّ واحد منهم أُنموذجاً محدَّداً. علينا أن نحدِّد أيَّ نوع من الرجال تحتاجه مخطَّطاتي.. ثلاث حدائق بانتظار هؤلاء الزُّوار.

امتقع لون «أبو علي» وهو ينظر إلى «الحسن».

- ماذا تقصد يا ابن الصّباح؟

- أذكُر أسماء ثلاثة فدائيين يتمايزون بطباعهم بشكلٍ ظاهر. تفرَّس «أبو علي» في وجه «الحسن» كالأبله من دون أن يتمكّن من الإجابة.

- سوف أساعدك، مَن هو ذلك الشُّجاع الذي رغب في التصدِّي للتُّرك من دون انتظار الأوامر؟

- سليمان.

- مَن هو الأقوَى في المجموعة؟

- يوسف.

- حسناً، سيكون ثالثهم «ابن طاهر»، أتشوّق لمعرفة ردِّ فعله، فإذا لم يكتشف هو شيئاً، فلا أحد سواه قادر على اكتناهه أبداً!

بدأ العرق يتصبّب بارداً من جبين «بوزرك». كان يرغب في إرسال ابنه إلى مدرسة الفدائيين بحُكم ثقته المُطلَقة بالحسن، لكنّه الآن، محا هذه الفكرة من ذهنه، وهو لا يفكّر إلاّ بشيءٍ واحد، إبعاده إلى أقصَى مكان خارج «آلاموت Alamut». سوف يُرسله إلى سوريا، إلى مصر، إلى أيِّ مكان!. أمّا «أبو علي» فبدا مرتبكاً قلقاً تتملّكه الحيرة، لم يَخْفَ على «الحسن» ما حلَّ بصديقيه، فتوجّه إليهما بالقول:

- ما بالكما قلقَين؟ ليست الأمور بالسوء الذي تتصوَّران، وسوف أقنعكما بوِجهة نظري.. هيّا لنذهب إلى جَناحي، سوف نتنكّر ونزور جنّتنا كملوكٍ فعليِّين..

سبقهما «الحسن» إلى غرفة صغيرة ملاصقة لجناحه.. أحضر «عبدان» ألْبسةً مناسِبةً ثم أرسل أحدهما إلى «أباما» ليُعلِمها بقُرب قُدوم الرئيس.

استبدل الأصدقاء الثلاثة ألْبستهم بصمت وبمساعدة «العبد»، فارتدَوا جلابيب بيضاءَ من جلد الأيل ثم تدثَّر «الحسن» بمعطفٍ من الأرجوان، بينما ارتدَى الآخران معاطف زرقاءَ جميعها مطرَّزةٌ بالذهب والفضة، ثم وضع «الحسن» على رأسه تاجاً من الذهب مرصَّعاً بالحجارة الكريمة، بينما اعتمر «أبو علي» و«بوزرك» عِمامةً يعلوها مخروطٌ مذهَّب، ثم انتعل «الحسن» خُفّاً من الذهب، وصديقاه خُفَّين من الفضّة، وأخيراً تمنطق كلٌّ منهم بسيف مُتقَن الصَّنعة.

بانتهائهم من تنكُّرهم بهذه الأزياء هبطوا بدعوةٍ من «الحسن» داخل الغرفة المتحرِّكة إلى الأسفل.

بوُصولهم إلى الطبقة السُّفلَى، كان حرس الرئيس الشخصي بانتظاره بكامل أسلحتهم. أُنزل الجسر فتقدَّموا نحو ضفّة الماء حيث كان «العبيد» في انتظارهم في قوارب نقلتهم إلى مدخل الحديقة الأُولَى.

***

الفصل العاشر

الفتيات في غـرفهنّ يُـسْرعن في ارتـداء ملابـسهنّ والتـبرُّج اسـتعداداً لاستقبال الضُّيوف. «أباما» و«مريام» متوتِّرتا الأعصاب، فالمسؤولية تقـع على عاتقهنّ في أيِّ تكاسُل أو تأخير.

بعد جُهدٍ متواصِلٍ وعملٍ مُضْنٍ بدا الجميع في أجمل حُلَلِهـنّ، ينتظـرن الضيوف بأعصابٍ متوتِّرة.

فجأةً سُمع قرعُ الطُّبـول وزعيـق الأبـواق. حـرس الـرئيس يقـدّم لـه مراسم التكريم، وبعد لحظاتٍ أطلّ «الحسن» ورفيقـاه، فتقـدَّموا إلى وسـط الحديقة حيث كانت الفتيات في انتظـارهم بـشكلٍ نـصف دائـريّ وقـربهنّ وقفت «أباما» و«مريام». ابتـسم «الحـسن» للفتيـات، فتقـدَّمت منـه أبامـا ومريام وقبَّلَتا يده. نظر «الحسن» إلى صديقيه قائلاً:

- هل أعجبكما منظر الجَنّة؟

- لو أُرسلت في شبابي إلى هذا المكان حيث هـذه الحوريّـات لَما كنـتُ محتاجاً إلى حشيشك، تمتم «أبو علي». ابتدأ «الحسن» الكلام فقال:

- أيّتها الفتيات الجميلات، لا بُدّ أنّكُنَّ علمتُنّ ما هو المطلوب مـنكُنّ،

اعلمنَ إذاً أنّه لا رحمةَ مُطلَقاً لمن تخالف أوامري؛ وفي الوقت نفسه سأكون كريماً ومتسامحاً مع مَن تنفِّذ التعليمات بأمانة. هذا الصباح انتصر جيشنا على قوّات السُّلطان التي هاجمتنا باسم الخليفة المغتصب للسُّلطة، والقلعة كلُّها احتفلت بهذا الانتصار، والآن أزُفُّ إليكنَّ هذا الخبر لتشاركونا فرحتنا. الخمر وما ترَوْن رهن إشارتكنّ، لقد قرّرت أن أبعث إليكنّ هذه الليلة ثلاثةً من أبطالنا الذين «أبلَوا بلاءً مميَّزاً في القتال». استقبلوهم استقبال الزوجة لزوجها والحبيبة لحبيبها؛ امنحوهم الحبّ والدفء والحنان. إننا نقدِّم لهم هذا الفضل بتوجيه إلهي وهم يستحقّونه بكلِّ جدارة. هذه تعليماتي وهذه إرادتي.

ارتعدت الفتيات من الخوف وسقطت إحداهنّ أرضاً، فأومأ «الحسن» إلى مريام لإسعافها ثم سأل «أباما»:

- هل البساتين جاهزة؟

- أجل، بانتظار أوامرك، أجابت «أباما».

- ينبغي أن تقوم إحدَى الفتيات من كلِّ بستان بالإشراف على العملية وتكون مسؤولة عن نجاحها. مَن هنّ الأكثر جدارةً ومهارةً بينهنّ؟

- أختار فاطمة، أجابت مريام، فهي بارعةٌ وتُتقن كلَّ الفنون.

- حسناً، ومَن سواها؟

- سُليكة، هي الأولَى في الرقص، وفيما عدا ذلك فلا بأس بها.

- حسناً، إنَّها تناسب يوسف، ولتستقبل فاطمة سليمان، وأنت ستكونين الثالثة يا مريام....

امتقع لون مريام، فأجابت:

- لا بُدّ أنّك تمازحني يا سيِّدنا؟

- هذا ليس وقت المزاح، نفِّذي ما أمرتك به. «ابن طاهر» شابٌّ بصير كالقِطّ، وإذا ما أسلمته إلى سواك فربّما أمكنه اكتناه لُغزي.

ترقرقت الدموع في عينيّ «مريام»، الأمر الذي لم يكن ليغيب عن أنظار «أباما» التي انسحبت بهدوء يتنازع قلبها شعورٌ بالرِّضى والازدراء في آنٍ معاً.

قال «الحسن» ساخراً:

- مَن الذي أفصح لي يوماً أنّه لا شيءَ في هذه الدنيا مدعاةٌ للفرح، ربّما فقط لُعبةٌ خطِرةٌ تسمح بتبديد هذا الملل المُرعِب؟

- إذاً، أنت لم تُحبَّني مُطلَقاً، قالت مريام متنهِّدة!

- كنتُ بحاجةٍ إليك، ومازلت. الآن دعينا من هذا ولا أفهم علاقته بما طلبته منكِ.

- ما يؤلمني أنّك تلاعبت بعواطفي لأهدافٍ معيَّنة.

- مهما يكن، ما أطلبه منكِ فرصة لإثبات جدارتك، لن تحتاجي لكامل ذكائك ولا لكامل تجربتك ولا لكلِّ مفاتنك إذا أردت إقناع هذا الشابّ بأنّه فعلاً في الجنّة.

أذعنت «مريام» أخيراً لأوامر «الحسن» متعاليةً فوق جراحها وقالت:

- أنا على أتمّ الاستعداد.

- أشكرك.

توجّهت «مريام» إلى الفتيات وقالت لهنّ:

- عليكِ يا سُليكة اختيار سبع رفيقات واستقبال يوسف، واعتبري نفسك المسؤولة عن نجاح المَهمّة. ثم جاء دَور فاطمة فاختارت فريقها بدَورها وأُلحقت حليمة بهذا الفريق بعد توسُّل وإلحاح بناءً لتدخُّل الرئيس. لم يبقَ أمام «مريام» سوَى صفيّة، خديجة، ريحانة، جوديرة، ستيرا وطليفا، وقد شعرت أنّها الآن استعادت السيطرة على أعصابها وأنّها سيِّدة الموقف. نادَى «الحسن» المسؤولات ليزوِّدهنّ بتوجيهاته الأخيرة.

- سوف ينقل «العبيد» إلى هنا أبطالنا نياماً، عليكنّ إيقاظهنّ بعذوبةٍ ورفق وحذر، ابدأن بتقديم الحليب والثمار. قبل وصول الضيوف لتشرب كلٌّ منكنّ قدحاً من الخمر يكسبها الجرأة وليس أكثر، وعندما يصبح الشُّبّان سكارَى، يمكنكنّ عندها مشاركتهنّ الشراب ولكن بحساب. أخيراً انتبِهن جيِّداً لسماع إشارة الوداع، سوف يدُقُّ النفير ثلاث مرّات، في هذه اللحظة عليكنّ وضع حبَّةٍ صغيرةٍ ستُسلِّمها إليكنّ «أباما» في كأس كلِّ ضيف وهي كفيلة بجعل الشباب يغطّون في نوم عميق، وعندها يتولّى «العبيد» نقلهم بعيداً.

أنهَى «الحسن» توجيهاته ثم تفرّس في وجوه الفتيات وانحنَى قليلاً قبل أن يغادر. «أباما» و«عديّ» كانا في انتظاره قرب القارب، حيث وجّه إلى مريام تعليماته ودسّ في يدها عُلبةً صغيرةً قائلاً:

- سلّمي هذه للمسؤولات الثلاث ولا تظهري أمام الضيوف، لكنْ عليك مراقبة «مريام» فلا تدعيها تبقى منفردةً مع بطلها. ثم انصرف بمواكبة حرسه عائداً إلى قصره.

صرف «الحسن» صديقيه وصعد إلى أعلَى قمّة في البُرج الآخَر من القصر المخصَّص لحرّاسه من «العبيد». لدَى وصوله زعق البوق وهرول النقيب عليّ إليه وأعلمَه أنّ كلّ شيء جاهز.

استعرض «الحسن» عشراتٍ من «العبيد» العمالقة المصطفّين على امتداد الرِّواق بكامل أسلحتهم منتصبين جامدين وأنظارهم شاخصة بثباتٍ إلى الأمام. في كلِّ مرّة يقف هذا الموقف يستشعر الرهبة والخطر، لكنّ هذا الشعور على مرارته لا يخلُو من إحساسٍ بالزهو والخيلاء. إنَّه يعلم أنّ واحداً من هؤلاء فقط قادر، إذا ما انقلب ضدّه، أن يجعله يودِّع الدنيا، ومع ذلك فإنّ هذه الفكرة البسيطة لم تخطُر على بال أحدٍ منهم. لماذا؟ لماذا يطيعونه هذه الطاعة العمياء؟ هل يمارس سلطاناً معيَّناً على الناس؟ القوّة الفكرية، هذا ما يُسِرُّه دائماً في نفسه. إنّه السلاح الوحيد القادر على تطويع هذه «البهائم المخصيّة»، وفيما خلا ذلك فهم لا يخافون شيئاً في هذا العالَم. بعد أن أتمّ استعراض حرّاسه انتحَى بالنقيب وأصدر إليه أوامره: بعد الصلاة الأخيرة، عليك ملاقاتي في الكهف مع عشر رجال حيث أكون قد استقدمت ثلاثة شُبّان نياماً، فتقومون بنقلهم على محفّاتٍ إلى الحدائق حيث يكون عديٌّ بانتظاركم، فيُعلمكم بأسماء هؤلاء الشَّباب ويحدِّد لكم الوجهة التي يُفترَض عليكم اتّباعها. في أثناء الطريق، إذا ما تقلّب أحدهم في أثناء

نومه، أو سمعتم أنينه فلا تقلقْ، ولكن إذا ما شعرت أنّ أحدهم بدأ يستفيق من نومه فعليكم خنقه من دون ضجّةٍ على الفَوْر. خلال العودة اتّبعوا التدابير نفسها. هل كلُّ شيءٍ واضح؟

- أجل، كلُّ شيء مفهوم سيِّدنا.

- بعد الصلاة الأخيرة! واضح؟

ثم حيّا النقيب بإيماءةٍ من يده وقفل عائداً إلى بُرجه.. مساءَ ذلك اليوم كان الطبيب وأبو سُراقة جالسَين على سطح غرفة الحريم الخالية أمام موقد كبير تتأجّج ناره وتفوح منه رائحة الشِّواء وإلى جانبهم قربةٌ من الخمر. كانا يتناولان طعامهما بلذّة وانشراح ويتأمّلان من خلال الأشجار القريبة الصخب الذي يُسمَع من الأسفل أمام القصر. بينما هما يستمتعان بالطعام الشَّهيّ والخمرة المعتّقة انضمّ إليهم بغتةً «أبو علي» فألْقَى التحية عليهما وأعلم «أبو سراقة» بأنه جاء يبحث عنه ليكلِّفه بمَهمّة إبلاغ كلٍّ من سليمان ويوسف وبن طاهر أنه سيكون بانتظارهم بين الصلاة الرابعة والخامسة في جناح الرئيس الأعلَى، وأنّ عليهم بالتالي الاستعداد لهذه المناسبة الفريدة وأن يهيِّئوا أنفسهم لها كما يجب، ثم استأذنهما وانصرف..

عمّت بلبلة كبيرة لدَى الفدائيين عندما علموا أنّ ثلاثةً منهم سيقابلون هذا المساء الرئيس الأعلَى. الجميع بدأوا يتساءلون عن مغزَى هذه الزيارة وفحواها.

- إنّ سيِّدنا يريد مكافأة الذين أظهروا بسالةً في القتال، قال «ابن وقّاص».

ارتدَى الفدائيون الثلاثة جلابيب وسراويل بيضاء ضيِّقةً واعتمروا طرابيش حمراءَ كبيرةً، ثم ظهروا أمام رفاقهم بكامل أناقتهم. عندما وصلوا أمام باب جناح الرئيس كان «أبو علي» بانتظارهم، ولاحظ بعض أمارات القلق باديةً على وجوههم فقال في سِرِّه:

«لو يدرون إلى أين هم ذاهبون»!

- هيّا، يبدو عليكم التوتّر، عندما تدخلون انحنوا بإجلال، وابقوا هكذا إلى أن يأمركم سيِّدنا بالوقوف، وعلى مَن يتوجَّه إليه بالكلام أن يتقدَّم ويقبِّل يده باحترام، ولْتكن أجوبتكم عن أسئلته مختصَرة وصادقة، وتذكّروا أنّ سيِّدنا يقرأ ما في نفوسكم! تسلَّق الفدائيون سُلَّم البُرج، ولدَى وصول سليمان إلى أعلاه كاد أن يصطدم «بالعبد» القائم بالحراسة، فقفز إلى الخلف وحاول إخفاء خوفه متظاهراً بالتفتيش بين قدميه عن شيء أضاعه. بوصولهم إلى الأعلَى دخلوا إلى غرفة جانبيّة والاضطراب يعتصرهم.

فجأةً، رُفعت ستارةٌ وسمعوا صوتاً قويًّا يقول:

- ادخلوا!

«أبو علي» يسير في الطليعة وخلفه سليمان يتبع خطاه بشجاعة، وخلفه يوسف تصطكّ أسنانه ثم «ابن طاهر».

قريباً من «بوزرك» الذي يعرفونه شاهدوا رجلاً واقفاً مرتدياً بُرنُساً رماديًّا بسيطاً وعلى رأسه عمامةٌ بيضاء. لم يكن بالرجل الكبير ولا يبدو مخيفاً ولا صارماً. ذلك الرجل هو الرئيس الأعلَى، زعيم الإسماعيليين الخَفيّ.

تسمَّروا الواحدُ تِلوَ الآخَر وانحنَوْا.

- حسناً، حسناً، يا أصدقائي، قال الرئيس يدعوهم للوقوف، ثم اقترب منهم مبتسماً ليُخفِّف عنهم وطأةَ اللِّقاء. علمت بشجاعتكم وببسالتكم، لقد تصرَّفتم بجَرأةٍ وإقدام أمام طلائع السُّلطان، وإنّي قد استقدمتكم إلى هنا لأكافئكم على ولائكم.

- «أنت يا «ابن طاهر»، والْتفت نحوه، لقد استهوتني قصائدك ولكنّي أُعجِبتُ بنوع خاصّ بنجاحك بانتزاع الرّاية؛ أمّا أنت يا سليمان فقد أعطيت الدليل على أنّك مقاتل جَسور لا يخشَى شيئاً ويتراءَى لي أنّك سيّافٌ بارع. ونحن بحاجةٍ إليك. كذلك أنت يا عزيزي يوسف، تابع كلامه مبتسماً، إنّي أعلم أنّك تنوي مطاردة الهراطقة كالليث، فَلَكَ منّي كلُّ تقدير، ثم مدّ يده لكلٍّ منهم بسرعة كادت لا تكفي ليقبّلوها. عيون الفدائيين تلتمع في وجوههم فخراً واعتزازاً. كيف تمكّن من معرفتهم بهذه الدِّقّة من دون أن يراهم سابقاً؟ هل هو أبو علي مَن حدَّثه عنهم تفصيلاً!

تنحَّى الدّايات جانباً وعلى وجوههم أمارات الفضول، ودنا «الحسن» قليلاً من الشُّبّان ثم قال:

- بالأمس، اختبرنا معارفكم وعلمكم، وبعدها بساعات أثبتُّم في ميدان المعركة بسالتكم واندفاعكم، يبقَى ما هو أهمُّ من هذا وذاك، يبقَى أن نتأكّد الآن من عُمق إيمانكم وصلابته. ثم رفع رأسه ووقف أمام يوسف وجهاً لوجه:

- هل تعزِّز ما تعلَّمته على يدِ أساتذتك بالإيمان العميق؟ الإيمان برئيسك الأعلَى وبالقضيّة العُليا.

- عميق الإيمان، أيُّها الرئيس!

كان صوت يوسف خجولاً، ولكنه يعبِّر عن اقتناع راسخ.

- وأنتما، يا «ابن طاهر» وسليمان؟

- نعم، سيِّدنا، الإيمان المُطلَق.

- هل تؤمن يا يوسف أنّ الشهيد عليّ هو الوريث الشرعي للنبيّ؟

- مُطلَق الإيمان، سيِّدنا.

- وأنت يا سليمان، هل تؤمن أنّ ولديه «الحسن» والحسين قد نُحُّوا ظُلماً عن خلافته؟

- أؤمن بذلك من دون أيّ شكٍّ، سيِّدنا.

- وأنت يا «ابن طاهر»، هل تؤمن أنّ إسماعيل هو سابع وآخر إمام؟

- أجل، سيِّدنا.

- وهل تؤمن أنّ المهدِيّ سوف يعود إلى الدُّنيا بصفة نبيّ ليؤكِّد الحقيقة ويحقِّق العدالة؟

- أجل، سيِّدنا.

- يا يوسف! هل تؤمن أنّ سُلطةً إلهيّة قد وُهِبتُها مِن لدَى الباري؟

- أجل، سيِّدنا.

- سليمان! هل تؤمن بأنّ كلَّ ما أقوم به، إنّما أقوم به بتكليف من الله؟

- أؤمن بذلك، سيِّدنا.

- هل تؤمن يا «ابن طاهر» أنّ سُلطةً مُنحت لي لأُدخِل مَن أشاءُ إلى الجَنّة؟

- أجل، سيِّدنا.

استمع «الحسن» إلى جواب بن طاهر بإصغاء، وتأكَّد من نبرة صوته صدقَه وعُمقَ إيمانه.

- الآن يا يوسف، هل إيمانك من الصَّلابة بحيث تُحِسُّ مُتعةً إذا ما طلبتُ إليك الصُّعود إلى أعْلَى البُرجِ لتقفز في الفراغ وتصعد بعد ذلك فوراً إلى الجنّة؟

امتقع وجه يوسف وابتسم بارتباك ثم تطلّع باتّجاه «الدّايات» وبعد تردّد لبعض الوقت، أجاب:

- أجل، سيِّدنا.

- حسناً، إذا أمرتك في هذه اللحظة بالذّات، أن تصعد إلى أعْلَى البُرج وقُلت لك: اقفز إلى الأسفل! يا عزيزي يوسف، أنا أقرأ داخلك، إيمانك أضعف من أن تفعل ذلك. وأنت يا سليمان هل تستمتع بأنْ آمرك بذلك لو كنت مكانه؟

أجاب سليمان بصوت حازم:

- أجل، سيِّدنا.

- حسناً، إذا أمرتك على الفور بذلك؟ لقد بدأ وجهك بالشُّحوب، أُحِسُّ بإيمانك متأرجِحاً. من السَّهل الإيمان بأشياء لا تتطلّب تضحياتٍ جِساماً، ولكن عندما يتعلّق الأمر بالتضحية بأرواحنا بفعل الإيمان فهذه قضية أُخرَى.

استدار «الحسن» نحو «ابن طاهر» وقال:

- نحن ننظر إليك كشاعر، هل تؤمن أنّ مفتاح الجَنّة بعُهدتنا؟

أؤمن بذلك إيماناً راسخاً، سيِّدنا، وأنّك تملك القُدرة على إدخال مَن تراه جديراً إليها.

- ولكن، ما هي برأيك ماهيّة هذا المفتاح؟ إنّي أسألك عن هذه الناحية تحديداً؟

- أحاول بكلِّ جَهدي تقدير ذلك، ولكنّي أعترف بعجزي عن معرفة طبيعته.

- اختصاراً لِما قلته، أنت تؤمن بكلّ ما يتعلّق بعليّ والأئمّة، وهذا كلُّ شيء! أعلن الحسن؛ ولكننا هنا بحاجةٍ إلى أتباعٍ يؤمنون بكلِّ ما تلقِّنهم إياه مؤسَّستنا! خيَّم صمتٌ مُهيب وبدأت ترتجف أوصال الفدائيين وانساب عرقٌ باردٌ على جباههم.

استأنف «الحسن» كلامه بصوتٍ أجَشّ قائلاً:

- بطريقة أو بأُخرَى، أحسبكم تخالوني كذّاباً؟

وهنا شحبت وجوه الشُّبّان فأجابوا:

- كلاّ، سيِّدنا، نحن نؤمن كلُّنا بك!

- وإذا أكّدتُ لكم أنّي فعلاً أملك مفتاح الجَنّة!

- نؤمن بذلك، سيِّدنا.

- مُطلَقاً، أقرأ ذلك في قلوبكم، تريدون أن تؤمنوا ولكنكم عاجزون عن ذلك، لماذا يا «ابن طاهر»؟

- أنت تعرف كلَّ شيء، وترَى كلَّ شيء.. إنّه من الصعب الإيمان بشيء لا يُقِرُّه المَنطِق... الرغبة والإرادة تريدان ذلك، ولكنّ العقل يمانع ويستعصي عليه الاقتناع.

- إنّك صادق، وهذا يروق لي، ولكن ما رأيك لو رفعتك إلى الجَنّة وجعلتك تلمسها بيديك وتشاهدها بعينيك وبِكُلِّ حواسّك؟ هل تؤمن عند ذلك؟

- كيف يسعُني أن أرتاب عندها، سيِّدنا؟

- هذا مدعاةُ سروري. لقد تميَّزتم في القتال، ولكنّي أعرف أين مكمن ضعفكم... لقد استدعيتكم هنا لأساعدكم على تجاوُز هذا الضَّعف، ومِن أجل أن تزدادوا قوّةً ورسوخاً في إيمانكم! ولهذا استقرّ رأيي على أن أفتح لكم هذه الليلة باب الجَنّة...

تجلّت دهشةٌ لا تُوصَف في عيون الفتيان، وداخَلَهم شعورٌ من الخوف والشَّكّ، ولم يصدِّقوا مسامعهم.

- ما بالكم تنظرون إليّ هكذا، أفلا يجدُر بكم أن تغتبطوا كَوْني قرّرت مكافأتكم؟

- هل قلتَ إنّنا... تلعثم «ابن طاهر» وعجز عن متابعة الكلام.

- أجل، قلتُ لكم إنّي سأفتح لكم باب الجنّة، وأنا أؤكّد ذلك، هل أنتم مستعدّون؟

إذْ ذاك، شعر الفتيان بقوّة غريبة غير مرئيّة تدفعهم للسُّجود، فلامَسوا الأرض بجباههم عند أقدام «الحسن»، ومكثوا جامدين في أماكنهم.

رمق «الحسن» صديقيه الواقفَين جانباً، واللّذَين ارتسم على محيّاهما توتُّر غامض، ثم أمر الفتيان بالوُقوف فامتثلوا، وتناول سراجاً من المشكاة وتقدَّمهم إلى شُرفةٍ صغيرة حيث تُوجَد بشكل مستور «الصندوقة المتحرِّكة». داخلها شاهدوا ثلاثة أسِرّة مغطّاة بسجّاد يتدلّى حتى الأرض.

- تمدَّدوا فوق هذه الأسِرّة، قال لهم.

بعد ذلك سلّم «الحسن» القنديل إلى «أبو علي» وأعطَى «بوزرك» قُربةً ملأى بالخمر، أمّا هو فقد تناول من الرَّفّ علبة مذهّبة وفتحها ثم دنا من الفدائيين المستلقين فوق الأسِرّة شاحبي الوجوه يرتعدون من الخوف وقال:

- إنّ طريق الجنّة طويلة وشائكة، وأنتم تحتاجون إلى الغذاء والخمر، ثم وضع في فم كلّ واحد منهم حبّةً صغيرةً أخذها من العُلبة المذهَّبة. وجد يوسف صعوبةً في ابتلاع الحبّة، أمّا سليمان وابنُ طاهر فقد ابتلعاها ووجدا مذاقها لذيذاً سُكّريًا، أعقبه مرارةٌ قويّة، ولكي يخفِّفوا من وطأة هذه المرارة أمرهم «الحسن» باحتساء الخمر، ثم راح يراقبهم بحذر شديد.

بتأثير الخمرة القويّة التي لم يعتادوا عليها، وبفعل ذلك القُرص السحريّ، تراخت أوصال الفتيان، وبدأت تتراءَى أمامهم مئات الصُّوَر العجيبة والأشباح الغريبة ثم راحت هذه الأخيلة تتلاشَى تدريجيًّا وغطّوا بعدها في نومٍ عميق.

عندما تأكّد «الحسن» من إغفائهم، غطَّى أجسامهم بكاملها بأغطيةٍ سوداء رقيقة، وبإشارةٍ منه، بدأت «الحُجرة المتحرِّكة» تهبط إلى أعماق البُرج.

لدَى وصولهم إلى الأسفل، استقبلهم الحُرّاس، وأعطَى «الحسن» توجيهات سرّية إلى النقيب عليّ، ثم حُمل كُلٌّ على سرير من قِبَل «عبدَين» بالإضافة إلى «عبدٍ» ثالث مولَج بمراقبة الفدائيّ النائم بشكل دائم.

لم يتفوّه «أبو علي» و«بوزرك» بأيّة كلمة، وآثرا الانتظار حتى عودة الفتيان، لكنّ «الحسن» تساءل بصوتٍ خافت:

- كُلُّ شيء سار وفق الخُطّة المرسومة، أليس كذلك؟

- أجل، سار كلُّ شيء بانتظام، سيِّدنا!.

وهنا تنهّد «الحسن» تنهُّداً عميقاً ثم قال:

- فلنصعد إلى الأعلَى، يبدو الأمر كأنّنا نعيش إحدَى التمثيليات الدراميّة التي كان يقدِّمها اليونانيون على مسارحهم، حمداً لله، تمّ تنفيذ المرحلة الأولَى.

* * *

الفصل الحادي عشر

في الحدائق، أُنجزت كلُّ الترتيبات، الإنارة والزِّينة وتوزيع المَهامّ، وتحديد أمكنة استقبال الضيوف. كلُّ شيء بدا رائعاً. الفتيات يتبادلن النكات بقلق وتوتُّر. عندما وصل «العبدان» اللذان ينقلان سليمان نائماً إلى المقصورة الأولى حيث كانت فاطمة وفريقها، خيَّم على المكان صمتٌ تامٌّ. من دون أن يتلفَّظا بأيَة كلمة، رفع «العبدان» الشابَّ عن المِحَفّة ومدَّداه على فراش من الأرائك ثم انسحبا بهدوء ومعهما المِحَفّة. تأمّلت الفتيات الشكل المتمدِّد تحت الغطاء، كاتمات الأنفاس، ثم همست زينب في أُذن فاطمة: آن الأوان ربّما للكشف عن وجه الضَّيف النائم. تقدَّمت فاطمة على رؤوس أصابعها وكشفت الغطاء برفق، وما إن فعلت حتى جمدت مكانها مبهورةً مشدوهة. فاجأها جَمال الشابّ النائم فتلاحقت للتَّوّ في ذهنها أفكار وأحلام وصُوَر مختلفة. اقتربت بقية الفتيات بدَورهنّ من الفتَى وأبدَين إعجابهنّ بقسامته ووسامته..

بعد لحظات، بدأ الفتَى يتحرَّك ثم بدا كأنه يحاول النُّهوض، إذ فتح إحدَى عينيه ثم عاد فأغمضها، وعندما حاول أن ينظر حوله لمح أخيلةَ

فتياتٍ في وجوههنّ الفُضول والحياء. هزّ رأسه وتمتم بعض الكلمات غير المفهومة وغرق في النوم من جديد. جلست فاطمة على الأريكة إلى جانبه، ثم مدّت يدها متردِّدةً وبأطراف أناملها لامست وجهه.

انتفض سليمان ثم استدار واستقرّت يده ببطءٍ على ساقها، فأحسّت باللَّهَب، حاول النُّهوض وبذل جهداً ليفتح عينيه فأبصر أمامه شكل فتاةٍ تبدو كأنها ترتجف، ومن دون أدْنَى كلمة وبصورةٍ آليّة راح يعانقها ثم جذبها بقوّة نحوه. لم تنجح المداعبات مع الفتاة في إزالة حالة الخبل التي يعانيها، ومع ذلك لم يتمالَك نفسه فوطئها...

لم تستطع فاطمة استيعاب ما حصل وعندما استعاد الفتَى وعيه رأته ينحني فوقها متمتماً:

- لا عليكِ، أنا أعرف أنّ هذا ليس سوَى حُلُمٍ، وأنت رائعة الجَمال.

استجمعت فاطمة شجاعتها وهي تقاوم لـذّة النشوة التي بارحتها ونظرت إلى رفيقاتها. لقد فُضَّت عُـذريّتها. إنّما ينبغي التصرُّف، واجبها يقضي بذلك. استرجعت في ذهنها العقاب المخيف الذي أطلقه الرئيس إذا ما فشلنَ في المَهمّة، ثم دفعت بهدوء سليمان وقالت:

- ألا تخجل من نفسك، يا سليمان، أنت في الجَنّة وتكفُر!

- في الجَنّة!

دَعَكَ عينيه وجال ببصره مدهوشاً...

- ماذا... أين نحن؟

- مدّ يديه متلمّساً ما بقربه، لمس المخدّة، ولامس بأطراف أصابعه جسم فاطمة العاري. أمامه حوضُ ماءٍ تقدَّم منه وبلَّل يده.

- هل أنا حقاً في الجَنّة؟

لاحظ باقي الفتيات حوله ينظرن إليه من دون حركة.

قالت له فاطمة:

- وراءك طريق طويل، هل أنت ظمآن؟

- أجل.

أحضرت له سارة على الفور كوباً من اللبن الطازج فتناوله وشربه دُفعةً واحدة.

- تعالَ، أدعوك لتستحمّ، قالت له فاطمة.

- حسناً ولكنّي لا أودّ أن تنظر إليّ الفتيات.

سارة وزينب بدأن يضحكن، أمّا الباقيات فأدَرن ظهورهنّ له، غطَس سليمان في الماء وغمره سرور ظاهر. زال عنه الدُّوار ولم تبارحه الدهشة، وأصبح حضور الفتيات أمراً مألوفاً، ثم طلب منشفةً فأُحضرت له على الفور.

- أرغب أن أراكنّ تستحمِمن أنتنّ أيضاً.

بإشـارةٍ مـن فاطمـة، خلعـت الفتيـات ملابـسهنّ وغطّـسن في المـاء، حاولت حليمة الممانعة فألزمتها فاطمة بالاقتداء برفيقاتها. البنـات يغتـسلن ويصرخن ويضحكن وسليمان مُستَلْقٍ على الأرائك يراقبهنّ باستمتاع.

فجأةً، شعر سليمان بالجُوع وألْقَى نظرةً حوله فشاهد طاولاتٍ صـغيرةً عليها مـا لـذّ وطـاب مـن الأطعمـة. ارتـدت فاطمـة لباسـها عـلى عَجَـل وسارعت مع رفيقاتها لخدمته، فدُهشن لرؤيته ينقضُّ عـلى الطّعـام كـذئب يتضوَّر جُوعاً، ثم سكبْنَ له الخمر فراح يحتسيها بلذّة وانـشراح، متفرّسـاً في الفتيات يخطُرن أمامه. من جديد شعر بدُوار، أمـسك بــ«عيـشة» وجـذبها نحوه فلم تُبْدِ أيّة ممانعة، ثم انضمّت إليهما ليلَى من تلقـاء نفـسها وجلـست بقربه. هذا الطعام الشهيّ والشراب الذي يجلب النشوة في جوٍّ أُنثويّ فتّـان أذهله فقال:

- قسماً بلحية عليّ، إنّ سيِّدنا يقول الحقيقـة، لقـد وُهـب فعـلاً مفتـاح الجَنّة!

استسلم لرغباته فلم يوفّر عناقـاً ولمـساً وقـبلات، وفجـأةً رفـع رأسـه بحركة قلقة وقال:

- لستُ مَيْتاً كما أرَى؟

- لا تخشَ شيئاً، غداً سوف تكون من جديـد في «آلامـوت Alamut» بخدمة سيِّدنا.

- هل تعرفن سيِّدنا؟

- لا تنسَ أنّنا في الجنّة.

- أنتنّ إذاً علمتُنَّ بالقتال الذي جرَى حيث قهرنا الهراطقة!

- لا نجهل شيئاً من كلّ ذلك، أنت أوّل مَن طارد الأتراك وصديقك «ابن طاهر» هو الذي انتزع الراية من العدُوّ.

- ولكن، أين هما يوسف وابن طاهر؟

- إنهما في الجنّة مثلك، عندما تعودون إلى العالَم الآخَر، يمكنكم مراجعة المشاعر التي عشتموها في هذه المغامرة واستذكارها ومقارنتها. شرع سليمان - وهو تحت تأثير الخمرة- يتكلّم عن «آلاموت Alamut» وعن رفاقه، وعن المعركة مع التُّرك وحوله الفتيات يستمعن إليه بسرور بالغ. إنّه الوحيد في هذه الحدائق الذي سيفاخر برجولته، وهو إلى ذلك شابٌّ وسيم، وكلُّهنّ مفتوناتٍ به.

فجأةً، دوّى من بعيد صوت البوق ثلاث مرّات، صمتت الفتيات وسارعت فاطمة مضطربةً شاحبةً اللون لاستحضار القرص المخدِّر.

تساءل سليمان لدَى سماعه الصوت:

- ماذا يعني هذا النداء؟

ثم نهض مستطلِعاً فلاحظ أنّه يقف بصعوبةٍ على ساقَيه. حاول الخروج لتنشُّق الهواء عندما سمع فاطمة تدعوه لاحتساء كأسٍ قدَّمته له واستشعرت صعوبةً في إخفاء اضطرابها.

جلس سليمان فوق الأرائك وحوله الفتيات، فسألنه:

- ماذا ستروي غداً لصديقيك نعيم وعبيدة عن دخولك الجنّة؟

- نعيم وعبيدة؟ هذان التُّركيّان لن يصدِّقاني، ولكن إذا اتّهماني بالكذب فسينالان ما يستحقان.

شرب سليمان الخمرة دفعةً واحدةً. بعد لحظات سيطر عليه خَدَرٌ غريب فاستجمع ما تبقّى من قواه وعاد ليقول:

- ذكرَى، دعُوا لي شيئاً للذِّكرَى...

- لا ينبغي أن تأخذ معك شيئاً!.

أدرك أنّ فاطمة لن تتراجع، حاول بيده المخدَّرة أن يمسك بقبضة حليمة فانزلق سوارٌ ذهبيٌّ في كفِّه، خبّأه تحت عباءته وغطّ في نومٍ عميق...

لم ترغَب حليمة خيانته. كيف يمكنها ذلك، لقد أحبّته، ومن دون أن تتفوَّه بأيّة كلمة، ذهبت واستحضرت الغطاء الأسود وغطّت به الشابَّ النائم، الآن لم يعُد أمامهنّ سِوَى الانتظار.

... ليست الأشياء بحدٍّ ذاتها هي التي تستجلب لنا السعادة أو تجعلنا تُعساء، قال «الحسن» وهو يحلُم بصوتٍ مسموع، في الوقت الذي كان صديقاه يراقبانه ممدَّدَين على الأرائك،... إنّما هو فكرنا ومفهومنا لها والمسلَّمات الخاطئة التي نخادع أنفسنا بها.. البخيل مثلاً يخبّئ ثروته في مكانٍ يجهله الجميع ويتظاهر بالفقر أمام الناس، إلاّ أنه يستمتع سراً بثروته

المخبوءة، فإذا ما اكتشف جاره هذه الثروة واستولَى عليها، عندها ما الـذي يمنع هذا البخيل من الاسترسال في إحساسه بالسعادة طالمًا أنّـه لم يكتـشف اختفاء ثروته؟ وإذا ما أدركه الموت قبل أن يكتشف ما جرَى لثروتـه أسـلم الروح من دون أن يفقد الشعور بثروته! وينسحب الأمر نفسه على رجلٍ لا يعلم بخيانة امرأته، فإذا لم يكتشف ذلـك، استمرّ عـلى حُبّـه وهيامـه بهـا. لنفترض أنّ زوجته المصون هي الإخلاص بعينه، لكنّ ألْسنة السوء تناولتها وتناقلت الأفـواه أخبارهـا، إذ ذاك، لا بُـدّ أن يـنغِّص الأمـر حيـاة الـزوج ويدخله في دوّامة قاتلة من الشَّكّ. إذاً ليست الأشـياء والأحـداث منطلـق سعادتنا وتعاستنا، إنما هي مفاهيمنا التي يتمثّلها منهـا عقلنـا المتـأرجح. في كلِّ يوم نكتشف التغيير الـذي يطـرأ عـلى مفاهيمنـا فنـرَى الحقـائق باطلـة والأكاذيب حقيقة. إنّ سعادتنا لا ترتكز على قاعدة صُلبة؛ هل ثمّـة مَـدعاةٌ للدهشة أن يكون الرجل الحكيم لا مباليـاً ولا مكترثـاً بـشيء؟ وأن يكـون العوامّ من الناس هم السُّعداء؟!

– فلسفتك لا تروق لي، قال أبو علي متذمِّراً. صحيح أنّنا نخادع أنفسنا في الحياة، وأنّنا بإرادتنا ضحايا قناعات خاطئة، لكنّ هذا لا يعني التنكُّـر أو رفض أي سرور بحُجّة أنّ هذا السُّرور ينطلق مـن مرتكـزات كاذبـة؛ فـإذا انصرف المرء دائماً بوحيٍ من عقله فلا بُدّ له أن يقضِيَ عمره كلَّه في الشَّكّ..

– لماذا إذاً استنكرت بادئ الأمر إرسـال الفـدائيين إلى الجنّـة؟ أليـسوا سُعَداء؟ ما هو الفارق بين سـعادتهم الآن والـسعادة الحقيقيـة لمـن يرتـضي

جهله الحقائق الأساسية لهذا الوجود؟ أنا أعرف ما يُزعجك، ما يزعجك أنّنا ثلاثتنا نعرف ما هم يجهلوه. عليك أن تعلم أنّ سرورهم سيتحوّل فوراً إلى مرارة إذا ما ارتابوا بصدقيّتي وأنّني أنا الذي رتّبت لهم هذه المغامرة من دون أن يكون لهم أيُّ رأي فيها، أو إذا راودهم الشّك بأنهم ليسوا سوَى لُعبة، حجر شطرنج من دون أدْنَى إرادة بين يديّ، أو أنّهم ليسوا سِوَى أدوات تحرِّكها إرادةٌ عُليا، فكر متفوّق خلاّق ينفّذ مخطّطاً غامِضاً. فيما يتعلّق بي، يا أعزائي، مثل هذا الشّكّ يسمِّم حياتي في كلِّ يوم؛ أقصد بأن يكون ثمّة قدرةٌ أو قوّة فوقنا تملك رؤية واضحة لهذا الكون والمكان الذي نحتله فيه، وإمكانية معرفة كلّ ما نجهل وحتى ساعة موتنا وبكلمة واحدة كلّ ما ينغلق على إمكاناتنا الفكرية. مَن ذا الذي يمتلك كلَّ هذه القُدرات ويستخدمنا ربّما بهدف التجربة والاختبار، يلعب فينا، بمستقبلنا وبحياتنا، بينما نحن لا نعدو كوننا أُلعوبةً بين يديه، ونظُنّ بغبائنا أنّنا بإرادتنا نحقّق مصائرنا. لماذا دائماً أصحاب الفكر هم الذين يسعَون يائسين لكشف أسرار الظواهر الطبيعية؟ وبالتحديد لماذا هم المفكّرون الذين يُشغَفون بالعُلوم سعياً وراء اكتشاف العالَم؟ لقد زعم الفيلسوف Epicure أنّ العالِم يتذوّق السعادة القُصوَى لو لم يكن يخشَى الظواهر السماوية المجهولة، وكذلك لُغز الموت، ولكن حتى لو عرفنا ذلك فلن يفيدنا هذا في شيء، فلا يمكننا تجاهُل هذا الخوف، أو على الأقلّ، لا يسعُنا تفسيره أو السيطرة عليه بطريقة أو بأُخرَى بالاعتماد على العُلوم ودراسة الطبيعة.

- فلسفة رائعة؛ علّق «أبو علي». إذا كنت قد استوعبت ما أفضتَ فيه، يمكن إيجاز ما قلت: إنّك في سرّك تجاهد لتعرف إذا ما كنت إلّهاً.

- لَم تبتعد كثيراً عن فكّ لغزي، قال «الحسن» وهو يتكىء على حاجز الشُّرفة، ثم أشار بيده إلى ناحية مُظلمةٍ في السَّماء تلتمع فيها آلاف النجوم بأنوار مترجرجة. انظر إلى السماء المترامية! مَن بوسعه إحصاء النُّجوم التي فيها؟ أيُّ فكرٍ بشريّ يمكنه فهم هذا؟. ومع ذلك كلُّ شيءٍ في هذا الوجود منظَّمٌ لغاية معيّنة كأنه مُوجَّهٌ بإرادةٍ عُليا؛ لا فرق إن كانت إرادة الله أو صنع الطبيعة؛ فنحن، مقارنةً مع هذا الكون الهائل الاتساع، تُعساء لا قيمة لنا. كنتُ في العاشرة من عمري عندما أدركتُ صغري إزاء هذا الكون المترامي. كم كابدت من عذاب، وكم من الأُمور قد تغيّرت منذ ذلك التاريخ! إيماني بالله وبالنّبيّ، عذوبة حُبّي الأول. لم تعُد زهرة الياسمين يسحرني عطرها كما في السابق، بقي الانبهار أمام الكون الهائل والخوف الذي تثيره لدي ظواهر الطبيعة ماثِلَيْن على الدوام في فكري لا يبرحانه. إنّ إدراكي، أنّ أرضنا ليست سوَى حبّة تراب في هذا الفضاء وأنّنا نحن لسنا سوَى حشرةٍ صغيرة، يعتصرني ألَماً ويأساً.

كفَّ «الحسن» عن الكلام لدَى سماعه «بوزرك» يتكلَّم عمّا رآه في الحديقة إذ شاهد الفدائيَّ الثاني يستفيق من نومه مُحاطاً بفتياتٍ فاتناتٍ يرقصن حوله. تقدَّم الثلاثة من حاجز الشُّرفة لمُشاهدة ما يجري.

عندما رفعت «سليكة» الغطاء الأسود الذي يغطّي الشبح النائم، كـتم الجميع أنفاسهنّ. قبل لحظات كـان «العبـدان» قـد وضـعا المِحَفّـة وعليهـا يوسف غارقاً في نوم عميق. دهشت «سليكة» عندما رأت قـدَمَين كبيرتَـين تتجاوزان الغطاء بمقدارٍ ملموس، وازدادت دهشتها لدَى رؤيته بمثل هذه الروعة والجمال.

- أيُّ عملاقٍ هذا، بوسعه أن يخبّئ فتاةً تحت ذراعيه! همـست إحـدَى الفتيات.

تقدّمت «سليكة» وجلست قرب الفتَى تتأمّله بدهشةٍ وإعجـاب، ولمّـا تحقَّقت أنّه لا يزال يغُطُّ في نومه، طلبت من الفتيـات أن تأخـذ كـلُّ واحـدةٍ منهنّ آلةً موسيقيّة ثم بدأنَ يعزفن ألحانـاً شـجِيَّةً ويتراقـصن بانـسجام مـع الأنغام بخفّة ورشاقة.

بدأ الفتَى يستفيق من نومه، حاول النهـوض وأجـال طرْفـه، فتملَّكـه إعجاب بما رأى، لم يصدِّق عينيه، أحُلـم هـذا أم حقيقـة! تـساءل بـصوت مسموع.

اقتربت «سليكة» منه وجلست إلى جانبه وقالت له:

- أنت، يا يوسف لا تحلم، ولكنّـك دخلـت الجنّـة ونحـن الحوريّـات المُولَجاتُ بخدمتك.

لمسها يوسف بحذر، ثم نهض وجال حول الحوض، وهو ينظر بإعجاب إلى الفتيات، ومن دون أن يتفوّه بكلمة، عاد واقترب من «سليكة» وقال:

- أُقسم بكلِّ الشُّهداء، سيِّدنا كان على حقّ، وأنا لم أكن أُصدِّقه! ثم ارتمى على سريره تعِباً وفي فمه بقيّة من مرارة.

- أين يمكن أن يكون «ابن طاهر» وسليمان؟

- في الجنّة مثلك.

- أشعُر بالعطش.

أمرت «سليكة» باللّبن، أُحضر للتَّوّ فعَبَّ قصعةً مليئة.

- هل أنت أفضل حالاً؟

- أجل.

لاحظ يوسف في القاعة طاولات صغيرة عليها من المآكل ما تشتهي الأنفُس فأحسّ بالجوع. وهنا عرضت عليه «سليكة» أن يأخذ حمّاماً قبل الطعام، وبادرت على الفور إلى خلع ملابسه وعندما حاول الممانعة لفتت نظره بلطافة ورقّة بأنه في الجنّة وهنا كُلُّ شيءٍ مُباح ولا شيء يُسيء إلى الطهارة..

دَعته إلى الحوض وغطست وإياه في الماء ثم انضمّت إليهما الفتيات الأُخرَيات وبدأن يداعبنه ويغسلنه ويرشقنه بالماء في جوٍّ من المرح والسُّرور والضَّحك. بعد الاستحمام قُدِّمت له الخمرة فمانع في شُربها لأنّ الله حرّمها،

ثم تذكّر أنّ الخمرة في الجَنّة لا لغوَ فيها ولا تأثيم، فراح يَعُبُّ منها ما طاب، ويأكل من الأطعمة ما لم يذُق في حياته مثلها. ماذا يريد غير ذلك، السعادة تغمره، والسُّرور والفرح يُنعشان جوارحه.. جميعهنّ يتهافتن لإسعاده، هذه تقبّله، وتلك تعانقه، وهاتيك تداعبه والخمرة تدور بلا حساب.. هذه هي الجَنّة التي وعدنا بها سيِّدنا، لقد صدق في وعده، ولكن هل يمكن لسيّدنا أن يُدخلني إليها مرّة أُخرَى: سأل يوسف «سليكة»، فاضطربت ولم تُحِر جواباً، وتظاهرت بعدم سماعه وسارعت لتقديم كأسٍ أُخرَى له...

فجأةً زعق البوق ثلاث مرّات متتالية، توقّف الجميع عن الحركة، أصغَى يوسف إلى الصوت وتساءل عن مصدره، لكنّ «سليكة» بادرت إلى استحضار القرص ودسَّته على الفور في كأسه وما إن شربه حتى فقد وعيه وغطّ في سُباتٍ عميق. في أعلَى البُرج ما زال «أبو علي» مسترسلاً في إبداء مخاوفه...

- لا أدري أيُّها العزيز الصّباح، ما هي النتائج التي تتوقّع الحصول عليها من خلال هؤلاء «الحشّاشين» إذا ما كُلِّلت تجربتك هذا المساء بالنجاح، هل تظُنُّ أنّك ستشيّد قوّة مؤسَّستك وسلطانها على فدائيِّيك؟

- مِن دون شكّ، لقد درست جيداً مختلَف أنظمة الحُكم السياسية التي عرفها الإنسان على مرّ التاريخ، بمحاسنها وسيِّئاتها، فلم أجِد أيَّ حاكمٍ مستقلٍّ بشكل كامل. كانت العقبات الرئيسة التي واجهت الممالك على

اختلافها تتعلّق بالمساحة الجغرافية والزمن؛ الإسكندر المقدوني على سبيل المثال أخضع نصف العالَم بجيشه، ولكنَّ الموت عاجله قبل أن يحقّق كلّ طموحاته؛ وكذلك حكّام روما، اتّسعت إمبراطوريّتهم إلى أقاصي الأرض جيلاً بعد جيل، واحتلُّوا من الأراضي ما احتلُّوا، لكنّ الزمن في نهاية المطاف أنهى أسطورتهم. أمّا محمّد وخلفاؤه فقد وجدوا وسيلةً أُخرَى، إذ أوفدُوا إلى الممالك المعادية رُسُلاً كُلِّفوا مَهمّة التبشير والدعوة إلى الدِّين بالحُجّة والإقناع، وبعد نجاحهم النسبيّ بهذا الأسلوب هان عليهم قهر المعاندين وغلبتهم، وسقطت الممالك أمام زحف قوّاتهم كالثّمار الناضجة. أمّا حيث الإيمان القويّ والفكر المتين عند المسيحية مثلاً، فقد تحطَّمت حملاتهم العسكرية. لقد ابتكرت كنيسة روما آلية لولاية الكنيسة أكثر أماناً، إذ أنكرت عنصر الدم والنسب، واعتمدت على القُدُرات الفكرية الرُّوحية كأساس للأحقّية في زعامة الكنيسة خلافاً لِما اعتمده المسلمون من نظام للخلافة. وحده الذكاء المَقرون بالشَّجاعة يمكنه بلوغ القِمّة، إنّ تمسُّك الكنيسة بالقيم الرُّوحية التي تجمع بين مختلَف أتباعها في بوتقة متماسكة وهرمية دقيقة جعلها قوّةً ذات تأثير وسلطان. وهكذا تجاوزت الكنيسة مسألة الزمن ولكنّها لم تستطِع تخطِّي حاجز البُعد الجغرافي، فحيث لا وُجود لها، لا قوّة ولا تأثير لها. انطلاقاً من فَهمها لهذا الواقع لجأَت إلى محاورة أعدائها والبحث عن حلفاء أقوياء...

مِن جهتي، أتطلّع لبناء مؤسّسة قويّة بحدِّ ذاتها من دون الحاجة إلى

حلفاء. السائد حاليًا أنّ الممالك تتصارع وتتقاتل من خلال جيوشها وآلتها الحربية التي تحتلُّ أراضي الآخرين وتُخضع الحُكّام لسلطانها، ومن خلال هذا الاقتتال يموت مئات بل آلاف الجنود، ولا يُمَسُّ الرؤساء بأيٍّ سوء. إلى هؤلاء بالتحديد ينبغي أن نُوَجِّه ضرباتنا، فعندما نضرب الرأس يتهاوَى الجسد، والحاكم الذي يشعر أنّ حياته الشخصية في خطر، هو على استعداد لتقديم تنازُلات. تأسيساً على هذا يُصبح التفوُّق لصالح مَن يستطيع إلقاء الرُّعب في قلوب الحُكّام، ولتحقيق هذه الغاية لا بُدّ من الوسائل المناسبة، فالرؤساء دائماً يُحيطون أنفسهم بالحماية المناسبة تحسُّباً لأيِّ خطر يتهدَّدهم. ثمّة وسيلة وحيدة لا يسعُهم مواجهتها، هذه الوسيلة تتمحور حول وجود أناس مدرَّبين تدريباً عالياً لا يخافون الموت بل يطلبونه ويسعَون إليه. أن نُنشئ هكذا شُبّان، هذا ما تهدف إليه تجربتي هذا اليوم. أريد أن أجعلهم خناجر حيَّةً تخضع لنا خضوعاً تاماً بإشارةٍ واحدةٍ كي ينشروا الرُّعب والهلع في قلوب الناس والحُكام وأصحاب التيجان حتى لا يتجرَّأ أحد، مهما علا شأنه، على التصدّي لنا...

بعد هذا التوضيح والتفصيل لمخطَّطه، خيَّم سكون تامٌّ في الشُّرفة، ولم يجسُر أيٌّ من «الدَّايين» على النظر إلى «الحسن» لفترة، قال بعدها «بوزرك»:

ما قلته يا «ابن الصباح» واضح وبسيط، وفي الوقت نفسه مُرعب ومخيف، ويبدو لي أنّ مخطَّطك لا يمكن أن يكون ثمرةَ فكر بشري، فكرٍ إنسانيٍّ، وإنَّما هو طموح خارق وخيال مجنّح وأحلام خرقاء لا علاقة لها بالواقع.

ضحك «الحسن» وأجاب:

- لديّ انطباع أنّك تحسَبُني مصاباً كما اتُّهمت سابقاً.

- ربّما كنت على صواب فيما لو كنّا على يقين أنّ فدائييك سوف يتحوّلون إلى آلةٍ في يدك كما تحلُم، قال أبو علي، لكن كيف يسَعُك إقناعي بإمكانية تدريب كائن حيٍّ على طلب الموت أملاً بدخول جنّة موعودة؟

- إنّ فرضيّتي لا تستند فقط على معرفتي بكُنهِ الطبيعة البشرية فحسب، بل أيضاً على دراسة الميكانيكية التي تحرِّك جسم الإنسان. لقد طوَّفت نصف أرجاء الدنيا على ظهر جواد أو بغلٍ أو جملٍ، أو سيراً على الأقدام أو عن طريق البحر، وتعرّفت إلى شعوبٍ مختلِفة، ودرست عاداتهم وتقاليدَهم وخلصت بعد ذلك إلى معرفة كلِّ تفاصيل النشاطات التي يمارسها الإنسان. انطلاقاً من كلِّ هذا يمكنني التأكيد بأنّ الآلية البشرية الجسدية والروحية باتت واضحةً تماماً لي ككتاب مفتوح. عندما يستفيق الفدائيون في القلعة، سوف يبدأون بالتحسُّر لكونهم ليسوا في الجنّة. سوف يعوِّضون هذا التحسُّر من خلال رواية مشاهداتهم لرفاقهم. بهذا يكون مفعول «الحشيشة» قد أدّى دَوره في أجسامهم وأيقظ لديهم الرغبة الجامحة في العودة إليها مجدَّداً. لن يسَعَهم نسيان طعم الملذّات التي تذوَّقوها والحوريات اللواتي كنّ في خدمتهم برقّتهنّ وعذوبتهنّ وجمالهنّ، فيتحرَّقون شوقاً لاستعادة ما فقدوه. عندها وفي هذه اللحظة نُقدِم على مواساتهم

ووعدهم بدخول الجنّة مجدَّداً بعد أن نطلب إليهم تنفيذ مَهمّة معيّنة. حينها سوف ينطلقون لتنفيذ ما أُمروا به ساعِينَ للموت في سبيل إنجازه أملاً بالوعد المقطوع لهم..

في هذه اللحظة وصل «عبدٌ» إلى الشُّرفة، وقال للرئيس الأعلَى:

- سيِّدنا! «أباما» ترجوك أن توافيَها إلى الحديقة.

- حسناً.

انسحب «الحسن» لبعض الوقت... وعندما رجع أعلمهما بصوت مضطرب أنّ أمراً ما قد حصل والأُمور لا تسير مع «ابن طاهر» كما هو مأمول، ثم ارتدَى معطفه ودلف إلى الممرّ الذي يؤدّي إلى أسفل البُرج..



الفصل الثاني عشر

استُقبل «العبيد» الـذين ينقلـون ابـن طـاهر بـصمت يحـاكي صـمت القبور؛ وضعاه على الأرض من دون أن يتفوَّهوا بأيّـة كلمـة، ثـم انـصرفوا ومعهم المِحَفّة.

التصقت صفيّة بخديجة ونظرها ثابت على الشكل الجامد الذي يرسـم ملامحَ شكله الغطاءُ الأسود؛ أمّا الفتيات الأُخرَيات فكُنّ متحلِّقات حـول الحوض، في حين كانت مريام تُمسِك بقيثارتها وعيونها شاخصةٌ إلى الضيف. تحرَّك الجسد تحت الغطـاء، فكتمـت الفتيـات أنفاسـهنّ، طلبـت مريـام إلى إحدَى الفتيات رفع الغطاء، فما كادت تفعل حتى صُعقت بـما رأت: خـدّان أسيلان وردِيّان، وجه مـستدير يظلِّلـه زغـب خفيـف يعلـوه شـعر كثيـف قصير، وشفتان حمراوان منقبضتان.

– أهذا هو الشاعر «ابن طاهر»؟ همست خديجة، هـل هـذا هـو الفتَـى الذي انتزع الراية من التُّرك؟ كم هو جميل!

قامت مريام بدَورها لتتأمّل الفتَى النائم، فعَلَت وجهها، لـدَى رؤيتـه، ابتـسامة غامـضة، لم تكـن تتـصوّر أن يكـون ضـحايا «الحـسن» مـن هـذا

الصنف، إنه الشاعر البطل؛ إنّه فعلاً فتًى صغير، أسَرَّت في داخلها؛ هل ستتمكّن من إقناعه أنّه في الجَنّة؟ أقلقها هذا التساؤل. إنّ المَهمّة التي أوْكلها إليها «الحسن» تُسبِّب لها الإرباك. من المؤكّد أنّ سيِّدهم يجهد ليبدوَ أمامهم بمنتهَى الغموض. ما مِن شكّ أنّه يملك قدرةً سحريّة، ولكنّ نظراته يتراءَى فيها بعض ملامح الجنون أو الغموض الغريب. ها هو الآن يضع ماكينته قيد العمل، ألم تكن بدَورها إحدَى أدواته الأساسية، أليس طيشها وعبثها ما دفعاها لأن تكون في صُلب مشاريع هذا الرجل الفريد؟ كيف لا، وكانت شغوفة بأيّة لُعبة كبيرة؟

واقع الأمر أنّ «الحسن» هيّأ لها الفرصة المناسبة الوحيدة لتستعيد حياتها..

صاحت صفيّة:

– ليس من السَّهل إدخال هذا الفتَى إلى الجَنّة.

– هيّا آن أوان الغناء والرقص، قالت مريام، ثم اقتربت من الفتَى النائم وراحت تتأمّل وجهه الفَتِيّ، وتقاسيمه اللَّدنة الصافية التي تنِمُّ عن نُبل نسبه، ثمّ لامست بيدها كتفه فانتفض قليلاً وتمتم بضع كلمات غير مفهومة.

نادته باسمه بصوتٍ خافت، فرفع رأسه للتّو وجلس، وبدأ يفرك عينيه ثم أجال نظراً مضطرباً حوله وقال:

– ما كُلُّ هذا؟

كان صوتاً مرتجفاً خائفاً.

أقلعت الفتيات عن الغناء والرقص، وبدت على وجوههنّ ملامح التوتُّر والفضول.

قالت «مريام»:

- أنت في الجنّة يا «ابن طاهر».

فتح الفتَى عينيه ثم ما عتم أن ارتمَى على الأرائك وقال متمتماً: - إنّي أحلُم.

- هل سمعتِهِ؟ قالت خديجة قلقة، يرفض أن يصدِّقك. لكنّ رأي مريام كان خلاف ذلك، فالبداية تبدو مشجِّعة، لذا عادت ولامست كتفه ونادته باسمه.

تأمّل الفتَى وجه «مريام» وارتجفت شفتاه وارتسمت في عينيه ملامحُ دهشة هي أقرب ما تكون إلى الخوف، ثم تأمّل جسمه وتحسَّسه غير مُصدِّق، وتفحَّص القاعة حوله ثم وضع يديه على عينيه، كان وجهه شاحباً بلون الشمع.

- هذا لا يمكن أن يكون واقعيًّا، قال متمتماً، هذا جنون أو سحر!

- هذا كُفر يا «ابن طاهر»! أهكذا تكون الثقة بسيِّدنا؟

قالت مريام وهي تبتسم له ابتسامةً فاتنةً يغشاها عتابٌ رقيق.

نهض «ابن طاهر» وقام يتحسَّس ما حوله، اقترب من الحائط ولمسه ثم دنا من الحوض وبلَّل يده بالماء ونظر إلى الفتيات نظرةً ملؤها الخوف، ثم استدار نحو «مريام».

- إنّي لا أفهم، قال بصوت مرتجف، تلك الليلة استدعانا سيِّدنا ودعانا لنأخذ قرصاً له مذاقٌ غريب، بعد تناوُله غفوت وحلمت أحلاماً غريبة، وها أنا الآن أستفيق في هذا المكان، ماذا يوجد في الخارج؟

- إنَّها حدائق، وأنت تعرفها لأنَّك قرأت القرآن.

- أودُّ أن أزورها.

- سأقودك إليها، ولكن، ألا يحسُن أن تستحِمَّ أولاً ثم تتناول الطعام؟

- فيما بعد، يجب أن أعرف أولاً أين أنا؟

تقدّم «ابن طاهر» نحو الباب وأزاح الستارة، أمسكت «مريام» بيده وسبقته إلى الرُّواق. بوصوله إلى أعلَى الدرج الذي يؤدِّي إلى الشُّرفة، صاح مذهولاً لدَى مشاهدته منظر الحدائق المتلألئة:

- ما أروع هذا المنظر! بالتأكيد نحن بعيدون جداً عن «آلاموت Alamut»! ولا إخالني أتصوّر وجود شيءٍ بهذه الروعة في مناطقنا. لا بدّ أنّني غفوت طويلاً كي أجد نفسي في هذا المكان البعيد.

- ألا تخشَى أن تكون بقولك هذا قد جنحت إلى الكُفر يا «ابن طاهر»؟ فأنت لا تريد أن تقتنع أنَّك في الجَنّة. مئات الآلاف من السنين تفصلك عن عالَمِك، ومع ذلك فلن تكون قد عبرت سوَى ليلة واحدة عند رجوعك إلى «آلاموت Alamut».

نظر إليها محدِّقاً، ومجدَّداً تحسَّس كلَّ أنحاء جسمه.

- إذاً، أنا في حُلُم! ليست على كُلِّ حال المرّة الأولَى التي أقتنع فيها وأنا أحلُم أنني أعيش في حُلُم.

- هل تظُنُّ يا «ابن طاهر» أنني لست سوَى صورة من أحلامك؟ استيقظ! أنظر إليّ، إلمسني!

ثم أخذت بيده وجعلتها تنزلق على امتداد جسدها الفاتن.

- ألا تشعر أنّي مخلوقة حيّة مثلك؟

ثم أمسكت برأسه ونظرت عميقاً في عينيه فانتفض وقال:

- مَن أنتِ؟ قالها بصوت لا يخلو من الشَّكّ بما يرَى.

- أنا مريام، إحدَى فتيات الجنّة.

هزّ رأسه وقرّر النُّزول من السُّلَّم ثم سار على غير هُدَى على ضوء المشاعل الملوَّنة حيث تتطاير مئات الفراشات والخفافيش والهوامّ وإلى جانبه «مريام».

- ألم يحِن الوقت لتعود إلى رُشدِك؟ حاوِل أن تفهم أنك لست على الأرض بل في الجنّة.

في غَمرة هذا الليل الساكن سُمعت أنغامٌ وأصوات غناءٍ صادرةٍ عن المقصورة، توقّف وأصغَى!

- هذه الأصوات لا تبدو أرضيّة، وأنت تتصفين بصفات بشرية، فكيف يمكنني أن أتصوّر أننا في الجنّة؟

- هل تجهل ما ورد في القرآن؟ ألا تشير الآيات القرآنية إلى أنّ مباهج الجنة هي على صورة مفاتن الحياة الدنيا كي يشعر المؤمنون كأنّهم عادوا إلى ديارهم، ما يُدهشك في ذلك إذا كنت مؤمناً؟

- كيف يسَعُني أن لا أُدهَش؟ هل يمكن لإنسانٍ من لحمٍ ودم أن يدخل الجنّة؟

- وَفقاً لما تقول، هذا يعني أنّ النبيّ كذب علينا؟

- ألَم يعرُج النبيُّ نفسه من الأرض إلى السماء؟ ألم يظهر بلحمه وعظمه أمام الله؟ ألم يُعلّمنا أنّ الأموات يُبعَثون يوم الحساب؟ كيف يمكنك أن تأكل وتشرب الخمرة التي وُعدتَ بها كمؤمن إن لم يكن لك شفتان حقيقيتان.

- هذه الوعود للمؤمن لا تتحقّق إلاّ بعد الوفاة.

- هل تظُنّ أنّك ستصعد إلى الجنّة في الآخرة بطريقة أسهل من التي صعدت بها إلى هنا؟

- إنّ الله منح سيّدنا مفتاح الجنّة وهو قادر على فتحها لمن يشاء، هل تشُكّ في ذلك؟

- كم أنا أحمق! ما زلتُ مقتنعاً أنّني أحلُم؛ لكنّ كلّ ما أرَى، حواري معكِ، كلُّ هذا حيٌّ وملموس ومن الصعب أن يكون وهماً أو هلوسةً، إلاّ إذا كانت هذه الهلوسات واحدةً من...!

- فكرة خطرة! أسَرّت في نفسها «مريام».

- إنّ عنادك يُدهشني يا «ابن طاهر»، أنظر إليَّ جيداً!

في هذه الأثناء كانا يقفان تحت مشعل عليه رسمٌ لرأس نمر فاغر الفم بعيون لامعة. نظر «ابن طاهر» إلى المشعل المزركش ثم إلى وجه مريام؛ فجأةً راودته فكرةٌ مجنونة؛ ثمّة مَن يريد أن يهزأ منه. إنَّها لُعبة جهنّمية!

الْتمع في عينيه بريق قرار وحشيّ فصاح:

- أين سيفي؟

بغضبٍ عارمٍ قبض على كتفيّ الفتاة وقال:

- اعترفي أيتها الفتاة، إنّ كلّ هذا ليس إلاّ ضرب من السِّحر!

في هذه اللحظة سُمع عن قرب صوت الحَصَى في الممرّ وظهر شكلٌ قاتم انقضَّ بغتةً عليه وطرحه أرضاً، تملَّكه رُعبٌ قاتل، عُقد لسانه وأبصر فوقه عينان زرقاوان.

- أهريمان!

صاحت «مريام» وسارعت إلى الفهد تضمّه وتسحبه عن الفتَى.

- هل تصدِّقني الآن، كنتَ على وشك أن تزهق روحك.

ربض الحيوان المدجّن عند أقدام الفتاة، ونهض «ابن طاهر» غير مصدِّق ما رأى. هذا الخوف الذي انتابه كان حرِيًّا أن يُوقظه لو كان يحلُم، هل مغامرته إذاً حقيقية؟ ولكنه أين هو بالتحديد؟ نظر إلى الفتاة تنحني على الحيوان ذي الأقدام الطويلة الذي استسلم لمداعباتها بتودُّد ظاهر.

- في الجنّة لا مجال للعُنف يا «ابن طاهر»! ضحكت بهدوء ضحكةً نفدت إلى قلب الفتى. ماذا يضيره لو كان ضحيّة هلوسةٍ أو إذا كان يحلُم، فلا بُدّ له في النهاية من أن يستفيق من حُلُمه. إنّ ما يحياه غير طبيعي، رائع، هل من الضروري أن يكون حقيقيًّا؟ قد يكون مخدوعاً فيما يتعلّق بحقيقة الأشياء ولكنّه لا يمكن أن يكون مخدوعاً فيما يخُصُّ أحاسيسه وأفكاره.

نظر حوله، هناك في البعيد في ظُلمة الليل تراءى له كتلةٌ قاتمةٌ تشمخ نحو السماء كأنّها سُورٌ عظيم؛ تلك هي «آلاموت Alamut». سألها عن هذا الشكل الذي ينتصب كجدارٍ نحو السماء.

- هذه جدار «الأعراف» الذي يفصل الجنّة عن الجحيم.

- شيءٌ لا يُصَدَّق، قال متمتماً، كأنّي أرى ظِلاً يتحرَّك في الأعلَى.

- من دون شكّ، هذا ظلُّ الأبطال الذين ذهبوا إلى القتال بدافع إيمانهم، ولكن من دون موافقة أهلهم، وهم الآن ينظرون إلى حدائقنا بحسرةٍ وألم. ليسوا من أهل النار ولا من أهل الجنّة.

- أين هو عرش الله، أين هم الأنبياء والشُّهداء؟

- لا تتخيّلنّ أنّ الجنّة هي على شاكلة مملكة أرضية يا «ابن طاهر»، إنّ أبعادها لا حدود لها. هي تبدأ من هنا من جبل الأعراف وتترامَى عبر سبع فضاءات لا نهائية حتى سدرة المنتهَى. فقط من بين الأحياء النبيّ وسيّدنا يبلُغانها. أمّا أنتم فليس لكم إلاّ هذه المساحة.

- أين هما يوسف وسليمان؟

- إنّهما عند سفح «الأعراف» ولكنهما في حدائق أُخرَى. غداً، في «آلاموت Alamut» سوف تستمتعون بالحديث عن مغامرتكم وانطباعاتكم.

- أخبريني الآن، من أين لك كُلُّ هذه المعلومات؟

- كُلُّ حوريّة من الحوريّات خُلقت بطريقة مختلفة لأهداف متباينة. أنا شخصيًّا وهبني الله العلم والقدرة على تطويع المؤمن الذي تؤرِّقه رغبته في بُلوغ الحقيقة.

- إنّي أحلُم، إنّي أحلُم، تمتم «ابن طاهر»، ومع ذلك ليست الحقيقة أكثر وضوحاً من هذا الحُلُم، لكن أليس من المحتمل أن يكون كلُّ هذا ثمرة المهارة المميّزة لسيّدنا؟

- يستحيل إصلاحك يا «ابن طاهر». هل تظُنُّ أنّ بمقدور عقلك البسيط أن يسبُرَ أسرار الوجود! دَعنا الآن من هذا النقاش. آن الأوان لتعود، فالحوريات بانتظارك لتكريمك، ثم أطلقت «أهريمان» وأمسكت بيد «ابن طاهر» وهرولت وإياه نحو المقصورة.

بوصولها إلى أسفل السُّلَّم سمعت صفيراً خفيفاً غير بعيد عنها. من دون شكّ هي «أباما» التي كانت تسترق السمع إليهما وتريد الآن أن تكلِّمها، لذا تركت «ابن طاهر» يدخل الغرفة الزجاجية الكبيرة وعادت لتقابل «أباما». كانت العجوز في آخر الرّواق بانتظارها حيث بادرتها بالقول:

- أيروق لك أن تغامري برأسك! أهكذا تنفِّذين أوامر سيِّدنا! عِوَضاً عن أن تُسكِريه وتجعليه يفقد رُشده، تسترسلين في الحوار معه حول الله والجَنّة وسواها وهو في كامل قواه العقلية!.

- أنا أُدرك ما أفعل وأعرف ما عليّ القيام به.

- أتظنّين أنّك قادرة على إغواء رجل بهذا الأسلوب؟ يظهر أنّك لم تكتسبي شيئاً ممّا علّمتك إيّاه، وما قيمة «الحسن» والجمال والتبرُّج إذاً؟

- يُستَحسَن أن تغادري الآن، يا «أباما»، ربّما عاد فجأةً وشاهدك، وعندها يتلاشَى آخر أمل لدَيّ بإقناعه أنّه في الجنّة. رمَقتها «أباما» بنظرة يتطاير الشرر منها وشتمتها واتّهمتها بالفجور، ثم توارت خلف الأشجار المُلتفّة؛ أمّا مريام فرجعت إلى المقصورة على عجَل.

اغتنمت الفتيات في المقصورة غياب «ابن طاهر» ومريام فشربن أقداحاً من الخمرة تركت آثاراً ظاهرةً عليهنّ، فبدأن يهزجن ويرقصن ويغنّين وهنّ في غاية الانشراح والمرح. عندما رجعت مريام كفّت الفتيات عن الرّقص ولاحظت على وجه «ابن طاهر» ملامح قلق، فسارعت إلى إصدار تعليماتها إلى الفتيات للسهر على راحة الضيف ومساعدته على الاستحمام، لكن «ابن طاهر» رفض ذلك بعناد قائلاً:

- لن أستحِمّ مُطلَقاً أمام هؤلاء الفتيات.

دَعَت مريام الفتيات لمرافقتها خارج القاعة. عندما تأكّد «ابـن طـاهر» أنّه أصبح وحيداً، قفز من فوق فراشه، قَلَب الأرائك وراح يفتّش تحتها، ثم اقترب من طاولة صغيرة صُفّت فوقها الأطعمة، واشتمّ الفواكه من مختلف الأنواع؛ ثم اقترب من الستائر التي تغطّي الجدران ونظـر مـا وراءهـا فلـم يعثر على شيء يمكنه أن يـستدلّ منـه عـلى مكـان وجـوده. اجتاحـه إدراكٌ غامض؛ ماذا لو كـان فعـلاً في الجنّـة؟ كـلُّ مـا يحـيط بـه يغلّفـه الغمـوض والمجهول. كلُّ هذه الحدائق بأزهارها الغريبة، وكلُّ هذه الثمار، لا وجود لها في هذه المنطقة الجبلية والقاحلـة التـي تحـيط بــ«آلامـوت Alamut». هـل تكون تلك الليلة التي استدعانا فيها الرئيس الأعلَى إلى جناحه هـي اللُّغـز؟ إذا كان الأمر كذلك فليس ثمّة إلاّ احتمالـين: إمّـا أنّ هـذا الحُلُـم الكـاذب الذي أراه بعينيّ هو من صنع ذلك القرص العجيب الذي قدّمه لنا سيّدنا، وإمّا أنّ التعاليم الإسماعيلية هي حقيقة ويملك بالفعل سيّدنا القُـدرة عـلى إرسال مَن يشاء إلى الجنّة!

مضطرباً مشوَّشاً، خلع جلبابه وغطس في حوض الماء.

الماء مُنعشةٌ وحارّة، فتمدّد عـلى ظهـره واسـترخَى. لم يكـن يرغـب في الصُّعود من الحوض مع العلم أنّه يدرك أنّ الفتيات يمكن أن يعُـدن في أيّـة لحظة. فجأةً رُفعت الستارة عن المدخل وأطلّ وجه إحدَى الفتيات. عنـدما شاهدت «ابن طاهر» لم تُباغت بـل ابتـسمت لـه وعزمـت عـلى الـدُّخول، تتبّعتها رفيقاتها.

- متى تريد الخروج من الحوض، أعلِمنا كي نُحضر لك «بُرنُساً» لتُجَفِّف جسمك.. الفتيات يتنافسن للتودُّد إليه؛ ولكن عندما انضمّت إليهن مريام أحسَّت بانقباض في قلبها. طلب «ابن طاهر» إحضار رداءٍ ليلبسه بعد الاستحمام، فقدّمت له مريام كساءً من الكشمير، ارتداه ونظر إلى المرآة فبدا كأمير حقيقيّ؛ ابتسم وطرأ تغيُّر ملموس على مزاجه.

جلس على الأرائك، فتهافتت الفتيات لخدمته في أثناء تناوله الطعام، وشربت مريام نخبه، وبعد أن احتست عدداً من الكؤوس أحسّت بشعورٍ من السعادة واللامبالاة فرغبت في الضَّحك والكلام.

- أنت شاعر يا «ابن طاهر»، قالت وعلى شفتيها ابتسامةٌ ساحرة، لا تُنكر ذلك، نحن نعرف أنّك شاعر، نودّ سماع بعض قصائدك.

- مَن قال لكم ذلك؟ وعلا وجهَه الحياء، لستُ بشاعرٍ وليس لديّ ما أسمِعكنّ إيّاه.

- هذا تواضُع منك، نحن لا نرغب إلاّ إدخال السرور إلى قلبك.

- في الواقع، ليس الأمر كما تتصوّرين، لا يعدو ما كتبت سوَى بعض التمارين المدرسية.

- كما سمعنا، قصائدك تدور حول الحُبّ، قالت خديجة.

- كيف تتفوَّهين بهذا الكلام يا خديجة، قالت مريام، الا تعلمين أنّ «ابن طاهر» هو في خدمة نبيٍّ جديد وهو مقاتل مؤمن.

- مريام على صواب، قال «ابن طاهر»، وكيف نتغنّى بشيء لا نعرفه؟ ضحكت الفتيات، ولم يرُق لهنّ أن يتظاهر الفتَى بالعِفّة وانعدام التجربة.

نظر «ابن طاهر» إلى مريام وخامره تصوُّر لذيـذ. اسـتذكر الليلـة التـي سبقت المعركة عندما كان مستلقياً تحت أسوار «آلاموت Alamut» مفترشاً الأرض يتأمّل السماء الزرقاء بنجومها الساطعة؛ داخله شعورٌ عارمٌ يفـيض شوقاً إلى رفاقه الذين أحبَّهم، خصوصاً سليمان الذي يرَى فيه مثـال الجَـمال والرجولة، ودغدغت أحلامـه أحاسـيس غامـضة بلقـاءٍ مُحتمَـل مـستقبلاً بشخص رائع الجَمال يفوق حُسنه أيَّ جَمال رآه. في كُلِّ مـرّة يرنـو بـصره إلى عيني مريام ينتابه إحساس غريب أنّها هي التي تجسِّد هذا الجمال الذي راود أحلامه. كلُّ تقاسيم وجهها، جبهتها، أنفها المستقيم، شفتاها الحمراوتـان، عيناها النجلاوتان كلّها تتماهَى مع ما سبق وارتسم في مخيّلته من أحلام. أيُّ سحر عجيب يحتويه هذا القرص الذي قدَّمه لنا سيِّدنا كي يتحوّل الحُلُم إلى حقيقة؟ سواء أكان يحلم أو كان في الجنّة، فهو يحسُّ كأنّه سوف ينعم بسعادةٍ يجهل سرّها.

– نحن بانتظارك يا «ابن طاهر».

– حسناً؛ سوف أحاول تذكُّر بعض الأبيات... تحلَّقت الفتيات حولـه باسترخاء كأنّهنّ ينتظرن الاستمتاع بمشهدٍ نادرٍ. أمّا مريام فقد استلقت إلى جانبه والتصقت به حتى لامـس صـدرُها جـسده، فـأحسّ بلـذّة عارمـة لم يألفها في حياته. بصوتٍ هادئٍ بدأ يقرأ قصيدة نظمها حول قلعة «آلامـوت Alamut»، ثم تلا قصيدة نظمهـا حـول عـليّ والـرئيس الأعـلَى. لاحظـت

الفتيات من صوته الحزين في أثناء قراءة شِعره أنّ إحساساً معيّناً يكمُن داخل قلبه، أنَّ إحساساً فيّاضاً بالهُيام والعشق. أدركت مريام بحسّها الأنثوي أنّه يتحدّث عنها ولها فاستسلمت باستمتاع وغمرتها السعادة لشعورها أنّها المحبوبة المقصودة، ولكنها عندما سمعت «ابن طاهر» يذكر «الحسن»، عادت وتماسكت وأسرّت في نفسها: لو كان يعرف!.

- كُلُّ هذا لا قيمة له، قال عندما أنهى القراءة، كُلّها كلماتٌ فارغة من دون معنًى. فلنشرب من هذه الخمرة اللذيذة، هذا أفضل. ألحّت الفتيات على «ابن طاهر» لنظم قصيدة وُجدانيّة تتغنّى بالحُبّ فأذْعنَ لطلبهنّ بعد تردُّد، لكنّه اشترط بقاءه منفرداً مع مريام. خرجت الفتيات فخلا الجوّ لهما ونسي الشّعر والشُّعراء والوعد المقطوع، وراح يتأمّل وجه الفتاة الفاتن وقدَّها الممشوق بشوقٍ مشبوبٍ وعاطفةٍ جيّاشة. لقد هام بها حُبًّا ووَلَهاً، ولم تكن بدَورها سلبيّة العواطف فبادلته حُباً بحُبّ وانجذبت لسحر جماله فتعانقا وتقاربت الشفاه فارتشفا كأس الهوَى قُبلاتٍ مُلتهبة، وكادا... لولا أنّ مريام كبحت جماح نفسها وثابت إلى رُشدها وأدركت أنّ لُعبتها قد تكلِّفها حياتها، وكان الحظّ إلى جانبها إذْ سُمع فجأةً زعيق البوق لثلاث مرّات فأجفلت وسارعت إلى القاعة الصُّغرَى تستحضر القُرص وعادت مسرعةً إلى «ابن طاهر» معتذرةً ثم دنَت منه وعانقته عناقاً حاراً ودَعَته لشُربِ كأسٍ أُخرَى أسقطت فيها خلسةً القرص فشربه حتى الثُّمالة.

بعد لحظات انقبض وجه «ابن طاهر» فارتمَى على الأرائك لا يدري

ماذا دهاه، فأخذ ينادي مريام ويتغنّى بجمالها ويُعرب عن حُبّه لها إلى أن تهالك جسمه وفَقَدَ وعيه ولم يلبث أن غطّ في سُباتٍ عميق...

عندما جاء «العبيد» ونقلوا «ابن طاهر» النائم، دعَت مريام الفتيات للانسحاب إلى غُرَف نومهن؛ أمّا هي فذهبت إلى غرفتها لتنام منفردةً بعد أن أعيتها مَهمّتها مع هذا الفتَى الذي يصعُب تطويعه متحسِّرةً على فراقه مستعيدةً في مخيِّلتها وجهه الذي لن تنساه.

وصل «العبيد» إلى «الحُجرة المتحرّكة» حيث كان «الحسن والداياَن» في انتظارهم، فاطمأنّ إلى أنّ كلَّ شيء تمّ على أحسن حال. ودعا صديقيه ليأخذا مكانهما في الحجرة حيث وُضعت المحفَّات الثلاثة وبدأت الحُجرة ترتفع صعوداً بواسطة الأيدي المخفية لخدم من «العبيد» إلى أعلَى البُرج. بوصولهم إلى الأعلَى رفع «الحسن» الأغطية عن الفدائيين النائمين.

- يبدو التَّعب على وجوههم. همس «أبو علي».

ضحك «الحسن» وأزاح الستارة عن مدخل الحجرة كي يدخل الهواء إليها، ثم أمر حارساً بالوقوف أمام الحجرة وصرف صديقيه قائلاً:

- الفصل الثاني من «المسرحية» على وشك الانتهاء، نلتقي غداً، عِمتم مساءً.

في الأسفل، «العبيد» منهمكون في إطفاء القناديل المعلَّقة ونزعها؛ بعضها كان قد انطفأ تلقائيًّا وبعضها لا تزال شُعلتها المتراقصة تضيء ما

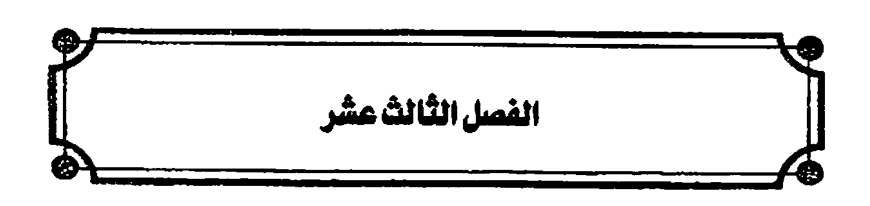
حولها. عادت الحدائق لتأخذ شكلها المعتاد، الفراشات الليلية تتابع دورانها، والخفافيش تطارد الهوامّ. من حينٍ لآخر يُسمع صوتُ بومةٍ ووطءُ قوائم فهدٍ يتجوَّل. هذه الليلة كانت من ليالي الصيف الرائعة، كانت ليلةً مسكونةً بالغموض. حرّك مصطفى مِشعَله ليُؤجِّج لهبه كي يزداد نوره، فيما نفرٌ من العبيد يتبعونه نحو القارب.

- دَعونا قبل أن نعود، نُلْقِ نظرةً على الفتيات، اقترح أسعد أستاذ الرقص، تلك الليلة لا بدّ أنّها كانت اختباراً قاسياً للفتيات. بلغوا المقصورة حيث تنام فاطمة ورفيقاتها فأزاح «أسعد» الستارة عن الباب ودخل القاعة وخلفه رفاقه.

أمامهم الفتيات نائمات بشكلٍ عشوائي بين الأرائك، بعضهنّ عاريات بشكلٍ كُلِّي، وبعضهنّ نصف عاريات، وأكثرهنّ ما زال التبرُّج بادٍ على وجوههن. آثار مشهد العُري الصارخ والصدور العامرة والسيقان البَضّة، أحاسيس مصطفَى ومشاعره، فاضطرب ولم يعُد قادراً على تحمُّل هذا المشهد المثير، فاندفع إلى الخارج راكضاً كالمجنون يصرخ في الظلام:

- الإنسان حيوان مفترس، يا ألله، ماذا فعلوا بنا!...





الفصل الثالث عشر

في اليوم التالي، كما هو متّفق عليه، قَدِم «الدّايان الكبيران» إلى جناح «الحسن»، صباحاً.

- لقد ألقيتُ نظرةً على الفتيان، قال لهما لدَى استقبالهما، وأعتقد أنه آن الأوان لإيقاظهم. دخل «الحسن» وخلفه رفيقاه إلى الممرّ السرّي: الفتيان ما زالوا ممدّدين على المِحَفّات يغطّون في نوم هادئ؛ اقترب «الحسن» وتفرَّس في وجوههم.

- إذا حكمنا على المظهر الخارجي يبدو أنّه لم يطرأ أيُّ تغيير عليهم. يبقَى أن نعرف ماذا حصل داخل أفكارهم، داخل نفوسهم، سوف نعرف ذلك خلال لحظات.

هزّ يوسف من كتفه وقال له:

- أتسمعني، يا يوسف؟ نحن في وضح النهار وما زلت نائماً! فتح يوسف عينيه ونهض متكئاً على مرفقه، وعلى وجهه أمارات الخوف والدهشة. نظر إلى الرؤساء مذهولاً واستمرّ لبعض الوقت غير قادرٍ على تركيز فكره.

- ماذا فعلت خلال الليل؟ ولماذا تـأخّرت في نومـك؟ قـال «الحسن» وهو يتفحّصه بابتسامةٍ ماكرة.

- كنتُ في الجنّة بفضلٍ منك يا سيِّدنا، أجاب يوسف مضطرباً.

- من دون شكّ، كنتَ تحلُم يا بنيّ.

- كلاّ، كنت فعلاً في الجنّة..

- دَعك من هذا، هل تعلم أنّ رفاقك سوف يهزأون منك إذا ما رويت لهم هذه الخرافة.

- أنا على يقين، سيِّدنا، أنّي كنت في الجنّة!

- إذاً، أنت على اقتناع أنّي أعطيتك مفتاح الجنّة في الأعالي!

- من دون أدنَى شكّ، سيِّدنا.

استفاق سليمان على هذه الأصوات مقطّب الجبين مشوّش التفكير وراح ينقل بصره هنا وهناك. فجأةً تذكّر كلَّ شيء فتلمّس كلَّ أنحاء جسمه وعندما لامست أصابعه سوار حليمة المخبّأ تحت جلبابه اعتراه الذُّهول.

- ها هو سليمان يستيقظ بدوره، هل تريد أن تروي لنا حلمك أيضاً؟

- كنتُ في الجنّة، سيِّدنا، ولديّ برهان على ذلك.

- لديك برهان، أرني إياه!

أدرك سليمان متأخِّراً أنّه قال ما لا يجدُر البوح به، فحاول تبرير موقفه قائلاً:

- لا أعرف كيف بقي هذا في يدي، شعرت بنفسي ضعيفاً، حاولت أن أجد مرتكزاً أستند إليه ولم أشعر إلاّ والسوار في يدي ولم أعُد أتذكّر شيئاً.

- دَعني أرَ.

أعطاه سليمان السِّوار متحسِّراً، تفحّصه «الحسن»، وعرضه على «الدايين».

- شيءٌ لا يُصدَّق، كأنَّها فعلاً من الجنّة.

- «سليكة» لديها واحدةٌ مشابهة لها، قال يوسف ولكنها منعتني من إحضارها معي إلى هذا العالَم.

- عزيزي سليمان، قال «الحسن» وهو يهزّ برأسه، أرَى الأمر غريباً أن تُحضر هذا السِّوار، ألم ترتكب بهذا العمل جُرم السرقة في الجنّة؟

دبّ الرُّعب في قلب سليمان وقال:

- نعيم وعبيدة لن يصدِّقاني فاحتفظت بها كي يصدِّقاني.

- هل من عادة رفاقك أن ينظروا إليك كشابٍّ كذّاب؟

- كلا، على الإطلاق، ولكنّي لن أصدِّقهم لو قصُّوا عليّ ما سأرويه لهم.

- حسناً، سوف أحتفظ بالسوار الآن، وعندما أرسلك مرّة أخرَى إلى الجنّة أُعطيك إياه، وإذ ذاك عليك أن تعرف ماذا ستقول لتبرير فعلتك!...

استمع «ابن طاهر» الذي استفاق منذ بعض الوقت، إلى الحوار مندهشاً؛ وبصورة تدريجيّة بدأ يستعيد ذكريات تلك الليلة. رفع يده إلى

صدره فانتفض قليلاً، تحت القلب مباشرةً آثار أسنان «مريام» ما زالت تؤلمه. التفت الصّباح نحوه قائلاً:

- أسمع أموراً لا تُصدَّق من رفيقيك، تركتهما أمس مساءً مثلك في هذه القاعة، والآن يريدان منّي أن أعتقد أنّهما لم يمكُثا في مكانهما طوال الليل؛ بل سافرا مباشرةً إلى العالَمِ الآخر. أنت يا «ابن طاهر»، وما أعرفه عنك أنّك ذو رأي سديد وعقل راجح، أتشير عليّ أن أصدِّقهما فيما يزعمان، إذا كان الأمر صحيحاً فإنّي أخشَى أن أُقيم في جوار هذا المكان حيث يمكن للأرواح الليلية أن تأخذنا في أيّة لحظة إلى مكانٍ مجهول؟

- أعلم يا سيِّدنا أنّك تمازحني بكلامك هذا؛ سيادتك تعلم مَن دبّر أمر سفرنا الليليّ وتحاول الآن اختباري.

- إذاً، أنت أيضاً يا «ابن طاهر» تؤكِّد أنّك لم تقضِ ليلتك هنا؟ بتعبير آخر إنّ كلامي لكم عن امتلاكي مفتاح الجنّة صدَّقتموه وفهمتموه بالمعنَى الحقيقي وليس المجازي أليس كذلك؟

- معذرةً يا سيِّدنا، لم يخامر الشكّ قلبي مطلَقاً أيّة لحظة.

- حسناً أودُّ أن أعرف يا أصدقائي ماذا ستقولون لرفاقكم عندما سيسألونكم أين أمضيتم ليلتكم؟

- سوف نقول الحقيقة: كنّا في الجنّة بفضلٍ من سيِّدنا، هذا كلُّ شيء.

- فليكن، إذاً بقي إيمانكم عامراً في قلوبكم؛ هذا الإيمان هو ما أحتاجه وبهذا الإيمان الذي لمسته فيكم يمكن دكُّ الجبال! اذهبوا الآن وانضمّوا لرفاقكم.. ثم أمر الحارس بمرافقتهم إلى أسفل البُرج...

نظر «الحسن» إلى رفيقيه بادي الارتياح قائلاً:

- كلُّ شيء سار على ما يرام وفقاً لما توقّعت.

سارع «أبو علي» إليه فاتحاً ذراعيه مهنّئاً ثم تعانقا.

- حتى اللحظة الأخيرة، كنتُ أشكُّ بالنجاح، اعترف «بوزرك». أمّا الآن فأعتقد أنّك نجحت فعلاً في تغيير الطبيعة البشرية؛ وابتكرت سلاحاً رهيباً من هؤلاء «الحشاشين».

أثار استدعاء الفتيان الثلاثة إلى جناح الرئيس الأعلَى ثم غيابهم حتى ساعة متأخّرة من الليل، تساؤلات عديدة لدَى رفاقهم، الذين لم يعرفوا النوم، وأطلقوا العنان لمخيلاتهم حول أسباب الاستدعاء والغياب، بانتظار عودتهم والوقوف على حقيقة ما جرَى. ولمّا طال انتظارهم غلبهم النُّعاس فأخلدوا إلى النوم مُرغَمين. بعد ساعات من نهوضهم في اليوم التالي، فوجئوا بعودة رفاقهم الغائبين، فسارعوا للقائهم وأحاطوا بهم من كلِّ جانب وانهالوا عليهم بالأسئلة.

- لنذهب أولاً إلى العنبر، اقترح سليمان، هناك يمكننا الحديث، وأنا جائع وأشعر بإرهاقٍ شديد وألم في ساقيّ. بوصولهم إلى العنبر ارتمى الأصدقاء الثلاثة على الأسرّة وأُحضر لهم خبز ولبن.

- مَن يتكلّم أولاً؟ سأل سليمان.

- ابدأ أنت، قال يوسف، فأنا قليل الصبر ولا يسعُني الاستفاضة في الكلام، ثم إنّني لا أستسيغ أن أرَى أحداً لا يصدِّقني، عندها سوف أغضب، وإذ ذاك، تعرفون ما يمكن أن يحصل.

تجمّع الرفاق حول الأسِرّة متلهّفين لكشف أسرار هذا الغياب.

- أتؤمنون بالمعجزات؟ ابتدأ سليمان بالسؤال.

- في المعجزات الغابرة، أجل، قال نعيم، فالنبيّ منعنا من الإيمان بسواها.

- اسمعوا ما يقول هذا الفتَى السليط اللسان، ماذا علّمنا سيّدنا؟

- لا أعرف ماذا قال لنا فيما يتعلّق بالمعجزات.

- ألم يعلّمنا أنّ الله منحه مفتاح الجنّة؟

تسمَّر الفتيان في أماكنهم وعمّ السُّكون العنبر، أمّا سليمان فراح يجُول ببصره بين رفاقه ليُثير فضولهم ثم قال:

- أيُّها الفدائيون، اللّيلة الماضية، تكرَّم علينا سيِّدنا وفتح لنا هذا الباب!

علَت الدهشة وجوه الرِّفاق ثم انفجر «عبيدة» بالضحك وتبعه الباقون. وحدهم الفتيان الثلاثة حافظوا على وقارهم.

- أعتقد أنَّهم توافقهم على خداعنا. قال عبدول.

- كعادته دائماً، يحبُّ سليمان أن يهزأ بنا، أضاف نعيم. تدخّل «ابن طاهر» وبادر بالقول:

- اسمعوا، أيُّها الرِّفاق، أعرف أنّه من الصعب الكلام عن أمور غير واقعية كالّتي عشناها هذه الليلة، وأعلم بالتأكيد أنّكم ستهزأون منّا، ومع ذلك، فإنّ ما سبق أن قاله سليمان هو الحقيقة بعينها، لذا أرجوكم، قليلاً من الصبر وأصغوا لما سيقول.

قال هذا وأمارات وجهه تنمّ عن رزانةٍ، ونبرةُ صوته لا تُوحي مُطلَقاً بغير ذلك.

رفع سليمان رأسه وجال ببصره بين رفاقه، وشرع يروي كلَّ شيءٍ منذ البداية: كيف تسلَّقوا سُلَّم البرج، الْتقاءهم بالعبد العملاق القائم بالحراسة، كيف اقتادهم «أبو علي أمام سيِّدنا»... وإذا ما حصل أن نسيَ تفصيلاً ما، بادر يوسف إلى مقاطعته استدراكاً لهذا السهو. دهش الفتيان لسماعهم غرابة المحاورة التي تمّت بين الرِّفاق الثلاثة والرئيس الأعلَى، فتابعوا رواية الأحداث بشغف وفضول. تابع «ابن طاهر» بإصغاء تامّ سرد سليمان، ومن دون انتباه رفع يده إلى صدره فأحسّ بآثار أسنان مريام ماثلةً على بشرته، وعادت به الذاكرة إلى تلك المغامرة الليلية، ما أثار شجونه وأيقظ داخل نفسه حنيناً إلى تلك الساعات التي قضاها في هذه الرحلة المُدهشة.

تابع سليمان الكلام شارحاً كيف وزّع الرئيس الأقراص العجيبة التي ولَّدت لديهم إحساساً بالتحليق فوق بلدان مجهولة، وروَى تفاصيل مشاهداته قبل أن يفقد وعيه نهائيًّا. ثم انتقل إلى اللحظة التي استفاق فيها في الجنّة، ثم استأنف روايته حول مشاهداته كلِّها مع وصفٍ دقيق للمقصورة الزجاجية، وللفتيات الفاتنات..

- ألا يمكن أن يكون ما ترويه حُلُماً؟

- تفوّه عبيدة بهذه العبارة بصوت شبه مسموع.

- كلا، على الإطلاق، كلُّ ما شاهدته في هذه القاعة، تابع سليمان، كان من دون أدنَى شكٌّ حقيقيًّا كوجودكم أنتم حولي الآن، كلُّ شيءٍ في هذا المكان من ذهبٍ وفضةٍ، أسرّةٍ فخمة، أرائكَ لا مثيل لها، مآكل ذات طعمٍ إلهيّ بقدر ما تشتهي الأنفس، وخمرةٍ معتّقة تستجلب الشهوة من دون أن تذهب بالعقل، وبالاختصار، كلُّ ما ورد ذكره في القرآن فضلاً عن حوريّات عِين لم ترَ العَين أجمل منهنّ؛ إنّي ألتهب شوقاً لمجرّد الذِّكرَى؛ وعندما حدَّثهم عن السِّوار الذّهبيّ الذي انتزعه من يد حليمة سأله نعيم:

- لماذا أخذ سيِّدنا السِّوار؟

- من دون أدنَى شكّ، خوفاً من أن أفقده، ولكنه وعدني بأن يعيده إليّ عندما يرسلني مرّة أُخرَى إلى الجنّة.

- متَى ستصعد إلى الجنّة ثانية؟

- لا أعلم، ولكنّي أرجو الله أن يكون ذلك قريباً.

حان الآن دَور يوسف ليروِيَ مغامرته. هم يعرفون البداية والنهاية، عليه أن يكتفي بالحديث عن إقامته في المقصورة الرائعة. لقد أذهلته الأنغام السماوية وخصوصاً رقصات القدود الميّاسة. إنّه يتحرّق شوقاً عندما يتحدَّث عن مفاتن «سليكة»، جمالها الأخّاذ، تموُّجات جسدها وهي ترقص، كلُّ ما فيها فتنةٌ وإغراء. أمّا «ابن طاهر» فكانت روايته الأكثر إيجازاً، حدَّثهم كيف استقبلته مريام وكيف رافقته إلى الحدائق وجعلته يشاهد جدار «الأعراف» حيث يقف في قمّته جمعٌ من أبطال الإسلام ممّن

قاتل خلافاً لإرادة ذويه، كما حدَّثهم «ابن طاهر» عن حكمة مريام ومعارفها التي تفُوق معارف «الداي إبراهيم»، ثم قَصَّ عليهم كيف راوده الشكّ لفترةٍ وكيف هاجمه هرٌّ كبير يدعَى «أهريمان» وطرحه أرضاً. أنهَى كلامه وطلب من رفاقه أن يتركوهم وشأنهم ليستريحوا، لكنّ رفاقه استمرّوا متعطِّشين لمعرفة المزيد، ووجدوا عند سليمان ويوسف ما يرومون. هكذا أصبح الرِّفاق الثلاثة في نظر زملائهم أبطالاً نالوا حظوةً لم يحلُموا بها، وراودهم الأمل في أن يمُنّ عليهم الرئيس بهذا الفضل الذي خصّ به هؤلاء الفتيان في وقتٍ غير بعيد.

«أباما» لم تذُق طعم النوم هذه الليلة، لقد أثارت الظُّلمة أشباح الماضي البعيد لديها، والليالي العامرة في صباها. هي تستذكر كلَّ شيء بدقّة مرعبة، ويروِّعها عذاب الآخرة. إنّه ليؤلمها أشدّ الألم أن ترَى نفسها وقد سحقتها عجَلة الزمن وأحالَتها حطاماً مهشَّماً بعد أن كانت في المقام الأول فتنةً وحُسناً. وها غيرها الآن يتربّع على مملكة الحُبّ. نهضت والأسَى يعصف بفؤادها وراحت تتأمّل الأفق من خلال أغصان الأشجار المنتشرة حول منزلها. أمامها تنتصب «آلاموت Alamut» التي تغلق دونها، إلى الأبد، طريق العودة إلى العالَم، ماذا عساها أن تفعل في هذا العالَم بعد أن أصبحت عجوزاً شمطاء!

كثيراً ما كانت في بعض الليالي تتساءل عن الدَّور الذي لعبه «الحَسَنُ» في حياتها. في ما سلف من الأيام كان عاشقاً فتيًّا حالِماً ونصف نبيّ..

عرفت الكثيرين سواه وقد محاهم الزمن من ذاكرتها، وكان يُفترَض أن يكون من عدادهم، وأن تنسَى حتى اسمه، لو لم يكن على علاقة بالاضطرابات والقلاقل وعشرات النزاعات الدينية في هذا العصر. منذ سنتين تقريباً بينما كانت على حافّة الفقر أحضر لها شخص مجهول فجأةً رسالةً منه يعلمها فيها أنّه سيِّد قلعةٍ شهيرة ويأمل لقاءها لحاجته إليها. لم يكن أمامها ما تخسره، وللتَّوّ اتخذت قرارها. إنَّها ترَى «الحسن» الآن في أوْج قوّته، بينما كانت الأُمور عكس ذلك في الماضي البعيد. لقد أدركت أخيراً عمق الألم الذي تكابده امرأةٌ تعيش قُرب رجلٍ أحبَّها في الماضي بكلِّ جوارحه، ولا يبالي بها حاليًّا ولا يكتم عنها عواطفه تجاه أُخرَى سواها.

خرجت من منزلها واتّجهت إلى البناء الذي يقيم فيه «العبيد». صرخت بهم وطلبت إليهم النُّهوض فوراً للبدء بالعمل. نهض «العبيد» متثاقلين، ارتدَوا جلابيبهم الملوَّنة وخرجوا ببُطءٍ وهم يتثاءبون، ثم توجَّهوا إلى شاطئ القناة حيث صعدوا إلى القوارب، وجلست «أباما» إلى جانب «عديّ». وصلوا إلى الضفَّة الأخرَى ونزلوا إلى الجزيرة الصغيرة حيث تنام فاطمة وفريقها في إحدَى المقصورات؛ بوصولها نظرت من خلال زجاج القاعة فشاهدت الفتيات متهالكاتٍ بشكلٍ فوضويّ على الأرائك يغطُّون في نومٍ عميق. انتابها غضب شديد وأسرعت إلى الصُّنج فأمسكت بالمطرقة وطرقته ضربات متتالية. استفاقت الفتيات مذهولات.

- أيّتها الكسولات، أمضيتم ليلتكم في الفسق والفجور وما زلتم نائمات حتى هذا الوقت المتأخِّر. أسرعوا إلى القارب ومنه إلى منزلكنّ.

تدثَّرت الفتيات بمعاطفهنّ وهرولن إلى القنال ثم إلى القارب. وصلن إلى الضفّة الأخرَى حيث كانت مريام بانتظارهنّ، ولم يفُتها أن تتبرَّج وتضع المساحيق على وجهها وشفتيها، ومع ذلك يتبدَّى عليها أنَّها أمضت ليلةً مُزعِجة؛ وعندما تقاطع نظرها مع عيون أباما ساورها شكّ في أن تكون اكتشفت تواطؤاً خفيًّا.

رافقت أباما العبيد إلى المقصورات الأُخرَى حيث كانت الفتيات نائمات وتمّ إيقاظهنّ على عَجَلٍ وبالطريقة ذاتها. خلال وقتٍ قصير عادت الأُمور سيرتها الأولَى، واستعادت الفتيات حياتهنّ اليومية كما في السابق، ولم يبقَ من آثارٍ لتلكم الليلة الغريبة إلاّ الذِّكرَى.

بعد الظهيرة وصل «الحسن» بغتةً إلى الحديقة يرافقه أربعةٌ من الحراس، فتجمّعت الفتيات بشكلٍ نصف دائريّ بناءً لأمره. إنّه يريد أن يسمع من أفواههنّ مباشرةً كيف كانت تلك الليلة، فأجبن عن أسئلته بأصواتٍ خائفةٍ مرتجفة. فجأةً أخرج من جيبه سواراً من ذهب وعرضه أمامهنّ وسأل:

- مَن منكُنّ كانت تحمل هذا السِّوار؟

تعرَّفت حليمة فوراً إليه، وأوشكت أن تنهار من الرُّعب، وبدت عاجزة عن أن تتلفَّظ بكلمة؛ ولم تكن الفتيات الأُخرَيات أحسن حالاً منها. راحت مريام تجُول بنظرها في وجوه الفتيات واحدةً بعد الأُخرَى، وما إن وقع نظرها على حليمة حتى أدركت الحقيقة. ولم تجد بُداً من أن تتدخّل

فرنت ببصرها إلى «الحسن» بنظرة استعطاف وتوسُّل وتلقّت الإجابة منه من خلال ابتسامة ماكرة ارتسمت على شفتيه.

- هذا السِّوار إذاً ليس لإحداكنّ، وفي هذه الحالة يكون الفدائيون قد كذبوا.

حدَّق في وجه حليمة ولمح الدموع منهمرةً على خدَّيها وجسمها يرتجف خوفاً ورهبةً. تصوّرت نفسها تحت النَّصل الحادّ على وشك أن تتلقّى عقاب القتل جزاء ما فعلت.

- رائع جداً، يا عزيزتي حليمة، هل تعلمين ماذا عساي أن أفعل برأسك الفارغ؟ سوف لن أتردّد في تنفيذ عقابي من دون شفقة إذا قُدِّر للفتَى أن يكشف سرَّنا. لهذه المرّة أريد أن أهدِيَك حياتك، ولكن في المرّة المقبلة لن تسلَمي من المقصلة. أمّا هذا السِّوار فلن أُعيده لكِ. سوف أحتفظ به.

بإشارةٍ من مريام، أسرعت حليمة تغمرها السعادة وانحنت حتى أقدام «الحسن»، وأرادت أن تشكره، لكنّ الكلمات لم تُسعِفها، فاكتفت بتقبيل يده.

- إنّي أرغب أن تبذلنَ مستقبلاً مزيداً من الجهد، قال قبل أن ينصرف. لقد اكتسبتنَّ بعض الخبرة هذه الليلة، وعليكنَّ استخدامها للغاية نفسها في مُقبِل الأيام. كُنّ على استعداد ليل نهار!.. ثمّ حيّاهنَّ ودعا مريام لمرافقته.

- كوني في انتظاري هذا المساء، لديَّ أمور كثيرة أودُّ إطلاعك عليها.

- رهن أوامرك، قالت له. إنّها المرّة الأولَى التي تشعُر فيها أنّ لقاءها بـه لا يستجلب لها السُّرور.

بحُلول المساء تجمّعت الفتيات قُرب البِركة، يتجاذبن أطراف الحـديث حول أحداث الليلة الماضية، أمّا حليمة فانكفأت لوحدها تصغي لِـما يُقـال من دون أن تشارك فيه. إنَّها المرّة الأولَى التي تشعر فيها أنَّها ترغب في البقـاء وحيدة؛ إنَّها تطوي في قلبها سرًّا لا أحد يعلمـه، ولا تملـك الجَـرأة لإعلانـه على أحد؛ إنَّها تُحبّ سليمان، تحبُّه حتّى الجنون. ثمّة سؤال يعـذِّبها ولا تجسـر على طرحه، لكنّها أخيراً توجّهت بالسؤال إلى فاطمة:

- هناك أمر لا أفهمه، هل سيكون الفدائيّون الثلاثة هـم أنفسـهم مَـن سيأتون لزيارتنا في المرّة المقبلة؟

تطلَّعت إليها فاطمة وفهمت كلَّ شيء. بقلب عطوف أجابتها:

- هذا أمر نجهله يا طفلتي.

رنت إليها حليمة بنظرة قلِقة، إنَّها تشُكّ في أنَّها كشفت مكنـون قلبهـا. هل من الممكن أن لا تلتقي سليمان؟

في اليوم نفسه عمّ الخبر في القلعة أنّ «الحسن» فتح أبواب الجنّة لثلاثـة فدائيين لليلةٍ بكاملها. رغب «أبو سراقة» الاستماع إلى الحقيقة من أصحاب العلاقة مباشرةً فوجدهم نائمين، لكنّ رفاقهم قصُّوا عليه مـا سـمعوه مـن أفواههم. تصبَّب العرق من جبينه لِـما سمع وسارع إلى «أبو علي» يُعلمه مـا يرويه الفدائيّون من أخبار. ضحك أبو علي وعلّق بقوله:

- إذا كانوا قد قالوا ما قالوه فهذا يعني أنّهم يصدّقونه، وإذا صدّقوه فهذا يعني أنّه حقيقيّ؛ وما الذي يدفعهم لمغايرة الحقيقة؟ استمع أبو سراقة لتعليقه على الخبر وبدا على وجهه الخوف ثم انطلق يبحث عن الطبيب ليُعلمه بما سمع...

- يخيَّل إليّ أنّ «الحسن» قد أوْحَى بهذه المخادعة بقصد إحكام السيطرة علينا، قال أبو سراقة، ولكنّي أتساءل كيف أمكنه أن يدفع بهؤلاء الفتيان الطيِّبين الصادقين للكذب بهذا الأسلوب البشع؟

- أخشَى أن يكون وراء هذا الأمر شيءٌ خطير، عقَّب اليوناني. هل تذكر حديثنا السابق بشأن الحريم في الجهة الخلفية من القلعة؟ ربما كان قد استحضر هنّ لهذه الغاية بالذات؟

- ولكن لماذا لم يُحِطنا علماً في حينه بهذا السِّرّ؟

- أتريد نصيحتي أيُّها «الداي المحترم»؟ دع الظُّنون جانباً، وتناسَى كلَّ ما سمعت مخافة أن ندفع، لقاء تدخُّلنا في مثل هذه الأمور، ثمناً فادحاً، قد يكون حياتنا. ليس الأمر لوناً من الدَّعابة والمزاح مع الرئيس ولا مع الفدائيين. عرفت في حياتي الكثير من الأمور الغريبة، ولكن مع ابن الصباح يبدو الأمر مختلفاً، ثمّة لغز فيه يتجاوز العقل وكلّ تجاربي في الحياة.

استوعب أبو سراقة ما أفصح عنه اليوناني وعاد لممارسة أعماله اليومية، لكنّ المغامرة الليلية التي عاشها الفدائيّون ظلّت ماثلةً في ذهنه لا يقدر على فهم سرِّها المُغلَق عليه.

تلقّى الدّاي إبراهيم الخبر بشكل مختلف. أدهشته القصّة في بادئ الأمر كسواه، ثم خلص إلى الاقتناع أنّ الرئيس يعرف ما يفعل، وأنّ على الجميع محضه الثقة والطاعة، وأنّه إذا كان قد فعل ما فعل، فإنما بالتأكيد لأسبابٍ موجِبة.

في الثُّكُنات أخذت القصّة أبعاداً أخرَى، بعض العرفاء والرجال المُولَجين خدمة الفدائيّين استرَقوا السمع لمناقشاتهم، ونقلوا لرفاقهم الخبر حتى فشا بين شريحة كبيرة من الجنود، سيّما وأنّ الأمر يتعلّق برحلةٍ إلى الجنّة، أيُّ معجزةٍ خارقة تستهوي الأفئدةَ وتستريح لها القلوب المؤمنة بالرئيس الأعلَى.

أثارت قضيّة الفدائيّين الثلاثة جواً من النِّقاش والحوار بين مَن اتّصل بهم خبرها، بعضهم شكّكَ فيها، وبعضهم آمن بها لثقته بقُدُرات الرئيس الأعلَى، بل ذهب بعضهم إلى الإيمان بأنّ الحدث دليلٌ راسخٌ على أنّ الإسماعيلية هي الخطُّ القويم والصِّراط المستقيم، وأنّ الرئيس نبيٌّ قادرٌ على الإتيان بالمعجزات بمنّةٍ من الله. أمّا الأمير النقيب «مينوشهر» فقد ترامت إلى سمعه أصداء المناقشات، فاستمع بإصغاء لِـما يقال ملتزِماً الصمت، وكان الجنود والرُّتباء يودُّون معرفة رأيه فيما يقال، وعندما تأكّد أنّهم ينتظرون منه رأياً اكتفَى بالقول:

- إذا كان الفدائيّون قد أكّدوا أنّهم رحلوا إلى الجنّة بفضلٍ من الرئيس الأعلَى، وأنّ سيادته لم يكذِّب مقُولتهم، عندها يتحتّم علينا أن نصدِّق

حقيقة ما حصل ونتصرّف على أساس ذلك. وعندما اختلَى إلى نفسه بدا متجهِّماً، لقد فاجأه الحدث وأدهشه أنّ الرئيس لم يُحِطه علماً بسرّ مخطَّطه. إلاّ أنّ ما يشغل باله الآن الحماس الوحشيّ الذي لاحظه بين عناصره. إنّه لا يشكّ مُطلَقاً أنّ في أساس هذه القضية ضرباً من المخادَعة، بالرغم من جهله طبيعة هذا الخداع وكُنْهَهُ؛ إلاّ أنه يشعُر فقط أنّ جنوده المجرَّبين لا ينتظرون سوَى إشارةٍ واحدةٍ ليتحوَّلوا إلى شرذمةٍ من المتعصِّبين الجاهزين لمختلَف أنواع العُنف، بحيث لن يكون هو رئيسهم وقائدهم، بل يتبعون مرجعيّة أُخرَى يتلقَّون مباشرةً منها أوامرهم وهي تملك سُلطةً غير مرئيّة، سُلطة الرئيس الديني شخصيًّا. ماذا يبقَى له بعد ذلك سوَى أن يتكيَّف بدَوْره مع هذا التيّار الجارف؟ لقد سمّاه «الحسن» أميراً، وهذا التكريم يطغَى عليه الطابع الديني لا العسكري. من المستحسن إذاً التحلِّي بالصبر بانتظار أن تتوضّح الأمور. ومهما يكن من أمر، أليس هو أحد الأجهزة المطيعة لهذه الآلية التي أحكم «الحسنُ» تركيبها وتنظيمها؟ أيمكنه الآن الإفلات من الدَّوْر الذي تقرَّر، سرًّا، إسناده إليه؟

- أنت رئيس مرعب، أفصحت «مريام» لـ«الحسن» عندما زارها ليلاً؛ لك علينا جميعاً سلطة الحياة والموت، ماذا فعلت بضيوف الليلة الفائتة؟

نظر إليها «الحسن» غارقاً في التفكير.

- لا أعرف، أترك الأمر للظروف.

لاحظ «الحسن» ضُمور وجه مريام.

- لديّ إحساس أنّ الليلة الماضية كانت تجربةً قاسيةً لك، قال ذلك بنبرةٍ لا تخلو من السخرية.

- لا عليك فالأمر ليس بهذه الأهمّية لأُفكّر فيه.

- عندما تبدأ المرأة تفكّر تصبح خطِرة.

- أرغب في أن أكون كذلك الآن.

- ماذا ستفعلين عندها؟

- أنادي الفدائيّين كي يهتمّوا بك.

- النساء، النساء، كم تحلو لكنّ الثرثرة، وعندما يحين وقت العمل يظهر عليكنّ الخوف. كنتُ أُحسُّ دائماً أنّك قريبةٌ منّي وكنتُ سعيداً، أمّا الآن فأراني من جديد وحيداً.

- لا أستطيع أن أفعل شيئاً فأعمالك تُرعبني.

صمتت طويلاً ثم سألته:

- ماذا ستفعل بالفتيات اللواتي سيعاودهنّ الحنين إلى مُتَع الحُبّ الليلة الفائتة؟

- تعرف «أباما» موادَّ ونباتاتٍ تفيّ بالمطلوب، وإذا لم تنجح نترك الطبيعة تأخذ مسيرتها، ويظهر إلى الوجود نشأٌ جديد.

- مساكين هؤلاء الأطفال، سيكونون بلا أب.

- لن يكونوا الوحيدين يا عزيزتي مريام، ولكنّي أشعر أنّك ترغبين أن أطرح عليك سؤالاً آخَر، قال ذلك ضاحكاً.

- لا أرغب في تأويل تفكيري على غير محمله.

- تكلّمي.

- كيف حال «ابن طاهر»؟ عندما طرحَتْ هذا السؤال أحسّت بالدم يتصاعد إلى وجهها.

- هل يعنيك أمرُه؟ أظنُّ أنّه يتعافَى وسيتجاوز بطريقة أو بأُخرَى معاناته العاطفية.

- إنّك شرس.

- شرس! لم أقل سوَى ما يبدو لي أنّه واقعيّ.

- هل أنت على استعداد لتنفيذ إحدَى رغباتي؟

نظر إليها «الحسن»، ومن دون أن يتكلّم أشار إليها أن تقول ما تريد.

- أرجوك أن تُشفق عليه من أجلي.

- شفقة! ما تعنين بهذا؟ لا أعرف الشفقة ولا الشراسة، ما لديّ مخطّط أقوم بتنفيذه.

- أفهمك جيداً ولكنّي أتمنّى أن تأخذ بعين الاعتبار رجائي عندما تعتزم اتخاذ قرار بشأن «ابن طاهر» له علاقة بمخطّطك.

- تطلبين الكثير، فلماذا إذاً أمضيت عشرين سنة في هذه التحضيرات؟

- أصْغِ إليّ، كنتُ دائماً مطيعةً لك وسأطيعك دائماً، أرجوك أن تقطع لي وعداً بما طلبت.

- لن أستطيع ذلك، هذا يفوق طاقتي.

- وماذا ستفعل مثلاً إذا اكتشف بنفسه الحقيقة؟

نظر إليها نظرة ارتياب.

- ماذا تريدين قوله؟

- لا تخشَ شيئاً، لم أكشِف له أيَّ أمر.

- إذا حصل أن اكتشف الحقيقة بنفسه!، إذا تمكّن من سبر جزءٍ من مخطَّطي! حسناً إنّه سيتفهَّمني؛ سيصبح إذ ذاك ابني الروحي إلاّ إذا اعتبرني مخادعاً. سيُعلن أمام الجميع أنّي دجّال محتال، هذا هو الاحتمال الأرجح؛ كيف سيمكنه أن يتفهّم وهو في هذا العمر أنّي راهنت بحياتي كلِّها من أجل هذا المخطّط.

- إنّك تطرَح تساؤلات كثيرة، كلانا مُتعَب، صار الوقت متأخِّراً.

نهض بوجهٍ كالح، وفي عينيّ مريام تلتمع دموع رقراقةٌ، ثم توجّه من دون أن يتفوّه بأيّة كلمة إلى ضفّة القنال حيث ينتظره عديّ قرب القارب.



الفصل الرابع عشر

كان لاندحار طلائع جيش السلطان أمام آلاموت آثارٌ مدوّية على مستوَى المنطقة بكاملها ووردت إلى القلعة من مختلف الأنحاء تقارير تفيد عن التطوُّرات الحاصلة. غداة المعركة انطلق «عبد الملك» على رأس مفرزةٍ قوامها عشرون فارساً نحو قلعة «رودبار»، وبحلول المساء تمركزوا في المكان المناسب قريباً من أسوار القلعة. أفاد العملاء الذين رصدوا خطُوط العدوّ أنّ المحاصِرين للقلعة لا يتجاوزون المائة تركي. عند الفجر، ما إن أصدر «الدّاي» أمر الهجوم حتى انقضّ الرجال من المنحدَر كسربٍ من النسور على العدوّ فأباداوا نصف عديده وتشتّت الباقون في شتّى الأرجاء.

بعد ذلك، أرسل «عبد الملك» عملاءه باتّجاه مقدِّمة جيش السلطان، فيما انطلق هو مع مفرزته باتّجاه قزوين ثم الرّيّ، ومن هناك عاد إلى «آلاموت Alamut» ومعه عشرات من الأسرَى التُّرك تمّ اعتقالهم وهو في الطريق، واستغرقت العملية بكاملها أربعة أيام.

عمّ منطقة «رودبار» جوٌّ من الحماس والغليان، فالشَّعب الذي كان يقدِّس سرًّا «عليًّا» ويكره السُّلطان، كما خليفة بغداد، احتفل بالنصر

الإسماعيلي كما لو أنّه انتصاره. في الأيام الأولَى التي تَلَت المعركة بدأ يتوافد إلى آلاموت جُموع أتباعٍ جُدُد يتلهَّفون لوضع أنفسهم في خدمة الرئيس الأعلَى. كان على «أبو سراقة» أن يعالج هذا الأمر، فقد تمّ توجيه الفتيان الأقوياء إلى مدرسة الفدائيّين، في حين تمّ تشكيل قطعاتٍ جديدة بإمرة «مينوشهر».

– يتحتّم علينا إعادة تنظيم الجهاز بكامله وإصدار تعليمات جديدة، أسَرّ «الحسن» إلى «الدّاي أبو علي»، إذا أردنا أن نجعل من هذه القطعات القليلة التجربة جيشاً موحَّداً لا يؤمن إلاّ بعقيدة واحدة وبرئيس واحد. كان النبيّ على صواب عندما حرّم على أتباعه شُرب الخمر، وسنكون أغبياء إذا لم نتبع خطاه في هذا الشأن! بتزايُد عدد القوات لا بُدّ من قواعد صارمة وانضباط شديد. لن نتمكّن من تنظيم هذي القوَى إلاّ من خلال قواعد واضحة صارمة، وأن نسهر على تنفيذ هذه القواعد من دون مراعاةٍ ومحاباة.

هكذا، في اليوم نفسه الذي أدّى المتطوّعون الجدد قَسَم اليمين، تلا «أبو علي» على القوات مجموعةً من التعليمات واللوائح الجديدة.

– يُعاقَب بالموت كلُّ مَن يتمرّد على رؤسائه، أو لا ينفِّذ أمراً صادراً إليه باستثناء حالة القوة القاهرة، أو يقتل أحد الأتباع خلال شجار معه، أو مَن ينتقد الرئيس الأعلَى ويتكلّم بعبارات غير لائقة، أو مَن يشرب خمراً أو سواه من الأشربة المُسكِرة، أو مَن يُضبَط في فسقٍ وفجور، بالإضافة إلى عقوبات جسدية ونفسيه سُنّت للتّسليات الدنيوية كالاستماع إلى الموسيقَى

أو المشاركة في الرقص أو قراءة كتب غير دينية. كما تأسّست رُتب جديدة، بين «الدّاي» وكبير «الدّايات» أُنشئت رُتبة «داي» المقاطعة. كلُ فرد من الأتباع قادر على حمل السلاح يُعتبر جنديًّا، كما تأسّست مدرسة لتخريج «الرِّفاق» يقومون بدَور التدريس، وفي الوقت نفسه تمّ تجديد منهاج التعليم الذي يخضع له كافّة أفراد المجموعة. بالإضافة إلى العلوم العسكرية يتضمّن المنهاج موادَّ تتعلَّق بتاريخ الإسماعيلية وعقيدتها.

أمّا الفدائيّون فقد أُسندت إليهم مَهامٌّ خاصّة تتناسب وأهليّة كلٍّ منهم. أصبح «جعفر» المُوفَد الدائم المكلَّف تأمين الاتصال بين «آلاموت Alamut» والرّيّ، حيث يحكم هناك «مظفّر»؛ وأُسندت إلى نعيم مَهمّة تدريس العقيدة الإسماعيلية للأتباع الجُدُد، وإلى «ابن طاهر» تدريس التاريخ والجغرافيا، أمّا سليمان ويوسف فيتولّيان تدريب التلامذة الفدائيّين على القتال، في حين وُضع بتصرُّف عبيدة فصيل من الجواسيس للتحرّي عن تحرُّكات جيش السُّلطان وحجم قوّاته.

فيما يتعلّق بالجَرحَى التُّرك الذين وقعوا في الأسْر في خلال المعركة، فقد شَفِيَ أكثرهم باستثناء مَن كانت جراحهم خطرة، وقد عوملوا جميعاً معاملةً إنسانيةً وسُمح لهم في المساء بالنُّزهة خارج السِّجن على الشُّرفة ناحية الثُّكُنات، وكان أطبّاؤهم والممرِّضون يجلبون لهم الطعام والشراب ويحادثونهم، كما قصُّوا عليهم الحادثة الغريبة للفدائيّين الثلاثة، وصعودهم ليلاً إلى الجنّة بفضلٍ من الرئيس وبهبةٍ من الله. ما كان يُدهِش الأسْرَى ما

لمسوه لدَى الجميع من إيمانٍ راسخٍ بالإسماعيليّة وبالرئيس الأعلَى الذي يقدِّسونه ويعتبرونه نبيًّا كبيراً.

من حينٍ لآخر كان بعض «الدايات»، وأحياناً «أبو علي» شخصيًّا، يتردَّدون إلى السِّجن ويحاولون الحصول على معلوماتٍ دقيقةٍ عن جيش السُّلطان وعن تدريب الجنود، وكذلك عن قناعاتهم الدينية، ثم يشرحون لهم مضمون الإسماعيليّة، وكيف أنّ الرئيس الأعلَى يطمح لتحقيق العدالة ويعمل على إحلال السلام في العالَم. من خلال هذه التوعية، خصوصاً من خلال المعاملة الإنسانية لهم، يأملون زعزعة قناعاتهم السابقة وتأهيلهم، ربما للانضمام إلى صفوفهم.

أمّا بعض الجرحَى التُّعساء الذين فقدوا ساقاً أو ذراعاً أو أُصيبوا بعاهةٍ دائمةٍ، فقد أُخلي سبيلهم ليعودوا إلى ديارهم بأمرٍ من الرئيس الأعلَى الذي يأمل أن ينقل هؤلاء الأسْرَى إلى رفاقهم ما شاهدوه وعاشوه وسمعوه.

في الليلة التي تلَت ليلة زيارتهم الجنة، نام سليمان ويوسف المُتعَبان بهدوء شبه تامّ؛ لكنّهما، في مساء اليوم التالي، انتابهما توتُّرٌ وقلق، ثمّة شيءٌ يفتقدانه، وهذا الشيء يثير فيهما عصبيّة غريبة، ولمّا لم يكن لديهما أيّة رغبةٍ في النوم، فقد توجّه كلٌّ منهما بمفرده ناحية الأسوار حيث وجدا نفسيهما هناك وجهاً لوجه.

- أشعُر بالعطش، قال يوسف.

- ألا ترَى «شاه رود»، هناك ماءٌ كثير.

- هذا قليل بالنسبة لي، اذهب واشرب منه إذا كنت تريد.

- هل سبق وتذوّقت الخمرة صدفةً؟

- ضحك سليمان هازئاً، فرمقه يوسف بوجهٍ غاضب.

- زعق البوق، حانت ساعة النوم.

- لماذا تقول لي ذلك، اذهب أنت إلى النوم.

جلسا فوق السور وأصغيا، لبعض الوقت من دون كلام، لهدير الماء.

- لديّ انطباع أنّك تريد أن تُسِرّ إليّ بشيء ما، قال سليمان بنبرةٍ فضُول هازئ.

لجأ يوسف إلى المواربة وسأل سليمان:

- ألا تشعُر أنّك تفتقد شيئاً؟

- تكلَّم بصراحة، ما الذي يقلقك؟

- إنّي أشعر بجمرٍ ملتهِبٍ في أحشائي وأشكو من عطشٍ لا يُحتمَل.

- لماذا إذاً لا ترغب في شُرب الماء؟

- شربت كثيراً فلم أرتَوِ، فكأنّي أشرب هواءً».

- أعلم، إنّها تلك الأقراص الملعونة، آه، لو يسعُنا أن نحصل عليها، واحدةٌ فقط وسوف نشعر بالراحة.

- أتظنُّ أنّ سيِّدنا سيُرسلنا مجدَّداً إلى الجنّة؟

- كيف لي أن أعرف، إنّ مجرّد الذِّكرَى تُشعرُني بالحُمَّى.

في هذه اللحظة مرّ بقربهما حارس يحمل مشعلاً فاختبأ خلف الحاجز، عندها قال سليمان:

- علينا أن نذهب قبل أن يرانا أحد.

دخلا خلسةً إلى العنبر حيث كان رفاقهما في سُباتٍ عميق باستثناء «ابن طاهر» الذي كان جالساً فوق سريره مسنِداً ظهره إلى الحائط غارقاً في تأمُّلاته.

- لم تنَم بعد؟ سأله سليمان.

- وأنتما كذلك.

خلع يوسف وسليمان لباسهما واستلقيا في أسرّتهما. كان الجوُّ حاراً والعطش يستبِدُّ بهما بشكلٍ لم يألفاه.

- ما هذا السِّحر الملعون! تنهّد سليمان متبرِّماً.

- هل هي الذِّكرَى تمنعك من النوم؟ سأله «ابن طاهر».

- أتدري أنّي أريد أن أشرب الآن؟ أشرب خمراً!

- لقد عزمت إذاً على أن لا تنام هذه الليلة، قال يوسف غاضباً.

- أتظنّ أنّك ستنام، أنت؟ أجابه سليمان غاضباً هازئاً.

صباح اليوم التالي، كان الفدائيّون الثلاثة مرهَقين مُتعَبين. في هذا اليوم بالذات أبلغهم أبو سراقة مَهامّهم الجديدة، وبعد ساعات أصبحوا على استعدادٍ للمباشرة بعملهم وانتقلوا إلى الطابق السُّفلي من أحد الأبراج تاركين العنبر لتلامذة جُدُد يقيمون مكانهم.

كلَّ صباح، كان «ابن طاهر» ينكبّ على عمله فاقد الإحساس بأيّ شيء إلاّ من شعور بحزن عميق، فيتأمّل التلامذة الجُدُد متألّمًا، وهو يستذكر كم كان سعيداً في خلال أيام الدراسة، وقد أصبحت من الماضي؛ لن تعاوده مطلقاً براءة هؤلاء الفتيان، فقد انتصب سدٌّ، لا يمكن تجاوزه، بينه وبينهم، وهو الآن يصغي إلى ثرثرتهم بابتسامةٍ تشُوبها المرارة! لو كانوا يعلمون! يتساءل مفكّراً. لم تلبث الليالي التي يعاني فيها الأرق أن تركت آثاراً ظاهرةً على وجهه الجميل، فشحب لونه وضمرت تقاسيمه وغارت عيناه.

في الماضي القريب، كان تلميذاً عاديًّا، واليوم هو بطل القضية الإسماعيليّة، واسمه يستهوي القلوب الفتيّة. في الماضي كان يتمنّى أن يصبح اسمه على كلِّ شفة، أمّا اليوم فلم يعُد يبالي بشيء، ويشعر بعض الأحيان بالضِّيق إذا ما أُشير إليه بصفته بطل «آلاموت Alamut» ويستهويه أن ينفرد بنفسه وحيداً مع أفكاره و«مريام».

أجل «مريام» هي السِّرُّ الكبير الذي يفصله عن كلِّ هؤلاء الجُدُد، وحتى عن رفاقه. إنه يشعر دائماً بوجودها إلى جانبه. ذات مرّة أغلق عينيه فإذا به يرَى نفسه في المقصورة الساحرة ومعه مريام تنحني فوقه، فيشاهد أدقَّ تفاصيلها، ويستعيد ذكرَى تلك الساعات التي أمضاها في صُحبتها، فيهنأ ويسعد بهذا اللقاء الوهمي.

أمّا يوسف وسليمان، فقد أمِلا أن يجدا عزاءهما في المجد. صبيحة كلِّ يوم يمتطيان جواديهما وينطلقان على رأس مفرزتهما خارج القلعة مشيَّعَيْن

بنظرات الإعجاب إلى التلال في الجوار لتدريب التلامذة على فنون القتال. هناك يجدان متنفَّساً لعصبيّتهما وتوتُّرهما، ويتلقّى تلامذتهما من ذلك النصيب الأكبر. هكذا كانت تسير الأمور نهاراً، أمّا إذا جُنّ الليل حينها تبدأ المعاناة فينتابهما الخوف والقلق، وتبقَى عيونهم شاخصةً طوال الليل.

ذات يوم انفرد سليمان بيوسف وابن طاهر وقال لهما:

- لن أستطيع الصُّمود بعد الآن، أنوي مقابلة سيِّدنا.

- هل أنت مجنون؟ أجابه يوسف مرتعباً.

- هذا لن يفيدك في شيء، قال «ابن طاهر»، عليك أن تتحمّل مثلنا.

انفجر سليمان غاضباً وقال:

- لستُ من حجر، سوف أذهب للقائه وأقول له كلَّ شيء، لعلَّه يكلِّفني بمَهمّةٍ تسمح لي بالعودة إلى الجنّة، وإن لم يفعل ربّما أقتل نفسي.

غداة اليوم التالي توسّل إلى أبو سراقة ليحدِّد له موعداً للقاء «الدّاي أبو علي».

- ماذا تريد منه؟

- يجب أن أكلِّمه.

- بشأن ماذا؟ هل تشكو من شيء تودُّ إعلامه عنه؟

- كلاّ، ولكنّي أرجوه أن يكلِّفني بمَهمّة ما.

- سوف تُكلَّف بما تريد في الوقت المناسب من دون أن تطلُب ذلك.

- ولكنّي أريد مقابلة «أبو علي».

لاحظ «أبو سراقة» شرارةً من الجنون في نظرات سليمان فأجابه:

- حسناً، بما أنّك مُصِرٌّ وتُلِحُّ بهذا الشكل، فسأطلب لك موعداً معه.

تلقّى «أبو علي» طلب سليمان باستياءٍ، وسارع لاستشارة الرئيس.

- أنصحك بلقائه، أشار إليه الأخير،ثم أعلِمني بما يريد.

استدعَى «أبو علي»سليمان إلى قاعة النوم الكبرَى، فتقابلا فيها منفردَيْن.

- ماذا تريد، ماذا وراء رغبتك في مقابلتي؟

أخفض سليمان عينيه وقال:

- أرجوك أيُّها الداي المحترم أن تسمح لي بمقابلة الرئيس الأعلَى.

ذُهل أبو علي لدَى سماعه طلب سليمان فقال له:

- ما الذي أصابك؟ إنّ رئيسنا الأعلَى يكدُّ ليل نهار من أجل رفعتنا، وتريد أن تضيِّع وقته؟! أنا ممثِّله، كلُّ ما تنوي قوله له، يمكنك قوله لي من دون انتظار.

- هذا صعب، وحده يملك العلاج المناسب لي.

- تكلَّم... سأنقل له، بكلِّ أمانةٍ، رغبتك.

- لم أعُد أقوَى على الثبات، أريد مَهمَّةً تفتح لي من جديد باب الجنّة.

ارتعد «أبو علي»، ورنا إلي سليمان، فلمح في نظراته بعض لهبٍ وحشيٍّ.

- هل أصابك مسٌّ يا سليمان؟ ألا تدري أنّ طلبك هذا نوع من التمرُّد؟ وأنّ عقوبة التمرُّد هنا هي الموت؟

- من الأفضل لي أن أموت على أن أستمرّ في هذه المعاناة. قال هذه الكلمات بصوتٍ مكتوم، لكنّ أبو علي تفهّم الوضع.

- اذهب الآن وسأرَى ماذا يسعُني أن أفعل علَّ الفرج يأتيك من دون أن تدري.

عندما رجع «أبو علي» استوضحه «الحسن» عمّا جرَى.

- إنّه يرغب في أن تُسنَد إليه مَهمّةٌ تسمح له بالعودة إلى الجَنّة وهو يقول إنّه لم يعُد يستطيع الثبات.

- إذاً، لم أكن مخدوعاً، السُّم والحدائق أكّدتا فاعليّتهما، ولم تعُدْ ساعة الاختبار الحاسم ببعيدة.

الفدائيون الآخرون يتنافسون في تنفيذ مهمّاتهم. كُلِّف عبيدة بمَهمّةٍ إلى «رودبار» ناقلاً رسالةً إلى «بوزرك» الذي عُيِّن قائداً لقلعتها خلَفاً لابن طاهر إسماعيل، كما رُقِّيَ إلى رُتبة «الداي الأكبر للمقاطعة» ونقل منه معلومات دقيقة حول تحرُّكات قوات الأمير «أرسلان طاش»، حيث تتمركز قطعاته أمام قزوين والرّيّ. أمّا «ابن وقّاص» فقد أُسندت إليه مَهمّة تأمين الاتّصال ما بين قزوين وقوات أمير الرّيّ؛ وقد تولّى الإسماعيليّون في المزارع والحقول تزويده بالمعلومات يوماً بيوم عن موقع كلّ قطعة عدوّة متمركزةً في تلك المنطقة.

كُلُّ شيءٍ يُوحي بأنّ الأمير ليس على عَجَلةٍ من أمره للوصول إلى «آلاموت Alamut». لقد اصطحب هذا الفارسيّ الجميل حريماً بكامله وكان يدعو وجهاء المنطقة إلى ولائم فاخرة، ويشرب الخمرة بصحبة ضبّاطه ويقضي أوقاتاً طويلةً مع الراقصات والمغنّيات. كذلك كان ضُبّاط الصفّ، وحتى الجنود، يتدبّرون أمورهم؛ فينطلقون إلى القُرَى المجاورة ويستولون على ما تقع عليه أيديهم، ثم يغادرون مشيَّعين من أهالي المنطقة باللَّعنات يستنزلونها عليهم وعلى الوزير والسلطان.

فيما بعد، استحصل عبيدة على معلومات جديدة طيّبة، فالأسرَى الذين أُطلق سراحهم راحوا يقصّون على زملائهم في جيش أرسلان مشاهداتهم في «آلاموت Alamut»، ويحدِّثونهم عن المعاملة الحسنة التي عُوملوا بها، وكذلك مَكرُمات الرئيس الأعلَى وقُدُراته، الذي يملك سلطة إرسال المؤمنين إلى الجنّة! لم يلبث الجنود الذين يعانون السأم والملل أن بدأوا يستمتعون بالحديث عن القلعة ومَن فيها، وعن رئيسها، فيتناقشون حول الإسماعيليّة وأهدافها وعقيدتها، حتى ساعةٍ متأخِّرةٍ من الليل، بل إنّ بعضهم بدأت تتغير قناعاتهم وأفكارهم. الآن أصبح الفضول وحده هو دافعهم للتوجُّه إلى «آلاموت Alamut» حيث يحكم مَن يطلق الجميع عليه لقب الرئيس الأعلَى، أو «شيخ الجبل». خلال وقت يسير أصبح بمقدور عملاء الإسماعيليّة التجوُّل من دون عقبات تُذكَر بين صفوف جيش الأمير أرسلان، والإسهام في تشكيل مجموعات من الجند يتحاورون ويتناقشون في السياسة كما في الدين، وصارت تُطرَح، على بساط البحث، العقيدة الإسماعيلية بحمّيةٍ مُلفِتة، حتى الذين ليسوا

من أشياعها أو الساخرين منها، لم يعُد يبالون لإقامتهم في جوارهم. ماذا بوسع قلعةٍ متواضعةٍ، عديد حاميتها لا يزيد على خمسمائة رجل، أن تثبت أمام جيشٍ قوامه ثلاثون ألف رجل؟ خلاصة القول: أكّدت «آذان الحسن» أنّ العدوّ هو أبعد ما يكون الآن عن شنّ حرب مقدَّسةٍ عليه، بل إنّه لم يعُدْ من المستبعد أن يُرَى الجيش قريباً يتراخَى ويتفرّق. بتوافر هذه المعلومات، خلُص «الحسن» إلى النتائج التالية:

- إنّ هزيمة جيش السلطان واقعةٌ حكماً نتيجة تقاطع عاملَين اثنين: أولهما اندحار الخيّالة الأتراك أمام أسوار «آلاموت Alamut»، وثانيهما، نجاح تجربة الفدائيّين في الجنّة؛ فالأولَى أرغمت الأمير على اتّخاذ الحيطة والتقدُّم ببطءٍ في صفوف متراصّة، أمّا الثانية فقد انتشرت كأعجوبةٍ بشكل مرئيّ، وغير مرئيّ، في أوساط جند العدُوّ، فمثل هذه الأمور تستهوي العوامّ وتغذّي خيالهم الميّال لتصديق كلِّ ما هو خارق وأسطوريّ.

- بعد زيارة الفدائيّين للحدائق، طرأ على هذه الروضات بعض التغييرات. بعض الفتيات اللواتي تذوّقن ملذّات الحريم بدأن يتناسينها لتُصبح من ذكريات الماضي، وبعضهنّ ما زِلْنَ يتغنّيْنَ بها ويستذكرها بلذّة ومرارة. لم يعُد أمام الفتيات الآن سوَى الخياطة والأعمال المنزلية وتزجية الوقت بالحديث والنقاش والثرثرة.. كثيرات منهنّ يتمنَّين لو يعود الزُّوار الثلاثة مرّة أخرَى، وبعضهنّ يرَى أنّ «الحسن» سوف يرسل شبّاناً سواهم. واحدةٌ فقط من بين فتيات الحدائق ما زالت تعاني عذاب الفراق، إنّها حليمة، التي لم تستطِع، ولا تريد أن تستوعب الواقع، وأنّها لن تلتقي

سليمان ربّما إلى الأبد؛ لقد أقلقت حالها مريام. خلال بضعة أيام نحُل وجهها واحمرّت عيناها وخلّف الأرق على تقاسيمها آثاراً ظاهرةً. حاولت مريام التخفيف عنها ما استطاعت، ولكنّها هي بدورها ليست خالية القلب. بعد مُضيّ شهرٍ من الانتصار على طلائع جيش السلطان وصلت كوكبةٌ من رجال مظفّر بينها رسولٌ من الوزير الجديد «تاج المُلك» الذي لم يعُد الوزير الأول، إلى القلعة لمقابلة «الحسن».

استقبل «الحسن» الرسول الذي نقل إليه ما مفاده أنّ نبأ هزيمة الأمير علم به السلطان وهو في طريقه إلى بغداد. ترافق هذا النبأ السيئ مع وصول الوزير المُقال «نظام الملك» الذي حاول تهدئة غضب السلطان الذي كان حانقاً على الأمير أرسلان محذّراً إيّاه من مغبّة المثول أمامه لتبرير ما حصل. حاول «نظام» جاهداً إقناع السلطان خطأ السياسة المتّبعة، وأنّ المسؤولية بكاملها تقع على عاتق الوزير الأول الحليف السرّي للإسماعيليّين بمباركةٍ من السلطانة. ويبدو أنّ «نظام الملك» وُفّق في إقناع السُّلطان بوِجهة نظره، لأنّ السلطان ما لبث أن أعاده إلى منصبه كوزير أول، الأمر الذي رفضته السلطانة، وأصرّت على أن يستمرّ «تاج الملك» في منصبه. خلاصة القول، باشر «نظام» تجميع القوات حول «نهاوند» بقصد التوجّه إلى أصفهان لإسقاط خصمه بالقوّة واستعادة سلطته كوزير أول، وفي الوقت عينه، استعادة هيبة السلطان. في الوقت نفسه استمهل الأمير أرسلان شهراً واحداً للاستيلاء على القلعة وتدميرها، وإن لم يفعل فسوف يُتّهم بالخيانة العُظمَى، كما أنّ أوامر مماثلة أُصدرت إلى المدعو «كينريل صاريك» الذي يعسكر من دون جدوَى عند أسوار قلعة «زوم جامباذان» في خوزستان.

تلك هي المعلومات التي رغبت السلطانة، ووزيرها، الإسراع في نقلها إلى صديقهما القديم «الحسن» عبر هذا الرسول، وهما يؤكّدان أنّهما لا يزالان ملتزمَيْن بِقَسَمِهما ويرجوانه مساعدتهما في مواجهة هذه المحنة.

أجاب «الحسن» الرسول:

- أنقلْ أولاً تحياتي إلى أسيادك، ثم أعلِمهما أنّي في غاية الدهشة كونهما مؤخَّراً أخلفا بوعدهما، وإذ هما الآن في ضيق يطلبان العون منّي. بالرغم من عدم التزامهما بما وعدا، لن أتردد في مدِّ يد العون لهما مرّة أخرَى، ولكن حذار أن يعاودا الكَرّة ويتنكّران لوعودهما، ثم صرف الرسول وأمر له بهدايا نفيسة وبوداع لائق.

- حانت اللحظة الحاسمة، أسرّ إلى «أبو علي».

بدا عليه هدوءٌ غريب، هذا الهدوء الذي يتبدّى على مَن هم على وشك اتّخاذ قرارٍ، قرارٍ لا رجعة عنه.

- «نظام الملك» إذاً استعاد زمام السُّلطة. ما يعني بالنسبة لنا أننا حيال عدوٍّ شرس سيجهد لسحقنا ومحونا من الوجود. إزاء هذا الوضع علينا التصرُّف من دون انتظار.

بدا على الداي الكبير قلق ظاهر.

- ماذا بودِّك أن تفعل؟

- تصفية عدوّي اللَّدود مرّة واحدةً إلى الأبد.

كرّس «ابن طاهر» قِسماً وافراً من أيّامه للشّعر؛ فالشّعر وحده يتيح له التعبير عن مشاعره وتجاوز قلقه والبوح بتمنّياته. راح ينظم قصائده على قصاصات من الورق يخفيها بعيداً عن أعين المتطفّلين. كلُّ عبارة من قصائده كان يصوغها بمُنتهَى العناية والدِّقّة، ويجد في هذه الهواية التي يمارسها متنفَّساً للضغوط التي تعصف بفؤاده.

ذات مساءٍ استدعاه «الحسن» وفي نيّته وضعه على مِحكّ الاختبار. فتوجّه إليه بالسؤال:

- هل إيمانك متين حاليًّا؟

- أجل سيِّدنا.

- هل أنت مقتنع أنّي قادر على فتح أبواب الجنّة لك عندما أريد؟ وهل تؤمن بذلك؟

- أؤمن بذلك يا سيِّدنا.

تفرّس «الحسن» في وجهه بإمعان. أيُّ تغيير طرأ على محيّاه منذ تلك الليلة التي أرسله فيها إلى الجنّة! لقد هزل وجهه وضمر خدّاه وغارت عيناه. لاحظ «الحسن» كلَّ هذا وتمتم في سرّه: الآلة تعمل بفاعلية فائقة.

- هل ترغب في أن تستحق الفرح الأبدي؟

انتفض «ابن طاهر» واستنار وجهه ورنا إلى «الحسن» بنظرةٍ متوسِّلةٍ:

- آه، يا سيِّدنا.

أخفض «الحسن» نظره، واستشعر فجأةً ألماً وحسرةً، من أجل هذا كان يحرص دائماً على عدم التقرُّب كثيراً من الفدائيّين.

- لم يكن الأمر من قبيل العبث عندما فتحت لـك أبـواب الجنـة؛ إنـما أردت أن يكون إيمانك صلباً، وأن تعلم أنّ هذا ما ينتظرك كلّما نفّذت مَهمّةً توكَل إليك... هل تعرف مَن هو الغزالي؟

- من دون شكّ، تقصد يا سيّدنا ذلك الصوفيّ؟...

- أجل، هذا الذي من خلال كتابه «تهافت الفلاسفة» يضرب في العمـق العقيدة الإسماعيليّة. منذ عام مضَى عيّنه الوزير الأول أستاذاً في إحدَى كـبرَى مدارس بغداد. مَهمَّتك تقضي بالتَّظاهر بأنّك أحـد مريديـه. سـوف أعطيـك هذا الكتاب، أحد مؤلَّفاته، وهو ليس بالكبير. أعلم أنّ ذهنك وقّاد وفي ليلـةٍ واحدةٍ يمكنك قراءته واستيعابه. عُد إليّ غداً صباحاً. أنت منذ الآن بتـصرُّفي شخصيًّا. إيّاك أن تتفوّه بأيّة كلمةٍ عمّا دار بيننا. هل فهمتني؟

- فهمتك، يا سيّدنا.

طلب «الحسن» إليه الانصراف فلاحظ لدَى مغادرته أنّه في حالـةٍ مـن النشوة لا يحاول إخفاءها. من دون أدنَى ريب تغمره الآن أطياف السعادة.

على السُّلَّم الْتقَى «ابن طاهر» «الدايّ أبو عـلي» و«بـوزرك» مقطـوعَي الأنفاس غاضبَيْن وخلفهما رجل يبدو عليه أنّه قادم من رحلةٍ شـاقّة لكثـرة ما علق عليه من غبار السَّفر، وبحُكم آثار العرق الماثلة على وجهه المرهَق.. التصق «ابن طاهر» بالحائط كي يسمح للثلاثة بالصُّعود.. شعورٌ أوْحَى إليه أنّ أياماً صعبة ومؤلمة ستواجهها «آلاموت Alamut» قريباً.

أزاح الحارس الستارة وأدخل الزائرين.

- رسول من خوزستان، أعلن «أبو علي»، وهو يستعيد أنفاسه.

- ماذا جرَى؟

حاول «الحسن» جاهداً السيطرة على نفسه؛ لقد عرف على الفور مِن سيمائهم أنّ أمراً خطيراً قد وقع.

ارتمى الرسول عند قدميه.

- يا سيِّدنا، «حسين الكاييني» قد قُتل.

شحب لون «الحسن» وقال:

- مَنْ هو الفاعل؟

- عُذراً سيّدي! إنّه حسين ابنك!

ارتعد «الحسن» كأنّ صاعقةً ضربته، حرّك ذراعيه كمن يحاول القبض على عدوٍّ غير مرئيّ ثم تراخت أطرافه وما لبث أن سقط على الأرض من دون حراك.



الفصل الخامس عشر

ابن الرئيس الأعلَى أقدم على قتل «داي خوزستان»! في اليوم التالي، كلُّ «آلاموت Alamut» ضَجّت بهذا النبأ. لا أحد يعلم بالتحديد كيف انتشر الخبر، فالرَّسول لم يُدلِ به إلاّ «للدَّايّين» وهما بدورها اقتاداه إلى «الحسن»، ربما سمع به أحد الضّبّاط وربما فشا به «الدّايان» عفواً في أثناء صعودهما السُّلَّم. كلُّ سكان المنطقة علموا بالخبر أيضاً، ممّا يعني أنّه لا سبيل لإخفائه عن جُموع الأتباع بعدُ الآن.

كان على «ابن طاهر» أن ينتظر ليتسنّى للحسن استدعاءه.. أراد الرئيس الاطلاع على كافّة تفاصيل الجريمة، فطلب من الرسول أن يرويَ له، بكامل دقّة، تفاصيل حصول الحادثة.

- قال الرسول: آه يا سيّدنا، عندما وصلت الحمامة الزاجلة التي تحمل رسالتك إلى «زورجامباذان»، كان قد انقضَى على حصارنا أسبوعٌ كامل. لقد سقطت كلُّ المواقع القليلة الأهمّية التي كانت قائمةً حول القلعة، وعديد القوات المحاصِرة يبلغ عشرين ألف مقاتلٍ. عُرض علينا الخروج لقاء ضمان سلامتنا، ولكنّ الداي الكبير رفض العرض، في حين كان ابنك

حسين مؤيّدا لبيع القلعة للعدو، الأمر الذي أحرج «الداي». من أجل ذلك بعث إليك يرجوك المشورة بما عليه أن يفعل، فأمرته بالقبض على ولدك وزجّه في السجن. رغب الدّاي أن يحيطه علماً بقرارك بشأنه واقترح عليه الانصياع تلقائيًّا للأمر؛ لكنّ حسين استبدّ به الغضب ولم يُصغِ لصوت العقل، فسمعه مَن كان هناك يصرخ: «أيّها الكلب لقد بِعتَني لوالدي، ثم شهر سيفه وضرب.

- ماذا فعلتم به؟

- إنّه في السّجن الآن، وقد تولّى قيادة القلعة مكان الراحل «عبد الملك بن أطاش».

- ما هو تقويمُك للوضع الآن؟

- صعبٌ يا سيدي، لدينا قليلٌ من الماء، والغذاء على وشك النَّفاذ، سيّما وأنّ حوالى ثلاثة آلاف من الأتباع قد لجأوا إلينا. بالطبع، الشعب في خوزستان مؤيّد لنا، ولكنّ هذا الشيطان «كيزيل صاريك» رجل قاسٍ وكافّة سكان المقاطعة يرتعدون خوفاً منه، وعلى هذا فليس بوسعنا الاعتماد عليهم.

شكره «الحسن». لقد استعاد توازنه واستجمع كامل قواه وصرامته الآن.

- ماذا تنوي أن تفعل فيما يتعلّق بابنك؟ استوضحه «بوزرك»؟

- سوف نحاكمه وفق قوانيننا.

صرف «الحسن» زوّاره واستدعَى «ابن طاهر».

- ما هو رأيك في «الغزالي»؟

- قضيت الليل بكامله أقرأ كتابه وأستوعب آراءه؛ سيِّدنا.

- حسناً، هل علمت بما حصل في خوزستان؟

لاحظ «ابن طاهر» تجاعيد جديدة قد ارتسمت على وجهه فأجاب:

- أجل، سيِّدنا.

- ماذا كنتَ تفعل لو كنتَ مكاني؟

- أفعل ما ينُصُّ عليه قانوننا.

- أنت على حقّ، هل تعرف من هو إبليس؟

- إنّه الروح الشرِّيرة التي أغوت أول آدمي.

- إبليس أكثر من ذلك، إنّه من تنكّر لسيِّده، إنّه عدوّ الله اللَّدود. وافقه «ابن طاهر» على رأيه بإيماءةٍ من رأسه.

- كلُّ مارِقٍ وكلُّ عدوٍّ للعقيدة القويمة هو من أقرباء إبليس، لأنّ العقيدة الحقّة والوحيدة هي عقيدة الله، تلك التي يبشّر بها أتباع إسماعيل.

- أحسنت، والآن هل حدث لك أن سمعت مَن يقول أنّ شخصاً معيَّناً قد تنكَّر لعقيدتنا وأصبح بالتالي عدوَّها اللَّدود؟

نظر الفتَى في عينيه محاولاً استيعاب ما يعنيه، ثم قال:

- ربّما تقصد الوزير الأكبر.

- بالتحديد، أي قاتل جدك! إنّه إبليسنا، روحنا الشريرة. هل أنت على استعداد لتُصبح ملاكنا، وتثأر لجدِّك؟. حضِّر سيفك!.

صرّ «ابن طاهر» قبضته وانتصبت قامته، فبدا أكثر من أيِّ وقت مضَى أشبه بشجرةِ سروٍ فتيّة.

- سيفي جاهزٌ سيِّدنا.

- هل تعرف الطريق من الرّيّ إلى بغداد؟

- أجل فأنا من «سافا» وهي على هذه الطريق.

- إذاً، اسمع جيّداً، سوف تنطلق أولاً إلى الرّيّ ومنها إلى همذان عبر «سافا» حتى «نهاوند»، ولكن، عليك تجنُّب منزل ذويك، في أثناء سيرك، عليك ألاّ تفكِّر إلاّ بشيءٍ واحد، بُلوغ هدفك. راقب واستعلم ما استطعت لتعرف ما هي نوايا الوزير الأكبر. لقد علمت أنّه جهّز جيشاً كبيراً في «نهاوند» لمواجهتنا، ومواجهة عدوِّه في أصفهان، تاج المُلك. أتسمعني جيداً؟ الغزالي هو صديقه. منذ هذه اللحظة، أنت عثمان أحد مريدي الفيلسوف الشهير، قدِمتَ لتنقل إلى الوزير مباركةً وصلوات سيِّده. عليك أن تأخذ الكتاب الذي أعطيتك إياه معك. لقد جهّزت لك الثوب الأسود الذي يرتديه الطُّلاّب السُّنّة مع صُرَّةٍ من النقود لنفقات الطريق ورسالة للرجل الذي عليك القضاء عليه. وهذا الختم الظاهر عليها يفتح لك الأبواب.

استلم «ابن طاهر» من «الحسن» الثوب الأسود، فتحسّسه بسرور قلِق، ثم وضع الصُّرّة تحت حزامه والرسالة داخل جلبابه.

- لقد سبق أن تعلّمت من «الحكيم» الأسلوب المتّبع عند المثول أمام الوزير الأكبر. لدَى مغادرتك «آلاموت Alamut» عليك إخفاء هذه الأشياء في كيس ثم تتبدّل زيَّك عندما تصبح خارج القلعة، وتتخلّص من كلِّ ما يفضح سرّك. أعرف «نظام الملك»، فعندما يعلم أنّك مُوفدٌ من قِبَل الغزالي سيستقبلك بمُنتَهَى المودّة. الآن، أصغِ إليّ جيداً! في أحد ثنايا هذا الملفّ المختوم خُبِّئت نصلةٌ دقيقةٌ جداً، الخنجر الصغير الذي تراه. أنظر كيف عليك أن تفعل حتى يسقط في يدك هذا السلاح الرهيب، حركةٌ خفيفةٌ لا تثير الرِّيب، وذلك في اللحظة نفسها التي تقدِّم خلالها المظروف إلى المرسَل إليه، أنظر هكذا. وعندما يكون الوزير منكباً على نزع الأختام، لا يعود أمامك إلاّ أن تغرس في عنقه نصل الخنجر في هذا المكان بالتحديد.. لكن حذارِ أن تجرح يدك لأنّ حدّ السلاح يحوي سُمّاً زعافاً.

أصغَى «ابن طاهر» لكلام «الحسن» بوجه شاحبٍ وعينين برّاقتين.

- وبعدها، ماذا عليّ أن أفعل؟

رمقه «الحسن» بنظرةٍ قاسية.

- بعدها، استعِن بالله؛ سوف تفتح لك أبواب الجنّة، ولا أحد يمنعك من دخولها؛ وهناك ستكون «مريام» بانتظارك.

- فهمتُ سيِّدنا.

انحنَى وقبَّل بسرعةٍ يد «الحسن» الذي كتم رعشةً لم يلحظها الفتَى وهو

غارق في التفكير في ما هو مقدمٌ عليه. اقترب «الحسن» من الخزانة، فتحها وأخرج منها بضعة أقراصٍ وضعها في كيسٍ صغير من الحرير وقال له:

- تناول حبّة كلَّ مساء فسوف تقودك حتى عتبات الجنّة، ولكن احرص على استبقاء واحدةٍ للَّحظة الحاسمة. عليك ابتلاعها قبيل الذهاب لمقابلة الوزير.

ثم ربّت على كتف الفتَى قائلاً:

- عليك الانطلاق الآن يا بنيّ....

استأذن الفتَى سيِّده مودِّعاً، مشوَّش الفكر، شاحباً، فخوراً ومتأثِّراً. فشيَّعه «الحسن» بنظرةٍ حتى اختفائه خلف الستارة، ثم رفع يده إلى صدره. كاد يختنق، فلم يرَ بُداً من الصُّعود إلى الشُّرفة لاستنشاق الهواء النَّقيّ.

كان لنبأ مقتل «الكاييني» أثر بالغ على «الحسن»، فقد أمضَى ليلته في حالةٍ أقرب إلى الموت، ولم تُفلح جهود كبار الدايات في جعله يستردّ وعيه. عندما استفاق من غيبوبته تبادر إلى ذهنه للتوّ أنّه مات، وأنّه الآن في العالَم الآخر. تملَّكه رعب قاتل، تذكّر حياته ومجُرَياتها فانتابه الذُعر؛ ولكنّ أصوات صديقيه أعادته إلى الواقع. استعاد تماسكه وشكر الله لتجاوزه هذه المحنة.

صرف صديقيه وانفرد بنفسه. حسين الكاييني، ذراعه اليمنَى قُتل على يدِ ابنه! يجب أن يُطبَّق القانون بحرفيّته؛ وعلى «ابن طاهر» السير لتنفيذ

مَهمّته. كتب الرسالة وختمها بعناية ثم أحضر نصلاً دقيقاً كالمثقب غطّسه في السُّم ثم تركه ليجُفّ. بعد ذلك ارتمى على سريره وغطّ في سُباتٍ عميق. عكف «الدايات» والرؤساء على مناقشة حادثة مقتل الكاييني. فتساءلوا ماذا سيفعل «الحسن»؟ هل سيتقيد بنصّ القانون؟ هل سيوقّع قرار الحكم بابنه؟ لقد تباينت آراؤهم، فمنهم مَن أكّد ضرورة تنفيذ القانون أيًّا كان الفاعل، ومنهم مَن ارتأى أنّ الرئيس يمكنه تعديل القانون، وبالتالي منح المجرم أسباباً مخفَّفة، وخلصوا في النهاية إلى القول: إنّ الرئيس في وضع لا يُحسد عليه، وأنّ الخيار المتوافق مع القانون هو الأصلح للمؤسّسة، فخسارة الكاييني خسارة كبرَى، فمن ذا الذي سيتولّى من بعده جباية الخراج في «خوزستان» أو التعرُّض لقوافل المراطقة؟...

عندما عاد سليمان ويوسف من التمارين الميدانية للطلاّب، كانا في غاية التّعب والإرهاق. ما إن وصلا إلى غرفتهما حتى ارتميا على الأسرّة ينشُدان الراحة. فجأةً وصل نعيم وأعلمهما أنّ «ابن طاهر» عاد من مقابلتة لسيِّدنا، فدُهشا لسماعهما هذا الخبر، وسألاه مَن أعلمه بذلك؟ فأجابهما أنّه شاهده يغادر البُرج، ولكنه لم يلحظ وُجوده. لقد تصوّرت أنّه أصابه مسٌّ إذ كان يبدو عليه أنّه تائهٌ كأنه يتحدّث إلى الملائكة، وقد سمعته يطلب إلى أحد الجنود أن ينقل له جواداً. توجّه الرفاق الثلاثة لرؤيته. في هذا الوقت كان «ابن طاهر» منهمكاً في صرّ ثيابه واللفائف التي دوّن عليها قصائده التي سلَّمها لصديقه جعفر إلى حين عودته.

اقترب سليمان من «ابن طاهر» وسأله، وهو ينظر إليه محدِّقاً:

- هل قابلتَ سيِّدنا؟

- وكيف علمتَ بذلك؟

- أعلمني بذلك نعيم.

- حسناً، ربّما تريد أن تعرف أيضاً المَهمّة التي أُوكلت إليّ؟ قال هذا ثم تابع تحضير حاجياته ولوازمه.

- جعفر ونعيم غادرا القاعة، وبقي الرفاق الثلاثة.

- الأمر صعب، ولكن عليّ التزام الصمت، أعلن «ابن طاهر» لرفيقيه.

- قُل لنا إذا كنّا سوف نعود إلى الجنّة قريباً؛ سأل سليمان ذلك بصوت يائس متوسِّل.

- عليك التحلّي بالصبر، نفِّذ كلَّ ما يأمرك به سيِّدنا، وإذ ذاك لا بدّ أن يفكّر فيك.

ثم ودّعهما من دون عناق بإيماءةٍ من يده، وأسرع إلى جواده يمتطيه ليخرج من القلعة بعد الإدلاء بكلمة المرور للحارس..

خلال دقائق أصبح بعيداً عن «آلاموت Alamut» فاستدار نحوها، وتذكّر كيف وقف في هذا المكان لبضعة أشهرٍ خَلَتْ، ينظر إلى هذه القلعة، لأوّل مرّةٍ، يستعجل دخولها. هل سيُتاح له أن يعود إليها؟ استولَى عليه حُزنٌ أليم، فهذه الرحلة إلى المجهول تضعه في فم التنّين وتجعل مصيره قشّة في مهبّ الرِّيح!

استبدل ثيابه في مكانٍ منعزل، ثـم وضـع في كـيس كـلَّ مـا لا يحتاجـه وخبّأه في حفرةٍ ردم فوقها بعض الحجارة. تأمّل لباسه الجديـد، الآن لم يعُـد يُدعَى «ابن طاهر». ألم يكن أحد تلامذة المدرسة العليـا في بغـداد، التلميـذ المقرَّب من الغزالي... سروال أسود، قميص أسود وعمامةٌ سوداء، ذلك هو لون السُّنّة، الهراطقـة، وأعـداء العقيـدة القويمـة! خبَّأ في أكمامـه الواسـعة الكتاب والرسالة التي تحوي النَّصل القاتل، ثم تحقَّق من قربة الماء الكبـيرة، ومن مزادة الطعام المعلَّقة إلى الرَّحل، وانطلق باتّجاه الجنوب.

ظلّ يخيّل طوال النهار، وحتى منتصف الليـل، ولا يتوقّـف إلاّ سـاعة ظهور القمر في السماء ليحُطّ رحلَهُ وسط الصخور. عند الصباح شاهد مـن أعلَى الأكمة معسكراً كبيراً يمتدّ لمساحةٍ شاسعةٍ في المنخفض. إنهـم طلائـع جيش السلطان. اكتنف مواقعهم وعند المساء بلغ الرّيّ.

في الخان، حيث قرّر أن يمضي ليلته، علم أنّ «أرسـلان طـاش» يعتـزم مهاجمة «آلاموت Alamut». كلُّ وحدات الجيش تتّجه الآن نحـو الجبـال. هكذا استقرّ رأي السُّلطان المتعطِّش لمحو آثار الخيبة من هزيمة الخيّالة أمـام آلاموت؛ إلاّ أنه لم يتمكّن من الحصول عـلى أيّـة معلومـاتٍ عـن مخطّطـات الوزير.

أخيراً حانت ساعة النوم. بِيد مرتجِفةٍ فكّ عُقدةَ صُرَّتـه وتنـاول قُرصـاً من الأقراص التي سلَّمه إياها «الحسن»، ابتلعه منتظراً بداية فاعليّته.

بعد قليل، استشعر قوّة غامضة تحمله إلى الأعالي كما سبق وحصل لـه في سفرته الليليّـة الـسابقة، إنّـما مـن دون شُـعور بـالخوف، راح يفكّـر بمريـام، وبدأت تتراءَى أمامه لوحاتٌ مختلِفةٌ، قُـصور ضـخمة فخمـة تعلوهـا أبـراجٌ شاهقة ناصعة البياض، ثم بدأت هذه القصور تتهاوَى كأنّ يداً خفيّة تـدكُّها، ثم بدت أمام ناظريه مُدن كبيرة بألوان مختلفة رائعة. غمره إحساسٌ أنّه يحكـم هذه البلدان المجهولة كملكٍ ذي سلطان مُطلَـق، إلى أن بلغـت هـذه الـرُّؤَى أوْجَها، فأصابه الإجهـاد وغـطّ في النَّـوم. اسـتفاق متـأخِّراً، فـأحسّ بـألَمٍ في ساقيه، وتساءل متعجِّباً: «لماذا يبدو استيقاظي هـذه المرّة يختلـف عـن الـذي عرفته في مقصورة مريام؟! غادر الخان واستأنف رحلته متجنِّبـاً بلدتـه رغـم حنينه إليها، حتى أدركه التَّعب، لكنّه ما تراجع ومـا اسـتكان، فركّـز تفكـيره على مَهمَّته ولم يكن يتمنَّى سوَى الوصول إلى خان، ليرتاح فيه ويبتلع القرص الغريب، ويخلُد إلى النَّوم. أمام همدان صادف مفرزةً مسلَّحةً من الخيَّالة.

- مِن أين أنت قادمٌ أيُّها الفارسيُّ؟ سأله أحد الرُّتباء.

- مِن أصفهان أحمل رسالةً إلى الوزير الكبير، وقـد علمـت أنّ سـعادة الوزير سلك هذه الطريق حيث نحن الآن، وأنا أقصد مقابلة السلطان.

- تريد مقابلة عظمة الوزير «نظام المُلك»؟

- لديَّ رسالةٌ له، وقـد علمـت أنّ آخَـرين سـواه يتولَّـون الـسُّلطة في أصفهان.

- تعالَ معنا إذاً، سعادته في «نهاوند» حيث أقمنا معسكراً حربيًّا كبيراً؛ هناك تتجمَّع قوّاتنا لتسير مباشرةً إلى أصفهان وفقاً لِما أعلم.

- كُنتُ سأتبع طريقاً آخر لو لم أسمع صُدفةً في الخان خبر مغادرة عظمته، ألم يحدُث خلافٌ بشأن بعض الهراطقة؟

- تقصد الإسماعيليّين؟ هؤلاء ليسوا خطِرين. سوف يتولّى أمرهم الأميران «أرسلان طاش وكيزيل صاريك»، إنّ العملية الأكثر أهمّية هي في مكانٍ آخر.

- أعترف بأنّي أجهل كلَّ هذه الأُمور.

- تسري هنا أقاويل تتحدَّث عن صراع يدور حول ولاية العهد. «نظام المُلك» يرغب اختيار «برقيارق» الابن البكر وريثاً للعرش، في حين أنّ جلالة السُّلطانة تريد ابنها محمد. الجيش والشعب يؤيّدون الابن البكر، بينما محمد لا يزال صغيراً.

قبل أن يبلغوا همدان. أصبح «ابن طاهر» على اطّلاع على كلِّ الضَّجّة التي تُثار حول ولاية العهد في دهاليز القصر. في المدينة عَلم أنّ السُّلطان غادر «نهاوند» متَّجهاً إلى بغداد.

ودّع «ابن طاهر» صديق الطريق وقصد أحد الخانات، حيث أمضَى ليلته، وفي الصباح الباكر استأنف مسيرته باتّجاه «نهاوند».

في وسط أحد السُّهوب تنتصب آلاف الخِيَم تحت أشعّة الشمس المُحرِقة حيث الخيول والبغال والجِمال ترعَى العُشب الجافّ بحُرِّية وهدوء

تحرسها مجموعة من الجنود، وغير بعيد مئات الأبقار والخراف والماعز المنتشرة تأكل ما تبقّى في هذه الأرض الجافّة من عُشب.

من كلّ أرجاء البلاد تتوافد إلى هذا المعسكر قطعاتٌ تنضمُّ إلى القوات المعسكرة فيه.

في وسط المخيّم تشاهد مساحة كبيرةٌ لا خيمة فيها. في هذا المكان كانت قد نُصبت الخيم المخصَّصة للسُّلطان، وأصبحت بعد أن غادر المعسكر إلى بغداد خُلُوًّا من أيِّ شيء باستثناء خيمةٍ واحدةٍ خضراء واسعة تلفت الأنظار لفخامتها، إنّها خيمة الوزير الأكبر.

منذ أن وقع الشِّقاق بين الوزير وسيِّده انعكس الأمر بشكل ملحوظ على الوزير، فقد تبدّت على محيّاه أمارات الشيخوخة. بالرغم من أنّه ناهز السبعين فقد حافظ على نشاطٍ مدهش، وقوامه على صهوةِ جواده لا يزال يثير إعجاب المحيطين به. منذ أكثر من ثلاثة عقود وهو يتولّى زمام السُّلطة بكلِّ جدارة. «السلطان ألب أرسلان طاش»، والد السلطان الحالي، اختاره وزيراً ولم يراوده الندم مُطلَقاً. عند وفاته أوْصَى ابنه وريث العرش به. لم يخالف السلطان الجديد وصية والده، بل أضاف إلى لقبه الوزير الأكبر، لقب «أتابك»، أي والد الأمير. نهض «نظام المُلك» بالحكم فوطَّد الأمن على الحدود، وأنشأ الطرقات، وشيّد مُدُناً ومساجدَ ومدارس. كما نظّم الضرائب وحقّق الأمن والإزدهار في البلاد إلى مستوًى لم تبلغه سابقاً. كان يتمتّع على الدَّوام بالثقة اللامحدودة للسلطان... إلى أن وقع خلاف بينه

وبين السلطانة حول ولاية العهد. كثيرون من حُسّاد الوزير حاولوا الوقيعة بينه وبين السلطان، ولكنَّ الأخير لم يكترث لوشاياتهم يوماً. إنّه لم يعبأ كثيراً للثروة التي كدَّسها الوزير في خلال خدمته، وفوق ذلك سمح لنظام المُلك أن يعيِّن أبناءه الإثني عشر في أعلَى المناصب في إدارات الدولة، ولكنّ السُّلطانة الشابّة نجحت بعد جهد مستمرّ في أن تبرهن لزوجها أن بعض التدابير التي اتّخذها الوزير تبدو تعسُّفية، وأنّه يتعامل مع السُّلطان، سيّده، كتلميذ بسيط، وبالتالي فإنّ الوزير يستغلُّ سلطته بشكل معيب. ومن سوء حظ الوزير أنّ بادرةً سيّئة من قِبَل الابن البكر لنظام المُلك جاءت لتدعم مزاعم السُّلطانة. ذلك أنّ الأمير أوصَى الوزير ابن نظام المُلك بشخصٍ مُقرَّبٍ منه يُدعَى عادل ليُعيِّنه في إدارته، ولكن الوزير ارتأَى عدم الأخذ بهذه التوصية بحُجّة أنّه غير كُفءٍ للوظيفة المقترَح إسنادها إليه. أثار هذا الأمر غضب السُّلطان فأعفَى الوزير مِن سُلطته وأحلَّ مكانه المدعو عادل، الأمر الذي أثار حفيظة الوزير الأكبر ولم يخلو الأمر من بعض الانتقادات للسُّلطان التي بلغت مسامعه فانتهَى به الأمر إلى تجريد الوزير الأكبر مِن المِحْبَرة وحاملة الأقلام والقُبَّعة التي ترمُز إلى رُتبة الوزير. ثم حصل أن تفاقمت الأمور بينهما إلى أن أعفاه من كلِّ وظائفه وأقاله وعيّن مكانه «تاج المُلك» وزيراً أكبر.

ذات صباح جميل، أعلن مسؤول المراسم أنّ شخصاً يُدعَى عثمان أحد مريدي الغزالي يطلُب مقابلة الوزير الكبير، وأنّ سيِّده أوْفده من بغداد

حاملاً رسالةً شخصيةً له. كان الوزير مسترخياً على الأرائك يتناول طعامه، عندما أجاب بالموافقة على دخول الرسول.

يبدو أنّ مقابلة الوزير الأكبر حتى في هذا الوقت أسهل بكثير من مقابلة الرئيس الأعلَى للإسماعيليّين، تمتم «ابن طاهر» في سرّه. في المخيَّم كان أحد الحُرّاس قد اقتاده إلى مركز رئاسة الحرس، حيث اطّلع منه على الرّسالة المدموغة بخاتم مدرسة بغداد العُليا والموجَّهة إلى الوزير الأكبر. سُمح له بالتقدُّم حتى الخيمة الخضراء. كان «ابن طاهر» خلال هذه الفترة هادئاً مسيطراً على نفسه، وتفكيره مركَّزٌ كلّيًا على أمرٍ واحدٍ: الأمر الذي أصدره إليه الرئيس والمطلوب منه تنفيذه. بوصوله أمام الخيمة ابتلع القرص الأخير ثم دخل إلى غرفة جانبيّة. أوْقفه الحارس فأعلن بصوتٍ واضح هدفه من الزيارة. لم يكن قد شعر بشيء من تأثير القرص ولكنَّ صورة مريام تراءت في مخيِّلته، فبدت على وجهه ابتسامةٌ طفوليّة. مع أنّه لم يفكّر فيها طوال أيّام رحلته، فكأنّها فرضت نفسها فجأةً على مخيِّلته لتؤكِّد له أنّها في انتظاره عند عودته؛ وهذا يُلزمه أن يبذُل قُصارَى جهده لينجح في مَهمّته... دعاه الحارس للمرور إلى غرفة أخرَى فدخلها بكلِّ جرأة. بدت خيمة الوزير أشبه بقصر حقيقيّ! حول الخيمة فريق حرسه الشخصيّ بكامل أسلحتهم، بإمرة ضابط يرتدي زيًّا فخماً.، إنّه رئيس المراسم.. بلجهة صارمة سأل الزائر عمّا يريد.، انحنَى «ابن طاهر» بكلِّ احترام وأعلن اسم من أرسله وعرض أمامه الرسالة التي ينقلها. وتقدم أحد الحُرّاس وفتّشه جسديًّا فلم يعثُر معه إلاّ على كتاب الغزالي وكيس فيه بعض النقود.

- هذه هي العادة المتَّبعة، قال مسؤول المراسم ذلك بمثابة اعتذار منه.

ثم أزاح الستارة ودخل إلى حيث الوزير ليُعلن قدوم الزائر. في هذه اللحظات الحاسمة انتاب «ابن طاهر» توتُّر شديد، بدأ سُمُّ القُرص يفعل فعله، فأخذت تتناهَى إلى مسمعه أصواتٌ اضطرب لها أيّما اضطراب ومنها صوت مريام.

ناداه مدير المراسم مرّتين على التوالي قبل أن يتقدّم ويتبعه عابراً باباً، رفع الحارس ستارته وأدخله إلى الوزير. نظر أمامه فشاهد رجلاً كبير السِّنّ مُستَرخِياً على الأرائك تبدو على ملامحه مظاهر العظمة. خُيِّل لابن طاهر أنّ المجهول يوجِّه إليه الكلام وأنّ الصوت يأتيه من مكان بعيد جداً.

انحنَى بإجلال وعندما انتصب واقفاً تراءت له الرَّدهة كأنّها مقصورة الجَنّة إلاّ أنّ صوتاً صارماً وصل إلى مسمعه:

- هوِّن عليك يا بُنيّ، الغزاليّ إذاً هو الذي أرسلك إليّ؟

- لاحظ من جديد وجه الوزير المبتسم بمودّة لمساعدته على تجاوُز ارتباكه.

- أجل، صاحب السيادة، سيّدي الغزالي بعث إليكم بهذه الرسالة. ناوله المظروف، وفي أثناء تقدُّمه ليسلِّمه إيّاه ترك القلم الدقيق ينزلق في كفّه. بحركة رشيقة سريعة لم يلحظها أحد من الموجودين.

فتح الوزير المظروف وتناول الرسالة متسائلاً:

- ماذا يحصل في بغداد أيُّها الصديق العالِم؟

انحنَى «ابن طاهر» كأنّه يريد أن يجيبه وبحركةٍ خاطفةٍ غرس النَّصل في عنقه تحت الذَّقن مباشرةً. فوجئ الوزير ولم يشعُر بتلك اللحظة بأيِّ ألم، لكنّه أصيب بالدهشة، وعندما وقع نظره على العبارة الوحيدة الواردة في الرسالة فهم كلَّ شيء. عندها فقط طلب العون. لم يبرَح «ابن طاهر» مكانه، بل ظلَّ جامداً مشلول الحركة مشوَّش التفكير. بدأ شكل القاعة بالتبدُّل أمام ناظريه، تلفّظ باسم مريام متلهِّفاً للقائها، ولم يعُد لديه سوَى رغبة واحدة، الاسترخاء والاستسلام لتأثير السُّم اللذيذ الذي يضطرم داخله. لكنّ الرجال طرحوه أرضاً.

حاول المقاومة، ولكنّ ضرباتٍ متعاقبة انهالت عليه وقيَّدت حركته. نُزعت ثيابه لتفتيشها، وفجأةً تذكّر أنّ هدفه الأساسي كان أن يموت فور تنفيذ مهمّته.

تناهَى إلى مسمعه صوتٌ ضعيف، صوت الوزير!

- لا تقتلوه، دعوه حيًّا.

كفَّ الرجال عن تسديد اللَّكمات والركلات إليه، ثم أوثقوا ساقَيه وذراعيه وتوجّه إليه أحدهم بالسؤال بصوت مخيف:

- مَن أنت أيُّها القاتل؟

- أنا ضحيّة سيِّدنا!

تـمّ الاهـتمام فـوراً بغـسل الجُـرح في عُنُـق الـوزير وسـارع أحـدهم لاستدعاء الطبيب بعد أن سمع المحقِّقون جواب الفتَى..

الْتقط رئيس الحرس الرسالة وألْقَى نظرةً عليها ثم أطلـع عليهـا مـدير المراسم، الذي ما إن قرأها حتى انتفض مـذعوراً. كانـت الرسـالة تتـضمّن هذه العبارة فقط:

- «إلى اللقاء... في جهنّم... ابن الصَّباح».

وصل طبيب الوزير الخاص على عَجَل وعكف على تفحُّص الجرح.

- سيّء؟ سأله الوزير بصوت مرتجِف.

- أخشَى أن يكون الـسِّلاح مـسموماً، همـس الطبيـب في أُذن رئـيس الحرس.

- سيِّد «آلاموت» هو مَن جهّز المجرم بالسِّلاح، قال الضابط بـصوت مسموع.

شاع النَّبأ بالتواتر: أنّ زعيم الإسـماعيليّين أرسـل أحـد أتباعـه ليقتـل الوزير!

- ماذا! شيخ الجبل! «الحـسن» الـذي سـبق للـوزير منـذ سـنوات أن استهزأ منه في أصفهان!

- تماماً، وهذا هو انتقامه.

علت أصوات الأبواق والطُّبول وسارع الجُند إلى أسلحتهم، وعمّ القلق والاضطراب صفوف الجند، حيث علت هتافات غاضبة وسُمعت قعقعة السلاح.

رغم نجاح الطبيب في إيقاف النزيف إلاّ أنّ الجريح بدا عليه وَهَنٌ ظاهر، فانتفخت أوردته وأخذ يشعر بطرقاتٍ قويّة في رأسه.

- بالتأكيد، كان النَّصل مسموماً، قال بصوت مرتجف ورنا إلى الطبيب بنظرة توسُّل يائسة. ألا يوجد علاجٌ له؟

تهرَّب الطبيب من الإجابة قائلاً:

- دعْني أستشِرْ زملائي.

عكف الأطبّاء الذين استُدعوا على عَجَل على دراسة الحالة، وبعد التشاور، قرّ الرَّأي على اللُّجوء إلى الكَيِّ. ذُعر الوزير لسماعه بهذا العلاج وبدأ العرق البارد يتصبَّب من جبهته.

- ليس ثمّة من علاجٍ سواه، قال الطبيب بلهجة جافّة.

عندما شاهد الوزير الجريح التحضيرات لعملية الكَيّ أصيب بالرُّعب فقال لأطبّائه بصوت مُتعَب هادئ:

- لا جَدْوَى من الكَيّ، دعوني أمُتْ بهدوء.

لدَى سماعهم قرار الوزير تلاقت أنظارهم ووجدوا في قراره تسريةً لهم لأنّهم كانوا يعلمون مُسبَقاً عُقم محاولة إنقاذه.

- هل أعلَمتم السُّلطان؟

- الرَّسول في الطريق وسيُوَافي جلالته قريباً.

- أيُّها الكاتب، أُكتب، أمره بصوت ضعيف.

«جلالة الملك العظيم، لقد كرَّست جُلَّ حياتي للقضاء على الظُّلم في مملكتك. الآن سوف أُلاقي وجه ربّي العَلِيِّ القدير ذي السُّلطان على المُلوك أنفسهم. سوف أُقدِّم له تعالَى البُرهان على إخلاصي لك، هذا الإخلاص الذي لم يضعُف طوال اضطلاعي بالمسؤولية. ها أنا الآن في السبعين من عمري أهوي بضربةٍ قاتلة. أستحلفك بالله أن لا تنسَى مَن سلَّح القاتل. إذا ما قُدِّر أن يبقَى المجرم حاكماً في «آلاموت Alamut» فلن تكون أنت ومملكتك في أمان. أرجو أن تسامحني إذا ما حصل أن أخطأت بحقِّك. أرجو أن لا تنسَى أولادي الذين لا يبخلون بالتضحية بأرواحهم فداء جلالتكم».

أنهكه الكلام وبدأ يتنفَّس بصعوبةٍ، وضع له الطبيب ضمَّادةً باردةً على جبينه ثم بادر بعدها إلى كتابة رسالةٍ لأولاده ثم سأل:

- أين هو القاتل؟

- هو قَيْد التعذيب، أجاب الكاتب، يريدون انتزاع كلَّ ما لديه من معلومات.

- فليُحضِروه إليّ..

اقتاد المحقّقون «ابن طاهر» ينزف دماً ممزَّق الجلد جريحاً، لا يقوَى على الوقوف. تفرّس الوزير في وجه هذا المجهول: «ولكنّه لا يزال ولداً»! تمتم في سرِّه.

- لماذا أردت قتلي؟

حاول «ابن طاهر» الوقوف وأجاب بصعوبة:

- ذلك كان أمر سيِّدنا.

- ألم تكن تعلم أنّ مصيرك الموت لاحقاً؟

- أجل كنت أعرف.

- ألا تخشَى ذلك؟

- بالنسبة للفدائيّ، الموت في سبيل تنفيذ المَهمّة المُوكلة إليه تعني السعادة.

- أيُّ جنون هذا! صاح الوزير واعتراه الغضب.

- لقد أعمِيَ على بصيرتك، هل تعرف ماذا تفعل؟ أتدري ما هو القانون الأساسيّ للإسماعيليّة؟

- أعرفه، تنفيذ أوامر الرئيس.

- وغد! مجنون! ألا تُدرك أنّني أعرف عقيدة معلِّمك؟

- أعرف أنّك مرتدٌّ، خائن.

- أصْغِ إليّ جيِّداً أيُّها الرجل، إنّ القانون الأسمَى للإسماعيليّة هو: ليس من شيء حقيقيّ، كلُّ شيءٍ مسموح!

- كذبٌ هذا! ارتجف «ابن طاهر» للإهانة. أنت تجهل من هـو سـيِّدنا. سيِّدنا هو الأقدس والأقدر بين الرجال! اعلـم أنّ الله وهبـه القُـدرة لفـتح أبواب الجنّة لأتباعه!

لم يصدِّق الوزير أذنيه فنهض بمشقَّةٍ على مرفقه وتفحّص «ابن طـاهر» حتى أعماق عينيه. يبدو أنّ هذا الفتَى لا يكذب. هزّ برأسـه مدهوشـاً. لقـد سمع بالخرافات التي تسري بشأن «آلاموت Alamut»، حول أمـر الـشُّبّان الذين يروون أنّهم أمضَوْا ليلةً في الجنّة؛ وبدأ يتفهّم الأمر.

- هل أنت متأكِّدٌ أنّك ذهبت إلى الجنّة؟

- لقد رأيتها بعينيّ ولمست بأصابعي الأعاجيب الموجودة فيها.

- ومِن دون أدنَى شكّ أنت على قناعةٍ أنّك سـتجد نفـسك فيهـا بعـد الموت.

- أجل، الموت يتيح لي دخولها.

- الله! الله! تمتم الوزير متّكئاً على الأريكة. مِـن أجـل هـذا كـان دائـماً بحاجةٍ إلى جاريات جميلات! كان يبتاعهنّ من أسواق النخاسة!

سمع «ابن طاهر» الكلام وأصغَى بكلِّ اهتمام.

- ألم يخامرك الشَّكّ في أن يكون الأمر مجرَّد خدعة؟ ألم تـراودك أفكـارٌ في أن تكون الجنّة من أعمال «الحسن»؟

- لا يمكن أن توجد في «آلاموت Alamut» حدائق على شاكلتها؛ إنّ الجنائن التي دخلتها تتوافق بدقّة مع وصف القرآن للجنّة.

من بين الموجودين، إلى جانب الوزير في أثناء هذه المقابلة، جنديٌّ قديم يعرف كلّ قلاع إيران، تدخّل وأدْلَى بما عنده:

- قد يكون الأمر يتعلّق بتلك الحدائق السرّية التي أقامها ملوك الديلم القدماء خلف القلعة لغاياتٍ معيّنة، كثيراً ما وصل إلى مسمعي أخبار عنها.

اضطرب «ابن طاهر» وانتابه خوف صبيانيّ.

- إنّك ابتكرت هذه الخرافة من أجل بلبلة أفكاري.

- إخرس أيُّها المجرم، كلُّ مَن خدم مثلي في الشمال يمكنه أن يؤكّد وجود هذه الجنائن خلف «آلاموت»، إنّهم يعرفون أنّها من صنع ملوك الديلم.

بدا الأمر مقلقاً لابن طاهر، حاول أن يُدلي بآخِر رهان لديه.

- لقد رأيت في هذه الحدائق فهداً مدجّناً أطوع من النعجة يتبع سيِّدته كما يفعل الكلب.

غرق الحاضرون في الضحك بمرارة.

- كلُّ الأمراء والكبار في هذا العالَم لديهم في حدائقهم، بقدْر ما يرغبون، من هذه الحيوانات، وبعض الصيّادين يستخدمونها عوضاً عن الكلاب.

- وماذا بشأن الحوريّات ذوات العيون السوداء اللواتي قمْنَ بخدمتي؟

- لَسْنَ سوَى قيانٍ مخصَّصاتٍ لُمتعة «الحسن»، وهو يبتاعهنّ من أسواق إيران، ولدَينا معلوماتٍ دقيقةٍ عن كلٍّ عمليّات البيع.

أخيراً انقشعت الغمامة عن عيني «ابن طاهر». مريام ليست سوَى قينةٍ عشيقة «الحسن»، وهو ضحيّة بائسة لدسائسهم ومخادعاتهم.. خارت قواه وألَمّ براسه وجع قاتل، فارتمَى على الأرض وأجهش في البكاء مُرهَقاً من الإجهاد.: فقَد الوزير وعيه، ألَمٌ مُبرِّح يمزِّق حنجَرته. ركع الكاتب إلى جانبه:

- إنّه يموت، همس الكاتب، وانهمرت الدموع من عينيه. سارع الأطبّاء إليه وتمكّنوا من إنعاشه بالماء البارد والعطور.

لاحظ الوزير «ابن طاهر» راكعاً أمامه.

- هل توضّحت الأمور لك الآن؟

أجاب الفتَى بالإيجاب، بإيماءةٍ من رأسه لعجزه عن النُّطق، لقد انهارت مقوّمات حياته.

- إنّني أموت بسبب غبائك، تابع الوزير. هل أنت نادم على ما فعلت؟

- كُلَّ النَّدم.

- بما أنّك شابٌّ ذو إرادةٍ، هل تملك الجَرأةَ للتعويض عن جريمتك؟

- إذا كان ذلك بمقدوري.

- هذا ممكن. عُد إلى «آلاموت» وأنقِذ إيران من مخالب هذا التنّين الإسماعيليّ.

- لم يصدِّق «ابن طاهر» أذنيه، علَت وجهه ابتسامةٌ طفوليّة من خلال دموعه المتساقطة.

- هل أنت خائف؟

- كلاّ، لست خائفاً، ولكنّي لا أعرف ماذا ستفعلون بي.

- سوف نُرسلك إلى «آلاموت».

أعرب المحيطون بالوزير خفيةً عن امتعاضهم واستنكارهم لهذا القرار. على المجرم أن يعاقَب وينبغي عدم تركه حُرًّا بلا عقاب. لكنّ الوزير المتهالك تدخّل قائلاً:

إنّي أعرف الرجال، فإذا كان ثمّة أحد يستطيع تصفية الحساب مع «الحسن» فلن يكون إلاّ هذا الشابّ.

- لا يمكننا ترك المجرم وشأنه من دون عقاب! ماذا سيقول جلالته؟

- لا تقلقوا لهذا الأمر، فما زلتُ حيًّا ومسؤولاً. أيُّها الكاتب، اكتب! ثم أملَى أمراً. مَن كانوا حوله رمقوا بعضهم وهم يهزّون رؤوسهم.

- هذا الشابّ الذي طعنني هو مثلي ضحيّة ذاك الدمويّ في «آلاموت Alamut»، وفي الانتقام منه انتقام لي، فلتواكبه مفرزةٌ من الفرسان حتى «آلاموت Alamut».

اقتاد الحراس «ابن طاهر» إلى خيمةٍ جانبيّة، ساعدوه على الاغتسال واعتنَوْا بجراحه وأعطَوه ثياباً نظيفةً ثم أوثقوه إلى عمود. كم هي مُرعبةٌ هذه الحياة! هذا الرجل الذي ينظر إليه أتباعه كقديس، ليس في الحقيقة سوَى دجّال ماكر. إنّه يتلاعب بحياة الناس وسعادتهم كما يلعب الولد بالحصَى. يستغلُّ ثقتهم ويزعم بكلّ برودةٍ أنّه رسولٌ ونبيٌّ كبير. هل هذا ممكن! كلّما أمعن «ابن طاهر» التفكير، كلّما ازداد اقتناعاً أنّ عليه أن يعود إلى «آلاموت Alamut»! ليتأكّد أنّه لم يُخدَع؛ وإذا لم يكن قد خُدع، فسوف يغرس بأقصَى لذّةٍ نصلاً مسموماً في جسم «الحسن»؛ فقد كان على كلِّ حال محكوماً بالموت. ولتكن إرادة الله.

أمضَى الوزير الليل تنتابه حُمَّى قاتلة شبه فاقد الوعي. وكان يستفيق بين لحظة وأخرَى تراوده خيالات مرعبة. عند الصباح تراخت قواه وعند الظهر أسلم الروح.

أعلن الرُّسُل النَّبأ في أرجاء البلاد بكاملها «نظام المُلك، منظِّم الدولة، فخر البلاد، الوزير الأكبر للسلطان ألب أرسلان وابنه ملكشاه، أكبر رجل في الدولة عرفته إيران سقط ميتاً بيد مجرمٍ صنيعة سيِّد «آلاموت Alamut».



الفصل السادس عشر

غداة اليوم الذي غادر فيه «ابن طاهر» «آلاموت Alamut» وصل إلى القلعة جاسوس حاملاً خبراً جديداً. انطلقت قوات الأمير أرسلان طاش غاضبةً باتّجاه «آلاموت Alamut».. قُرعت الطُّبول وزعقت الأبواق واستنفر الجميع، فأسرع كلٌّ إلى سلاحه واتّخذ المكان المحدّد له.. تلقّى الجنود في المضيق أمراً بملازمة مراكزهم حتى ظهور طلائع الفرسان العدوّة عند الأفق؛ بعد ذلك عليهم الانسحاب إلى آخر المضيق تاركين خلفهم بعض الأفجاج المخفيّة.

من حينٍ لآخَر، كانت تتلاحق الأنباء إلى القلعة من خلال العملاء الذين ينقلون كلَّ التفاصيل المتعلّقة بتحرُّكات الجيش التُّركي. عند فجر اليوم التالي، استدعَى «الحسن» «الدايَيْن الكبيرين» لُموافاته إلى أعلَى البُرج، حيث شرع الثلاثة يراقبون الأُفق. بعد وقت قصير ارتفعت زوبعةٌ من الغبار معلنةً اقتراب الخيّالة، ثم ظهرت أعلامٌ سوداءُ تخفق في الهواء. ولم تلبَث إحدَى القطعات أن وصلت إلى مشارف الوادي، تدفّقت بيدها من دون انقطاع قطعاتٌ أُخرَى، وأصبح الوادي المؤدّي إلى المضيق بعد قليل

معسكراً حربيًّا كبيراً. راقب الرؤساء الثلاثة باهتمام هذه الحُشود مـن أعـلَى البُرج فقال قائلهم:

- لا يبدو أنّهم يهذرون.

- انتصارٌ جدّيٌّ يتطلّب عدُوًّا جدّيًّا، أجاب «الحسن».

- يمكن أن تنتهي استعداداتهم خلال ثلاثة أيام على الأكثـر، وبعـدها سندُقُّ ساعة الهجوم، توقّع «بوزرك».

- سوف لن يهاجموننا من خلال المضيق، توقّع «أبو عـلي». هـذا الممـرّ ضيِّق جدًّا، وسيكون بالنسبة إلينا مجرّد لعبة، فيوسعنا القضاء عليهم واحداً تِلوَ الآخر قبل أن يبلُغوا الأسوار. ولكنّهم دون شكّ سـيحاولون احـتلال مراكز على القمم المجاورة بحيث يكونون على ارتفاعٍ مُوازٍ للأسوار، وحتى في هذه الحالة لن يكون الوضع خطيراً إذا بقينا متيقِّظين.

- يحتـاجون إلى قائـد عبقـريّ، أردف «الحـسن»، إذا أرادوا احـتلال القلعة، ولا أظنُّ أنّ مثل هذا القائد متوافر في إيران أو سواها.

- إنّ أقوَى حليف لهم هو عامل الوقت، علّق «بوزرك» في النهاية.

- أمّا حليفنا الأقوَى فهي الجنّة، قال «الحسن» ضاحكاً.

باتت القلعة في هذه الأثناء كخليّـة نحـل، الـبُرج الـداخليّ والأسـوار المتصلة به توزّع عليها الجنود بأعـدادٍ كبـيرة، آلاتُ القـصف تقـذف باتّجـاه المراكز الأمامية للعدُوّ حجارةً ثقيلةً وكُراتٍ ضخمةٍ من الخـشب. المراجـل

المخصَّصة لإذابة الرصاص، أو تسخين الزيت، رُكِّزَت في أماكنها فوق المواقف، وتمّ التحقُّق من حُسن اشتغال الجهاز المخصّص لإلقاء المـوادّ المشتعلة على العدُوّ. الضبّاط الذين اعتمروا خوَذ القتال يسرعون من مركز إلى آخر للتأكُّد من الاستعدادات تحت إشراف القائد «مينوشهر». في مدرسة الفدائيّين، عُلِّقت الدُّروس، وأُصدر الأمر إلى سليمان ويوسف لتولِّي إمرتهم والاستعداد للمشارَكة في القتال.

انقَضَى يومان من الاستعدادات، وما زال السُّكون مخيِّماً. بالنِّسبة للمقاتلين في القلعة كان الانتظار مُمِلاً. «الحسن» وصديقاه يراقبان بانتظام جوار القلعة. ثمّة إحساسٌ بأنّ أمراً ما يجري الإعداد له، لكنّ منحدَرات المضيق لم تكن تسمح برؤية ما يحصل على المرتفعات القريبة. أمر «أبو علي» عبيدة، بناءً لأوامر «الحسن» إرسال بعض أنفار لاستطلاع القمم، وبعد أن أزال العدوُّ الحواجز عند المضيق أصبح بالإمكان رؤية رجال الأمير منهمكين في استطلاع الأرض.

عند الفجر انطلق «حالف» و«ابن وقاص» حتى أسفل الأسوار، ثم عبرا النهر، وبعدها تسلَّقا الجرف من الجهة المقابلة للنهر.. كلُّ رجال القلعة كانوا يتابعون بأنظارهم تسلُّقهم المتعرِّج، «ابن وقّاص» في المقدَّمة يتبعه رفيقه، وبعد جهد بلغا القمّة. فجأةً انبطحا أرضاً وتهيّأ رُماةُ النِّبال لحمايتهم، وبعد أن استطلعوا الجوار بدقّة، غامر المتسلِّقان بخفّةٍ ورشاقةٍ وربطا حبلاً بجذعٍ بارزٍ مُشرفٍ ثم تزحلقا في الهُوَّة فوق النهر. المعلومات التي رجعا بها

تفيد أنّ العدُوّ تمركز عند قمّة الجرف، وهم منهمكون في جَمع الحجارة وتركيز قاذفات النار. بعد لحظات انطلقت أول قذيفةٍ فوق النهر وسقطت عند أسفل السور. ثم أُتبعت بقذائفَ أخرَى. شعر الرجال في أعالي السور بالأرض تهتزّ تحتهم، وتوجّهوا بأنظارهم نحو العدُوّ الذي لم يحِن بعد وقت ظهوره أمامهم.

فيما بعد، هوَى جزءٌ من الجرف جرَى تلقيمه في مياه النهر، فتدحرجت صخور كبيرة واستقرّت في مجرَى الماء. بعد ذلك شوهد عدد من سدَنة الخرّاقات يسحبون معدّات ضخمة. أمر «مينوشهر» النبّالة بإطلاق رشق من السهام باتّجاههم، ولكنّهم كانوا أبعد من مرمَى النّبال.

لقد أدّى تساقط الصخور والنار على القلعة إلى إضعاف معنويات الجند، فالرجال يعلمون أنّ مخارج القلعة مُوصَدةٌ، وكلٌّ واحد منهم يرغب في قتال العدوّ وجهاً لوجه.

يوسف وسليمان تملّكهما الغضب، فهُما أول من نادَى بالمواجهة المكشوفة وطالب بها. في هذا الوقت، الرئيس الأعلَى في مِرقَبه يتمشّى محافظاً على هدوئه، أمّا «أبو علي» فراح يتفقّد الوضع على الأسوار ثم عاد إلى «الحسن».

– يبدو القلق واضحاً على الرجال، قال ذلك وهو يضحك مرغَماً.

– هذا ما جاء «أرسلان طاش» من أجله، أجاب «الحسن». إنه يريد التهويل علينا ليقهر إرادتنا وإخافتنا؛ ولكنّه، إذا كان يريد استثمار هذه

النتيجة فعليه التصرُّف بسرعة. بعد ثلاثة أيام سيعتاد الجنود على هذا النمط من القصف.

- هل تظنُّ أنّهم سيغامرون بوضع السلالم تحت الأسوار؟

- لا أظنّ ذلك.

عند الصلاة الثالثة توقّف القصف فجأةً وعمَّ السُّكون. بدأ التساؤل عن أسباب ذلك وكثُرت التأويلات. بعد وقت قصير لاحظ «الحسن» ورفيقاه ثلاثة فرسان يخيّلون في المضيق، وبوصولهم قرب الجسر خفّفوا سيرهم وأومأوا بإشارة للهدنة. قال أحد الضُّبّاط لـ«مينوشهر»: قد يكون الأمر خدعة.

- لن نخفض الجسر إلاّ بأمر من الرئيس الأعلَى، أكّد له قائد الحامية.

وصل الأمر للتَّوّ، وأُخفض الجسر، فدخل الرُّسُل إلى القلعة، شاحبي الوجوه ولكن بكلِّ وقار. استقبلهم «مينوشهر» باللياقة المناسبة. بأمر من الرئيس الأعلَى غادر الباحة كلٌّ من الجنود إلى مراكزهم ولم يبقَ ظاهراً إلاّ الحراس القائمين بالخدمة فوق الأسوار. في الشُّرفة الأولَى تمركز الفدائيّون وتلامذتهم، وقبالتهم مفرزة النبّالة، في الأعلَى على الشُّرفة المتوسِّطة، الخيالة بكامل تجهيزاتهم في صفوف منتظمة. اقتاد «مينوشهر» مصحوباً بأركانه الزائرين إلى مكانٍ يقع وسط رجاله. الجميع بحالة تأهُّب كاملة بانتظار الأوامر.

- يحاولون الضغط علينا، قال «الحسن» وهو يراقب المشهد من الأعلَى، سأحاول بدوري الضغط عليهم أيضاً.

بدا صوت «الحسن» ووجهه يكشفان عن نشوةٍ تُلقي الرُّعب في قلوب صديقيه؛ لقد لمسوا لديه تلك الابتسامة الغامضة نفسها التي لاحظاها على محيّاه في ذلك المساء عندما أرسل الفدائيّين إلى الجنّة.

- هل تعتزم عرض رؤوسهم في أعلَى البُرج؟ سأل «أبوعلي»:

- من الغباء اللُّجوء إلى هذا الأسلوب، فمثل هذا سوف يثير غضب جيش الأمير بحيث لا يعود يُجدي أيُّ جهد لإلقاء الرُّعب في قلوبهم، وواقع الأمر أنّ هذا الشعور هو ما أحاول التأثير به عليهم إذا ما كنا نريد تحقيق النصر النهائي.

- الفرقة منتظمة بشكل استعراضي، والوفد ينتظر، قال «بوزرك» وهو يلقي نظرةً من فوق الشُّرفة.

- فلندَعهم ينتظرون، حاوَلوا إرهابنا بالقصف علينا سوف نرهقهم بالانتظار.

بعد طُول انتظار، شعر النقيب «أبو جعفر» بالضِّيق، فالْتفت إلى «مينوشهر» سائلاً بمودّةٍ تشوبها السخرية.

- هل مِن عادتكم تَركُ الرُّسُل ينتظرون تحت أشعّة الشَّمس وسط الباحة؟

- لا نعرف هنا إلاّ عادةً واحدة، الخضوع لإرادة رئيسنا.

- في هذه الحالة أرَى نفسي مضطراً لأن أُعلم سيّدي «أرسلان طاش» أنّ هذا الانتظار يشكّل جزءاً من جواب سيِّدكم.

- كما تريد.

خرج الرؤساء الثلاثة من القصر محاطين بالحرس الشخصي إلى الشُّرفة. منذ أن سيطر على «آلاموت Alamut»، هذه هي المرّة الأُولَى التي يظهر فيها «الحسن» أمام أتباعه الذين لم يفهموا مغزَى هذه المبادرة. أعلن صوت البوق وصول سيّد القلعة، فاتّجهت كلُّ الأنظار نحو الشُّرفة العُليا حيث ظهر عليها ثلاثة رجال يرتدون اللون الأبيض الناصع، مُحاطين بـ«عبيدٍ» نصف عُراةٍ مدجَّجين بالأسلحة. بدا الشخص الثالث مجهولاً، لا بدّ أن يكون الرئيس الأعلَى. علا الهمس الجميع، وانتشر الخبر من فمٍ إلى آخر. تقدَّم «الحسن» وخلفه حرسه الشخصي حتى حافّة الشُّرفة العُليا، وتوجّه بنظره إلى الجميع. خيّم سكون تامٌّ في المكان. رفع «الحسن» يده ليعلن أنّه يريد الكلام، فتوجّه إلى الرَّسول بصوتٍ واضح.

- مَن أنت أيُّها الغريب؟ وماذا جئت تفعل في «آلاموت»؟

- أيُّها السيّد! أنا النقيب «أبو جعفر»، وإنّي هنا بأمرٍ من سيّدي سمُوّ الأمير أرسلان طاش. جلالة السُّلطان ملكشاه أوفدني ليعلمك أنّه يعتزم استرجاع القلعة التي وضعت يدك عليها بالخداع والحيلة، وجلالته يمهلك ثلاثة أيام لتسليمها إلى القائد أرسلان طاش، بالمقابل يضمن سيّدي خروجك سالماً منها مع قوّاتك، وإذا لم ترْضَ بعرضه، فاعلم أنّ سعادته

يعتبرك عدوَّ بلده، وسوف يطاردك من دون رحمة حتى القضاء عليك. سعادته «نظام المُلك» سيتوجّه على رأس جيش كبير إلى «آلاموت Alamut» عاقداً العزم على عدم الرحمة تجاه الإسماعيليّين. هذا كلُّ ما كُلِّفتُ بنقله إليكم.

أجابه «الحسن» بابتسامة ساخرةٍ مستخدِماً الأسلوب الجدِّي نفسه:

- أبا جعفر! أبلغْ سيِّدك، سموّ الأمير أرسلان طاش، ما أقول: «آلاموت Alamut» جاهزةٌ لصدِّ هجومه. رغم أنّ عديدنا أقلُّ بكثير من عديدكم، عليه أن يفكّر مرّتين؛ فإذا ما استمرّ يهدِّدنا بسلاحه حول القلعة فقد يحصل له ما أصاب قائد طلائع الجيش. ومن المؤسف أن يكون قد عُرض رأسه على وتدٍ في أعلَى البُرج. استشاط «أبو جعفر» غضباً وتقدَّم خطوةً إلى الأمام واضعاً يده على سيفه.

- أتجسُر على إهانة سيّدي! أنت المغتصب، المرتزَق لحساب مصر! هل تعرف أنّنا ثلاثون ألفاً حول قلعتك؟

الإسماعيليّون الذين وُجِّهت إليهم الإهانة تقنّعوا أسلحتهم، في حين حافظ «الحسن» على برودة أعصابه.

- هل من عادة السُّلطان إهانة الرؤساء الأجانب؟ سأل بصوت هادئ.

- كلاّ، إنّما من عادتنا أن نعامل بالمثل مَن يحتقرنا.

- لقد كلَّمتني عن وجود ثلاثين ألف مقاتل حول القلعة، وأنا

أسألك: هل جاء هؤلاء يصطادون جراداً؟ إلاّ إذا كانوا لا يرغبون الاعتقاد آنه يوجد هنا نبيٌّ جديد؟

- إذا كان الإسماعيليّون جراداً، فقد جاءوا لاصطياد الجراد، إذ لو كان يوجد هنا نبيٌّ جديد لكُنت قد سمعت به.

- يبدو آنك لم تسمع بأخبار مَن يسمّى «الحسن بن الصَّباح» سيّد الأرض والسماء! ذاك الذي وهبه الله القُدرة على فتح باب الجَنّة للأحياء؟

- لقد سمعت بمن يُسمَّى «الحسن بن الصَّباح» على آنه رئيس طائفة من الهراطقة؛ وإذا لم أكُن مخطئاً فهو أمامي الآن، أمّا أن يكون هذا «الحسن» سيّد الأرض والسَّماء، فهذا أمر جديد بالنسبة لي، وأجهل كذلك أنّ الله وهبه أيّة سُلطةٍ كالتي تزعُم.

فتّش «الحسن» بنظره عن سليمان ويوسف وأومأ إليهما، فتقدّم الفدائيّان ووقفا عند أسفل الدرج الذي يؤدّي إلى الشُّرفة العُليا. توجّه «الحسن» إليهما بصوتٍ مسموع من الجميع قائلاً:

- هل تُقسمان بكلّ الأنبياء والشُّهداء آنكما حظيتما بفضل تمضية ليلةٍ في الجَنّة، وآنكما الآن في هذه اللحظة بكامل قواكما العقلية والجسدية؟

- نُقسم على هذا، سيِّدنا.

- أَقسِموا بذلك.

فأقسما بصوت قويّ واضح.

رغب «أبو جعفر» بالضحك، ولكنّ صوت الشابَّين كان يعبِّر عن إيمانٍ راسخ وقناعةٍ صادقة جعلته في حيرةٍ من أمره. نظر إلى مرافقيه كاتماً غيظه معدِّلاً لهجته.

- لم أحضُر إلى هنا لمناقشتك في مضمون العقيدة، جئت فقط أنقل إليك رسالةً من سُمُوّ الأمير «أرسلان طاش» وأنتظر جوابك.

نظر «الحسن» إلى سليمان ويوسف، كان الشابّان واقفَين بلا حراك، كأنّهما قد أُوثِقا إلى أسفل الدرج، نظرهما شاخص إلى الأمام. نزل «الحسن» بضع درجات باتّجاههما ثم تناول من تحت جلبابه سوَاراً.

- هل تعرف هذا السِّوار يا سليمان؟

بدا الشُّحوب على وجه سليمان، فأجاب بصوت ينمّ عن اغتباطٍ جنونيّ:

- نعم، أعرفه يا سيّدي.

- اذهب!.. أسمح لك أن تعيده إلى صاحبته، ثم تناول من تحت جلبابه قُرصاً أعطاه للفتَى.

- عليك ابتلاعه الآن هنا.

ثم توجّه إلى يوسف:

- هل ستكون سعيداً إذا دعَوتك للانضمام إلى سليمان؟

- آه، يا سيِّدنا.

التمعت عينا يوسف غبطةً، فتلقّى من «الحسن» قُرصاً مماثلاً.

توجّه «الحسن بن الصَّباح» إلى يوسف قائلاً:

- «سليكة» بانتظارك يا يوسف! هل ترَى هذا البُرج، إصعد إليه وألْقِ بنفسك. ما إن تلامس الأرض حتى ترَى صديقتك تستقبلك بين ذراعيها!

بدا وجه يوسف مُشِعاً بالسعادة. ما إن ابتلع القُرص حتى شعر بسلامٍ داخليٍّ لم يشعُر به سابقاً؛ سلامٍ رائعٍ يشابه ذلك السلام الذي غمره مع رفاقه عندما رحلوا إلى الجنّة. ما إن انتهَى «الحسن» كلامه حتى استدار ورجع إلى البُرج. من هناك توجّه إلى سليمان:

- هل خنجرك معك؟

- ها هو، سيّدنا.

لم يتمالَك المُوفدون الثلاثة أنفسهم فأمسكوا بقبضات سيوفهم، ولكنّ «الحسن» طمأنهم بابتسامة منه ثم موَجِّهاً كلامه إلى سليمان:

- خُذ هذا السِّوار وأغمِد خنجرك على الفور في صدرك، حان الوقت لإعادة الحِلية لصاحبتها.

أمسك سليمان بالسِّوار بسرور غامر، ضمّه إلى صدره ثم استلّ خنجره وأغمده في قلبه بكلِّ قوّته، فسُمع صوتُ تنهُّدةٍ عميقة ثم خرَّ صريعاً على الدرج وعلى وجهه أمارات فرح وارتياح.

تملَّك الوفد وكلَّ الحاضرين رعب قاتل وصمتوا واجمين. صعد يوسف آخر درجات السُّلَّم بادي التعب، ثم تجاوز الحاجز، فإذا هو أمام هُوّةٍ سحيقةٍ لا يبدو لها قرار. أحسّ بنفسه كأنه نسرٌ ملك الطيور، فتح ذراعيه وألْقَى بنفسه في الفراغ فانسحق جسمه مصحوباً بصوت الارتطام القويّ.

- لقد شاهدنا ما يكفي! قال «أبو جعفر» بصوت مضطرب.

- حسناً، «أبو جعفر»، أنقُل إلى سيِّدك ما رأيت وقل لـه: «صـحيح أنّ قوام جيشك ثلاثون ألفاً، إنّما ينقصه مقاتلين من النوع الذي شاهدت، أمّـا فيما يتعلّق بالوزير فلديّ معلومات بشأنه من المُبكر أن أصرِّح بهـا، وخـلال بضعة أيام سوف يعرفها بنفسه. اذهب الآن ولترافقك السلامة.

انحنَى «أبو جعفر» ومرافقـاه ثـم انـصرفا، وعـاد «الحـسن» إلى بُرجـه مواكَباً بحرسه الشخصي.

عندما رجع «أبو جعفر» لمقابلة رئيسه، لم تُسعفه الكلمات في التعبير عن دهشته وذهوله مما رأى.

- سُمُوَّ الأمير! ألا تـرَى أنّ أغـرب مـا في الأمـر هـو الانـصياع التـامّ للفتيان لتنفيذ أمر سيّدهم الرهيب؟ قد تقول أنّه ماذا في وسـعهم أن يفعـوا حيال طاغية جبّار، ولكنّك لا يمكنك تصوُّر دهشتهم حيال مـشهد الفـرح الجنونيّ والوحشي الذي ارتسم على وجوه الفتيان لحظة انتحارهم. بوسعك أن تقرأ في وجوههم الرِّضَى والارتياح والنَّشوةَ لَدَى سماعهم كلمـة الجنّـة! لا يبدو أنّ أيَّ ارتياب يراود إيمانهم الراسـخ بـدخولهم الجنـة، ولا أظـنّ أنّ مساعديّ يخالفاني الرَّأي.

غارقاً في التفكير، بدا الأمير، شارد الذهن، يزرع الخيمة ذهابـاً وإيابـاً. إنّ جواب «الحسن» ربّما يخفي ما هو أسوأ.

- هل أنتم متأكّدون أنّكم لم تكونوا ضحيّة أوهام وهلوَسات؟

– نحن على يقين تامّ بصحة ما شاهدنا، أجاب «أبو جعفـر»، فـسليمان طعن نفسه على بُعد ستّ خطواتٍ منّا، وكُلٌّ «آلاموت Alamut» شـاهدت رفيقه يوسف يُلقي بنفسه في الهُوَّة السَّحيقة من أعْلَى البُرج.

هزّ أرسلان رأسه قائلاً:

– لا يسَعُني تصديق كلامك. لقد سمعت أخباراً كثيرةً عن سـحَرَةٍ في الهند، وعن أعمالهم الخارقة، ولا يُستَبعَدُ أن يكون صـاحبنا يملـك قُـدُراتِ هؤلاء ويستطيع أن يُوهِم النُّظّار بأشياءَ لا تُصَدَّق، محوَرها السُّرعة والخِفّـة، واعتماداً على الوهم والإيحاء.

– لا يتعلَّق الأمر هنا بالسِّحر، صـدّقني، قـال «أبـو جعفـر»، الخنجـر غُرس في قلب الفتَى وثيابه لُطِّخَت بدمٍ حقيقيّ.

– مهما يكن من أمر، قال ختاماً، آمُرك بالتزام الصمت التامّ حول كـلِّ ما سمعت وشاهدت! يمكن للقطعات أن تثور علينا وترفض أوامرنا إذا ما علموا أيّ عدوٍّ ينتظرهم. الوزير في الطريق إلى هنا، ولن يتساهل معنا إذا لم تنفَّذ أوامره.

تبادل مساعدا «أبو جعفر» نظرات خائفة، لأنّهما، وهُما في الطريق، كانا قد نقلا إلى بعض من رأوْهم الاستقبال الغريب الذي أُعِدَّ لهم في «آلامـوت Alamut»، لكنّ الأمير المتوتّر لم يكترث كثيراً لثرثرتهم.

– ماذا كان يعني زعيم الإسـماعيليّين عنـدما ألمـح إلى أنّـه فـيما خـصّ الوزير يملك معلومات لن يبوح بها إلاّ بعد بضعة أيام؟

- لقد نقلتُ إلى سُمُوِّك كُلّ ما قاله لي، أجابه «أبو جعفر»، من دون شكٍّ كان يريد أن يخيفني. ماذا يمكنه أن يعرف عن الوزير أكثر ممّا أعرف؟ هو في الطريق إلى أصفهان.

بعد بُرهة من الصمت صرف الأمير «أبا جعفر» ومرافقَيه، فانحنَى المُوفَدون وانصرفوا.

أدّى الغموض الذي بدت مؤشّراته على ملامح الوفد العائد من القلعة إلى نشر جوٍّ من القلق في صفوف قطعات الجيش السلجوقي الذي يحاصر «آلاموت Alamut». «أبو جعفر» الْتزم الصمت التامّ بناءً للأمر الصارم من رئيسه. كانت النتيجة الأُولَى لهذا التكتُّم أن تنادَى الضُّبّاط لعقد اجتماع في إحدَى الخِيَم الجانبية، وعكفوا على مناقشة المعلومات القليلة التي رشحت من الوفد بكلِّ حماس وجدِّيّة؛ كما لم يخلو الأمر من تعليقات في كلِّ القطعات على نتائج الزيارة. فمنهم مَن رأى أنّ سيّد «آلاموت Alamut» ربّما يكون نبيًّا حقيقيًّا مثل محمد الذي بدأ دعوته بحفنةٍ من الرِّجال ثم تزايد عدد المؤمنين برسالته حتى بلغوا الآلاف، ثم إنّ النبيّ لم تكن سُلطته كمثل سُلطة سيّد «آلاموت Alamut»، ذلك أنّ الرّسول كان قادراً على أن يدخل الجنّة، ولكن هل كان بمقدوره أن يُدخل أحداً سواه إليها؟ أقصد أحداً من الأحياء. وفقاً لما يُروَى لقد سبق لهذين الشابّين أن دخلا الجنة سابقاً بفضل من الرئيس الأعلَى، ولو لم يكن الأمر كذلك فكيف يسعُنا تفهُّم إقدامهما على ما فعلا بهذا الحماس؟ هل الإسماعيليّون هم أتراك أو صينيون كي يُعلن السلطان الحرب عليهم؟ إنّهم إيرانيّون مثلنا ومسلمون، ولكن يظهر أنّ

الوزير يرغب في كسب رضَى السُّلطان، فأرسلنا إلى هنا لندفع حياتنا تحقيقاً لمكاسب شخصية ترفع قدْره وتُعزِّز سلطته.

ومِن حُسن حظِّنا أنّ أميرنا هو رجل راجح العقل ذو بصيرة، وعندما يدركنا الصقيع فسوف نعود إلى ديارنا... أليس من الجنون محاربة عدُوٍّ لا أحد يكرهه؟

ذلك كان الجوّ العامّ لحصيلة المناقشات التي دارت بين عناصر القطعات، وكلُّها تصُبُّ في مصلحة «آلاموت Alamut» وزعيمها.

رافق «الدّايان» «الحسن» إلى جناحه دون أن يتفوَّها بأيّة كلمة، فرئيسهما كان في غاية الإرهاق، إذ خلع عنه، بحركة مُتعَبة، معطفه وارتمى على الأرائك. بعد صمت طويل قال «الحسن»:

- هل تدريان أنّني أتمنّى لو كان الآن إلى جانبي عمر الخيّام!...

- لماذا هو بالتحديد؟ سأل «أبو علي» بنبرة جافّة صارمة.

- لا أعرف، ولكنّي أرغب في التكلُّم معه، هذا كلُّ شيء.

- هل تُدرك معنَى الضمير؟

تلفَّظ «بوزرك» بهذه الكلمات وهو يرمقه بنظرةٍ صارمة. نهض «الحسن» رغماً عنه وحدَّق في صديقيه نظرة ارتياب.

- هل تعلم أنّه في تلك الليلة عندما ذهبت إلى الحدائق للقاء الفتيان الثلاثة، اقترحت على «أبو علي» قتلك وإلقاءك من أعلَى البُرج إلى النهر؟

بحركةٍ آليّة قبض «الحسن» على سيفه.

- لقد راودتني شكوك حول هذه النوايا الطيّبة، هل يمكنني معرفة سبب عدم تنفيذ هذا المشروع؟

هزّ «بوزرك» كتفيه وقال:

- حسناً، إذا كنت تريد أن تعلم، فإنّي نادم الآن لعدم تنفيذه.

- أرأيتما، من أجل ذلك كنت أتمنّى أن يكون الخيّام إلى جانبي في هذه اللحظات؛ ولكن لا تظنّا أنّي خائف، إنّما فقط أريد أن أتكلّم عن هذا مع أحدٍ ما، ليس أكثر من ذلك.

- تكلّم، نحن مُصغيان.

- إذاً، دعاني أطرحْ عليكما هذا السؤال: «هل السُّرور الذي يغمر الطفل إذا أعطيناه لعبةً جميلةً هو سرور حقيقيّ؟

- لماذا هذه المواربة من جديد يا ابن الصبّاح؟ قال «بوزرك» متبرّماً، قل لنا بوضوح ما تريد قوله.

- ألم تقولا إنّكما ستُصغيان، قال ذلك بنبرةٍ جادّة صارمة، ليس في نيّتي أن أبرِّر لكما سلوكي، أريد فقط أن أشرحه لكما. من الواضح أنّ السُّرور الذي يشعر به طفل نقدِّم له لعبةً تناسبه هو مشابهٌ للفرح الذي يستشعره رجلٌ وهو يحتسب نقوده، أو وهو يداعب امرأة؛ فمن وِجهة نظر صاحب العلاقة كلُّ سرور يشعر به هو فرح أصيل حقيقيّ. كلُّ شخص لا يمكن أن يكون سعيداً إلاّ على طريقته، وبالتالي فمَن يرَى في الموت سعادته يشعُر

بالسرور نفسه الذي يُحسُّه آخَر في جمع المال أو في إغواء فتـاةٍ حـسناءَ، سـيّما ونحن نعلم أنْ لا مجال للندم بعد الموت..

- كلبٌ حيّ خير من ملك ميت، تمتم «أبو علي».

- سواء أكنت كلباً أم ملكاً، فأنت ميّت لا محالة، وبالتالي فالأفـضل أن تكون ملكاً.

- من السهل عليك أن تتكلّم، أنت الذي يدّعي امتلاك سُـلطة المـوت والحياة، قال «بوزرك»، فيما خصّني أفضّل أن أكون آخر كلب ميت عـلى أن أموت ميتةَ فدائيِّيك.

- لم تستوعبا جيِّداً ما قلت، تابع «الحسن»، بين وجهة نظرهم ووجهـة نظرك فارق بعيد، ما بدا لهم ذروة السعادة، يُوحي لـك بالرُّعـب الـشديد، وما هو بالنسبة إليك السعادةُ الكبرَى لـيس كـذلك بالنـسبة إلـيهم. وهـذا يعني أنّ كُلاًّ منّا يرَى سعادته وفقاً لوجهة نظره!

- ولكنّك أغويت بتبصُّرٍ هؤلاء الفتيان! مَن خوّلك الحقّ في أن تسلك معهم هذا السُّلوك وهم ما تعرف عنهم من التفاني في سبيلك؟

- أملُك هذا الحقّ من معرفتي أنّ القانون الأسـاس للإسـماعيليّة عـلى صواب.

- تقول هذا وأنت مَن يتكلّم على الإله الذي لا يخفَى عليه شيء؟

- أجل، أتكلّم على إله يحيط بكلّ شيء، ليس يهوذا ولا الربّ المسيحيّ ولا اللهُ، هم الذين خلقوا هذا الكون الذي نعيش فيه، هذا العـالَم حيـث لا

شيء على ارتباطٍ بشيء، حيث الشمس تسطع بنورها على الحَمَل والنَّمر والذّبابة والحوت والفراشة والعقرب، على الفقير والغنيّ، حيث المرض يصيب الصالح والخبيث، القويّ والضعيف، الذكيّ والغبيّ. حيث نحن عُرضَةٌ للتَّعاسة والسعادة، حيث ينتظرنا مصير واحد، الموت لكلِّ ما هو حيّ. كلاّ! فأنتم كما ترونني، أنا نبيُّ هذا الإله الذي يحيط بكلّ شيء، هذا الإله فقط! ارتعد الدّايان خوفاً ممّا سمعا. إذاً، هذه هي دخيلة هذا الرجل الغريب، هنا يكمن جنونه، هذا اليقين الراسخ الذي أدّى به إلى ما هو عليه الآن؟ كان في سرِّه يؤمن أنّه نبيّ! وكلُّ فلسفته لم تكن إلاّ خداعاً لاستمالة عقول الأتباع، ومَن يدري ربّما لخداع نفسه؟!

- أنت تؤمن بخالق ما! قال «بوزرك» مندهشاً وبنبرةٍ شبه خائفة...

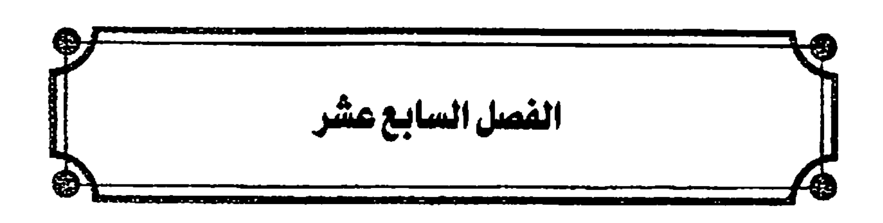
- أجل، هذا ما قُلتُه.

وهكذا فصلت بينهم هوَّة سحيقة، فانحنيا قبل أن ينصرفا.

- قوما بأعمالكما فستكونان خليفتيَّ.

ثم ودّعهما بابتسامةٍ تشبه ابتسامة الأب لأولاده.





الفصل السابع عشر

في هذا المساء نفسه، استدعَى «الحسن» كُلاً من عبيدة وجعفر وعبد الرحمن، وتولَّى «أبو سراقة» إبلاغهم هذا الأمر. على الفور سيطر على المجموعة جوٌّ من القلق. عندما علم عبيدة ما ينتظره استحال لونه الأسود إلى لون رماديّ، وارتسمت في عينيه أمارات الخوف كما تملّك الرُّعب عبد الرحمن فقال:

- لماذا استدعانا سيِّدنا في هذا الوقت بالتحديد؟

- من دون شكّ، يفكّر في إرسالكم إلى الجنّة بعد رحيل سليمان ويوسف، ارتأى ابن «وقّاص».

- هل علينا القفز من فوق البُرج أو طعن أنفسنا بالخنجر؟

وحده جعفر تبلّغ الأمر ببرودة وانصياع.

- الله هو مَن يملك حياتنا وموتنا، قال، وسيّدنا هو وكيله على هذه الأرض.

استقبلهم «أبو علي» عند باب القصر، واقتادهم نحو البُرج.

كلُّ شيء جاهز في الحدائق لاستقبال الزُّوار الجُدُد.. عندما علمت الفتيات أنّ الزيارة ستتمّ هذه الليلة، خيَّم جوٌّ من السرور على الجميع. أصبحنَ الآن على علمٍ بما هو مطلوبٌ منهنّ، فالحُبُّ هو مهنتهنّ، وهذا أمر يروق لهنّ. لكنّ الفتيات قلقات بشأن حليمة التي كرّست نفسها لذكرى سليمان، فهي تعتبره حبيبها وتتوجّه إليه سراً بالشكوَى والعتاب، وكثيراً ما تشعر به بجوارها فتمضي فتراتٍ طويلةٍ وهي تهامسه، حتى أنّ رفيقاتها كنَّ يفاجئنها وهي غارقة في الضحك كما لو أنّها، حقيقةً، في لقاءٍ غراميّ مع شخصٍ ما. عندما علمت أنّ زُوّاراً سيحضرون الليلة إلى الحدائق بدأت ترتجف وامتقع لونها ثم انهارت فاقدة الوعي.

صرخت مريام متسائلةً ماذا نفعل بها؟

- لقد أعفاك سيِّدنا من لقاء الزُّوار الجدد، حاولي أن تحصلي على موافقة بإعفائها هي أيضاً، اقترحت «سليكة».

- كيف سمحت لنفسها بأن تعتقد بأنّها لا بدّ أن تلتقي مجدَّداً بسليمان؟ قالت «رقيا».

استعادت حليمة وعيها، رمقت رفيقاتها بنظرة ملؤها الدهشة، وتذكّرت الخبر الذي تلقّته عن الزُّوّار، فاحمرّ وجهها، وأسرعت إلى غرفتها لتستعدّ للمناسبة.

- سوف أقول لها كلَّ شيء، قالت مريام.

- مهلاً يا مريام، قالت فاطمة، فلنحاول أولاً أن نجعلها تعود إلى رُشدها رغم أنّ أملنا في النجاح يبدو ضئيلاً.

سارعت الفتيات إلى غرفتها فوجدنها أمام المرآة منهمكةً في التبرُّج وابتسامةٌ عريضةٌ على شفتيها. عندما شاهدتهنّ قطّبت حاجبيها وبان الغضب على وجهها كونهنّ قد أزعجنها في وحدتها.

- أصغي إليّ يا حليمة، أنت تعلمين أنّه ليس مسموحاً لأيّ زائرٍ أن يلتقي الفتاة سوَى مرّة واحدة في هذه الجنائن. حاولي أن تفهمي هذه الحقيقة.

بعد وقت قليل، حضرت «أباما» لتنقل إليهنّ أوامر سيّدنا:

- على كلّ فتاة أن تنتحل اسماً غير اسمها، والرئيس يصرُّ كثيراً على هذا الأمر.. عليكما، أنت يا مريام وفاطمة، توزيع الأسماء الجديدة على الفتيات..

- حليمة، لا تنسيْ، هذا المساء أنتِ لستِ حليمة وإنّما صفيّة.

ضحكت حليمة وتساءلت هل يظنّنّ أحدٌ أنّ هذه الحيلة الساذجة تكفي لكي لا يعرفني سليمان!

- لقد لاحظت ابتسامتك، حذّرتها مريام. المسألة أكثر جدّيةً مما تتصوّرين. اعلمي كذلك أنّك لن تكوني في الحديقة نفسها كالمرّة السابقة.

لم تتمالك حليمة نفسها لدَى سماعها هذه التعليمات، فتوجّهت هاربةً إلى داخل الحديقة حيث انضمّت إليها سارة في محاولة أخيرة لإقناعها.

لم ينسَ عبيدة شيئاً مما سبق أن رواه الفدائيّون الثلاثة غداة زيارتهم للجنّة. بحسّه المرتاب كان على الدوام يتساءل عمّا عليه أن يفعل لو كان مكانهم. ثمّة أشياء كثيرة لا تتوافق وروايتهم، ممّا أثار لديه بعض الشكوك.

عندما مثُل مساءً مع رفيقيه أمام الرئيس الأعلى لم يكن فضوله بأقلّ من خوفه، ولكنَّه كان قادراً على التماسُك بشكل رائع. أجاب عن أسئلة «الحسن» بوضوح وتميُّز. أمّا جعفر وعبد الرحمن فكانا ضحايا خوف رهيب، ولكنهما جهدا للإجابة على أسئلته.

عندما علما أنّه سيفتح لهما أبواب الجنّة غمرهم سرور عارم، فقط عبيدة شحب لونه ولكنه ظلّ مصمِّماً على السيطرة على أعصابه، فظلّ متماسكاً لا يبدو عليه أيُّ اضطراب.

اقتادهم «الحسن» إلى «الحجرة المتحرّكة»، حيث استُحضِرت لهم أسِرَّتهم. قدّم لهم كأساً من الخمر، وناول كلاً منهم قرصاً. سارع جعفر وعبد الرحمن لابتلاعه، أمّا عبيدة فكان حاضر الذهن وجعل القرص ينزلق في زاوية من شفتيه الكبيرتين وأخرجه لاحقاً سراً، وأخفاه في جيب جلبابه. من تحت جفنيه المغمضين راح يلاحظ حركات رفيقيه ويقلِّدهما في كلِّ ما يفعلان.

نام عبد الرحمن أولاً، وتبعه جعفر، أمّا عبيدة فكان متوتِّراً قلقاً. بعد أن تأكّد الرئيس من نوم الفتيان ألْقَى على كلٍّ واحد منهم غطاءً ثم سُمع صوت صنج وبدأت الغرفة تهتزّ وتنخفض إلى الأسفل. أصيب عبيدة

بالرُّعب، فتمسّك بطرف السرير، منتظراً نهاية هذه الرحلة الغريبة. فجأةً شعر بالحُجرة تتوقف على أرضٍ صلبة وبهواءٍ صادرٍ عن كهفٍ يلفح الحجرة، ثم لاحظ مشعلاً وسمع «الحسن» يسأل:

- كُلّ شيء على ما يرام؟

- أجل سيّدنا.

- تصرَّفوا كما في السابق.

أمسكت أيدٍ بالمحفّة ورفعتها، فشعر عبيدة أنّه يعبر جسراً ثم يُنقل إلى قارب. سمع صوت المجاذيف في الماء، وبعد وقت طويل نسبيًّا توقف القارب. من هناك رُفعت المحفةّ مرّة ثانية إلى مكان بعيد. بعد ذلك شعر أنّه يدخل إلى قاعة، إذ بدأ يسمع أصوات فتيات وأنغاماً موسيقيّة. امتدّت يدان قويّتان وأمسكتاه من كتفيه وأرقدته فوق أرائك ثم سمع صوت أقدامٍ تغادر الغرفة.

«ها أنا الآن في فردوس سيّدنا، قال في سرّه كاتماً أنفاسه، هذا المكان حيث كان يوسف وسليمان متلهّفَين للعودة إليه ولم يتردّدا من أجل ذلك في التضحية بحياتهما».

أحسّ عبيدة برهبةٍ خارج الوصف.. «أيُّ تضليل ومَكرٍ هذا! قال في سرّه، وعبد الرحمن وجعفر لا يرتابان في شيء! ماذا سيحلُّ بهما؟ فهو لا يستطيع خيانتهما! وماذا سيفعل هو إذا ما أمره سيّدنا أن يحذُوَ حذوَ سليمان؛ سيتعرّض لموتٍ مرعب، يا للهول، يا للهول!

أقدام رشيقة تقترب من سريره، عليه أن يتظاهر بأنّه يستفيق في الجنّة، مكتشفاً عالَماً آخَر.. رُفع الغطاء عنه، فتح عينيه للحظة ثم أغمضهما، أحاطت به فتيات فاتنات يتأمّلنه بحياء وفضول، فاجتاحته رغبة عارمة في معانقتهنّ ومداعبتهنّ، لكنّه ارتأى أن يتريّث بعض الشيء. عليه أن يؤدّي بدقّة دور النائم الحقيقي من دون أن يفوته أن يُصغي لأيّة ضجّة، تحسُّباً لأيِّ طارئ.

عبثاً حاولت الفتيات إقناع حليمة أنّ سليمان لن يكون في عداد الزُّوّار، لأنّ قلبها البريء كان على يقين أنّه سوف يأتي. عندما وضع «العبيد» المحفّة، وعليها شبح الزائر النائم، وقفت متوتّرة خلف «سارة»، بانتظار اللحظة التي ستُزيح فاطمة الغطاء عن وجه الضيف، وعندما بدا أنّ النائم هو عبيدة أحسّت بألمٍ يمزّق قلبها، كأنّ عالَمها الجميل قد انهار فجأةً، فندّت عنها صرخةٌ قويّة وعضّت شفتيها وأدركت أنّها فقدت سليمان إلى الأبد. أسرعت كالسَّهم نحو الباب. لم يعُد يعنيها شيء ممّا يجري.. تابعت سيرها فعبرت الرِّواق وتوغّلت في ممرٍّ ضيّق يؤدّي إلى صخرةٍ كبيرة. سارعت رقيّة وسارة بطلب من فاطمة للّحاق بها. فاتّجهتا نحو الحدائق من دون أن تلحظا أنّ «أهريمان» قد انضمّ إليهما.. لدَى وصولهما إلى الضفّة التي تُشرف على النهر لمحتا حليمة فوق الصخرة، ثم ما لبثتا أن شاهدتاها ترفع ذراعيها وتُلقي بنفسها إلى النهر فتهوي في المياه العميقة مُحدِثةً صوتاً قويًّا. على الأثر وثب أهريمان هابطاً الجُرف وانطلق خلفها ثم غطس في الماء ساعياً لإنقاذها، ولكنّ التيار القويّ جرفهما سويًّا.، وعندما حاولت حليمة

التمسُّك بعنقه كادا أن يرتطما بالصخور، ورغم أنّ «أهريمان» بذل كلّ طاقته لمغالبة التيّار، إلاّ أنّه لم يُفلح، وما لبثا أن غاصا سويًّا في الأعماق....

عادت الفتاتان دامِعَتي الأعين.

- لقد اختفت حليمة في التيار، لقد ألْقت بنفسها في النّهر.

ولم يضيفا إلى ذلك شيئاً....

لِنتجاوَزْ هذه المأساة الآن، قالت فاطمة، يظهر لي أنّ الفتَى قد استفاق، ويبدو لي في وضع غير مريح، إذ إنّي أراه يرفض اعتبارنا حوريّات.

مُستلقِياً على الأرائك بارتياح، عانق عبيدة فاطمة ورمقها بنظرةٍ تشِفُّ عن شكّ وارتياب. حاولت الفتيات من دون جدوَى دفعه للسُّكْر؛ فراح يخبرهنّ عن الحياة في «آلاموت Alamut»، وعلى وجهه أماراتٌ لا تخلو من الخُبث، بخاصّةٍ عندما أشار في حديثه إلى سليمان ويوسف. حدَّثهنّ عن ذهابهما إلى الجنّة هذا الصباح، ولمس عند ذلك بعض الوجوه قد شحبت لدَى سماعهنّ هذا الخبر.

في هذه اللحظة شاهد سارة، فقال بكلِّ جرأة: هذه هي سارة السوداء التي حدَّثني عنها سليمان. رغم أنّها غيّرت اسمها لكنّ دم أجدادها يدلُّ على أصلها، ثم قبض على يدها وجذبها بقوّة نحوه ثم نزع رداءها الورديّ الشفّاف وضمّها بين ذراعيه بمنتَهى القوّة، في النهاية ألْقاها على الأرائك وارتمَى عليها بوحشيّة.... بعد ذلك لم يعد يرفض أيَّ شيء يقدَّم له، فأكل وشرب حتى ثمل، وارتمَى متهالكاً وغطّ في النوم. كانت فاطمة بانتظار هذه اللحظة:

- «رقيا» أسرعي إلى مريام واشرحي لها كلَّ شيء. إنّ «حليمة» قد ألْقت بنفسها في النهر وإنّ عبيدة غير مقتنع بأمر الجنّة!.

وهي في طريقها إلى مريام التقت «أباما»، فأعلمتها بانتحار حليمة بإلْقاء نفسها في النهر. تلقّت العجوز الخبر المؤسف بحزن عميق وطلبت إليها أن تشير إليها بمكان حصول الحادث لعلّ «العبيد» يمكنهم إنقاذها، ولكنّ رقيّة أعلمتها أنّ الأوان قد فات. لم تستطع رقية مقابلة مريام كونها علمت من «أباما» أنّها مجتمعة الآن مع الرئيس الأعلَى.

«الحسن» و«مريام» يجلسان في مقصورةٍ صغيرة بعيداً عن الأنظار صامتَين يرمق أحدهما الآخر.

- ألم تعلمي بعد، أسرّ إليها «الحسن»، أنّ «أبو علي» و«بوزرك» كانا ينويان إلقائي من أعلَى البُرج إلى النهر في الليلة التي فتحت خلالها أبواب الجنة للفدائيّين!

- ولماذا؟ سألت «مريام» بدهشة.

- لأنّهما لا يريدان أن يفهما أنّ مَن يبدأ بعملٍ ما عليه إنجازه كاملاً.

- تريد أن تقول أنّ سلوكك يخيفهم؛ ماذا فعلت بهما؟

- ماذا عليّ أن أفعل؟ إنّهما يتنزّهان في القصر بحرّية كما في السابق، كلُّنا عرضةٌ لأن تراودنا رغبات سيّئة. ماذا عساهما أن يفعلا ضدّي؟ خلاصنا

جميعاً يرتبط بحُسن عمل الجهاز المتكامل كي نتمكّن من القضاء على عدوِّنا اللَّدود. أقصد بالطبع خصمي القديم، الوحيد الذي يسعَى فعلاً للتخلُّص منّي.

- أعرف ما تريد قوله، إنّي أسألك ماذا فعلت بالفتيان الثلاثة.

- يوسف وسليمان ساهَما بشكلٍ مدهش في خلخلة معنويات الجيش الذي يحاصرنا.

رمقته بنظرة ثاقبة تحاول أن تستطلع دخيلة قلبه.

- هل عرّضتهما للهلاك؟

- هما تولّيا الأمر سعداء بها فعلا، صدّقيني.

- أنت حيوان مفترس... عليك أن تروي لي كلَّ شيء.

لم يكن ينتظر رجاءها، استمعت إليه مدهوشة مذعورة.

- ألم تشعر بالأسَى وأنت تضحّي بمن كان على استعداد للتفاني في خدمتك حتى الموت؟

- لن يسعَكِ أن تفهمي، ما بدأته عليّ إتمامه، وإن كنت أعترف أنّي عندما أصدرت إليهما ذلك الأمر تملّكني رُعبٌ قاتل.

- وماذا يمكنك أن تقول عن «ابن طاهر»؟ من دون شكّ أرسلته إلى عدوِّك اللَّدود؟

- ألم تؤكّدي لي، ذات يوم، أنّك لن تؤمني بشيء في هذا العالَم وأنّك لا تخافي شيئاً؟ أين تلاشت قوّتك؟ هل عليّ أن أتحمّلَ بمفردي وزر كلّ شيء، أنت شجاعة تجاه الأمور البسيطة من دون الكبيرة.

في هذه اللحظة وصلت رقيّة راكضة مرتجفة، فلم تلتفت إلى «الحسن»، وقالت بصوت متهدِّج:

- حليمة ألْقت بنفسها في النهر!

ذُعرت «مريام» والتفتت ناحية «الحسن» ترمقه بنظرة غاضبة: هذه نتيجة أعمالك!

هزَّ الخبر «الحسن» ورغب في معرفة المزيد.

- لاذت بالفرار، قالت رقية، عندما رأت عبيدة بدلاً من سليمان، ثم إنّ فاطمة تقول إنّ عبيدة هذا لا يصدّق رواية جنّتنا!.

نظر إلى مريام وهي تجهش بالبكاء، وتوجّه على الفور إلى الضفّة حيث كان عديّ في انتظاره، فأمره بالتوجُّه بسرعة إلى القصر.

- أقضوا فوراً بصورة خفيّة على مَن نقلتموه إلى الحديقة الوُسطَى، أمر «العبيد» الذين استدعاهم على عَجَل. انتظِروا حتى تنفردوا به، ثم فتّشوه وأحضروا لي كلَّ ما تجدونه معه، ولْيُدفَن مع الذين قضَوا هذا الصباح. أمّا الزائران الآخران فانقلوهما إلى الأعلَى عند الانتهاء.

بعد مصرع «حليمة»، وعلمها بالمَهمّة التي كُلِّف بها بن طاهر، زهـدت مريام في الحياة، ولم تستطِع تحمُّل مزيدٍ من الـصدمات، لـذلك، فـضّلت أن تضع حداً لحياتهـا. استحـضرت نـصلةً حـادةً واسـتلقت في حـوض المـاء وبحركة سريعة، قطعت شريـان يـدها واستـسلمت للنـوم حتـى أسـلمت الروح.



الفصل الثامن عشر

في الأيـام التـي تلَـت، تواصَـلَ القـصف عـلى القلعـة بانتظـام. لكـنّ الإسماعيليّين ما لبثوا أن أَلِفوا ضجّة الصخور ترتطم بالجدران. منذ اختفـاء عبيدة أصبح «بن وقّاص» وحده رئيسـاً للعمـلاء. فارتـأى الاسـتفادة مـن العلاقات الطيّبة التي نسجها عن بُعد بين المعسكرَين، والانتقال إلى مرحلـة متقدِّمة عبر الاتصال المباشر بقطعات الأمير. لذلك أوكل إلى أحـد رجالـه مُواكبة أسيرٍ حتى خطوط العدوّ الأمامية. مـا إن عـاد الأسـير إلى أحـضان قطعته حتى سارع ليقصّ على رفاقه أخبار المعاملة الحسنة التي عُومل بها في خلال أسره. نجم عن ذلك تعاطُف عدد من جيش العدوّ مع المحـاصَرين. وتمكّن «ابن وقّاص» من الحصول على معلومات قيّمـة حـول العـدوّ. لقـد علم أنّ عديد هذا الجيش لا يتعدّى نصف العديد المُعلَن، وأنّ هـذا الجـيش بدأت مـوادُّه الغذائيـة في النَّفـاذ، الأمـر الـذي أدّى إلى خلـق رأي عـامّ في صفوف الجنود يضغط باتّجاه رفـع الحـصار. ثـم إنّ الأمـير أرسـلان نفـسه راودته فكرة تسيير بضعة آلافٍ من رجاله إلى الرّيّ أو إلى قزوين، ولكنَّه مـا لبث أن عدل عن رأيه، إذ لمس التصميم المرعـب لـدَى الإسـماعيليين عـلى الثبات والتصدّي.

بعد بضعة أيام، وصل رسول إلى خيمة الأمير يحمل رسالة مخيفة! «لقد تعرّض الوزير للطعن بخنجر مسموم من قِبَل أحد المتعصّبين الإسماعيليّين، وهو داخل سرادقه في وسط جيشه». تلقّى الأمير الخبر كمن ضربته الصاعقة.

- استدعوا «أبو جعفر» على الفور.

لم يتأخّر «أبو جعفر» في الحضور.

- هل سمعت؟ سأل الأمير بقلق ظاهر.

- لقد سمعت، سموّ الأمير، نظام المُلك قد قُتل.

- ماذا سبق أن قال سيّد «آلاموت Alamut»؟

- قال إنّ لديه معلومات بشأن الوزير لن تبلغ مسامعك إلاّ في غضون خمسة أو ستة أيام.

- أمرٌ عجيب، إنه يعرف كلّ شيء! إنّه هو بالتأكيد من أرسل القاتل إلى نهاوند.

سيطر على الأمير جوٌّ من الرُّعب، وأصدر أوامره إلى جيشه بالاستنفار العامّ، وقبل أن يباشر «أبو جعفر» بتنفيذ أوامر الأمير، حضر أحد الضُّبّاط مسرعاً صائحاً:

- خيانة! إنّ سدنة الأسلحة سرقوا الخيل والبغال وفرّوا باتّجاه الجنوب، ولم يتمكّن الضبّاط من ردعهم، فقد عاملوهم بعنف وقسوة ووجدناهم موثوقين.

لم يتمالك الأمير نفسه.

- كلب! ابن كلب! وكنت أنت مِنْ بين مَنْ فعلوا ذلك؟

كتم الضابط غيظه وأجاب:

- إنهم جياع، ولا يريدون محاربة نبيٍّ يحكم هذه الجبال.

- انصحني إذاً، ماذا عليّ أن أفعل؟

أجاب «أبو جعفر» بلهجة جافّة.

- الوزير الأكبر، العدو اللَّدود للإسماعيلّين قُتل، وحلّ مكانه تاج المُلك، وهو متعاطف مع سيّد «آلاموت Alamut».

وجد الأمير نفسه في مأزق، وبعد دراسة الموقف واستخراج آراء ضبّاطه، أصدر أوامره بالاستعداد لفكّ الحصار، على أن يتمّ الانسحاب في سرّيّة مُطلَقة.

صباح اليوم التالي، سطعت الشمس فوق سهل لا أثر فيه لأحد، فقط، الأرض المحفورة وآثار النيران الكثيرة تدلّ على أنّ جيشاً كبيراً كان قد خيّم في هذا المكان..

علم «ابن وقّاص» من خلال عملائه بخبر مصرع الوزير الأكبر على يد إسماعيليّ وسط معسكره، وأنّ جيش السلطان باشر انسحابه. انتشر الخبر كالنار في الهشيم في أرجاء القلعة، فنقل معلوماته إلى «أبو علي» الذي سارع لإعلام «بوزرك»:

- «ابن طاهر» نفّذ الأمر! سقط نظام المُلك قتيلاً!

توجّها لإعلام «الحسن»... لكنّ «الحسن» منذ أن علم بالنهاية الأليمة لمريام، شعر بحاجة للإخلاد للراحة وحيداً. إنّ جهازه يعمل بشكل منتظم وفقاً لما خطّط له، ولكنّه أهلك تحت عجلاته مَن لم يكن مهيًّا للعمل. ضحايا ثلاثة قد سقطوا، وهو يرَى أنّه لم يعُد مسيطراً سيطرةً كاملةً على جهازه.

عندما دخل «الدّايان» إلى غرفته قرأ في وجهيهما أنّهما ينقلان إليه خبراً مهمًّا.

– جيش الأمير أخلَى المعسكر وأتمّ انسحابه، وابن طاهر قضَى على الوزير الأكبر.

انتصب «الحسن» وتمتم:

– موت هذا الرجل هو بالنسبة لي بداية السعادة.

تنهّد بعمق وقال:

– أبلغوا الفدائيّين أنّ عليهم أن يكرّموا «ابن طاهر» كواحدٍ من أعظم شهدائنا، وأن يردّدوا اسمه إلى جانب اسمَي سليمان ويوسف في أثناء صلاتهم. هذا أمر يجب أن ينفّذ من الآن وصاعداً. سوف تعلو رايتنا من دون مقاومة تُذكَر، وسوف نحرّر كلّ قلاعنا. يجب أن ينطلق رسول على الفور إلى «زورغامباذان»، للاقتصاص من قاتل «حسين الكايني». بعد أن يرفع «كيزيل صارك» الحصار عن القلعة، فلتحضر قافلة ابني «حسين» إلى هنا.

ثم صرف صديقيه، وصعد إلى مرقبه يتأمّل السهل الذي ارتحل عنه جيش الأمير.

صباح اليوم انطلق الرُّسل باتّجاه القلاع، وتلقّى «ابن وقّاص» مَهمّة الاتصال بسلطان رودبار.

في المساء أسرع «أبو علي» منقطع الأنفاس يحذّر الرئيس الأعلَى:

- لقد حصل أمر غير مفهوم، صاح لدَى بلوغه الباب، «ابن طاهر» عاد إلى القلعة...

كانت الليلة التي تلَت مصرع الوزير بالنسبة لابن طاهر ليلةً مخيفة، لم يسبق له أن عاش مثلها في حياته. مُحطَّم الجسد والقلب ومُوثَقاً من قبضتيه وقدميه إلى عمود في الخيمة الوُسطَى، بقي ساعاتٍ طويلة من دون حركة على الأرض، تسيطر على ذهنه أفكارٌ يائسة. كان يخيّل إليه أنّه يسمع قهقهات عجوز القلعة الساخرة. كيف كان من الغباء بحيث أنّه لم يكتشف المخاتلة والخداع منذ البداية؟ ولكن، كيف له أن يخطر في باله أنّ رجل دِين يؤمن به أتباعه على أنّه في خدمة الحقيقة يمكنه أن يكون بهذا السوء؟ ومريام تلك المخلوقة الملائكية ألم تكن شريكته؟

في الصباح، أُعلِم أنّ الوزير الأكبر قد تُوُفّي، وأنّ قرار إرساله إلى «آلاموت Alamut» لم يكن قد اتُّخذ بعد بانتظار موافقة السلطان... أُفيد السلطان عن الحادث من قِبَل الرُّسُل وهو في طريقه إلى بغداد. على الفور غيّر وجهته، وفي خلال يومين وصل إلى نهاوند. عندما شاهد السلطان جثّة الوزير أجهش بالبكاء كالطِّفل. لقد خدم الوزير وطنه على امتداد ثلاثين عاماً!

والآن يأسف بمرارةٍ للتعاطي معه بقسوة السّنة الماضية، كيف سمح لامرأةٍ أن تتدخّل في شؤون الحكم؟ كان يجدُر به إبقاءها ضمن حريمه كسواها. لقد أُعلم من قادة المعسكر عن تفاصيل الحادث، ذلك هو الوجه الحقيقي للحسن!

طلب من أولاد الوزير نقل جثّة والدهم إلى أصفهان ليُصار إلى دفنه بمراسم التكريم التي يستحقّ. وفيما يتعلّق بالقاتل، ارتأى الجميع تنفيذ رغبة الميت، على كلٍّ حال سوف يلقَى المصير نفسه في «آلاموت Alamut»، صرّح السُّلطان مصدِراً الأمر باستحضار «ابن طاهر». تعرّف إليه وطرح عليه بعض الأسئلة واستمع إلى إجاباته فاقتنع بصدقه وتوجّه إليه قائلاً:

- إنّي أثق بك، سوف أدعُك ترحل بحراسة ثلاثين رجلاً إلى القلعة. كن حذِراً، لا تتسرَّع، أنت شابٌّ ذكيّ، ويجب أن لا يفشل مشروعك.

انطلق «ابن طاهر» بمواكبة ثلاثين فارساً يقطعون الفيافي والهول من دون توقّف، إلاّ لفتراتٍ قصيرة. لكنّ نَبأ مصرع الوزير كان قد سبقهم بيوم واحد. ما بين الرّيّ وقزوين صادفوا عصابةً من الجنود كانوا قد فرّوا من جيش الأمير، ومنهم علموا ما أدّى إليه مصرع الوزير على قطعات الجيش، وأنّ الحصار قد رُفع عن القلعة... لذلك أدركوا أنّهم أصبحوا عُرضةً للوقوع في كمين من قِبَل إحدَى المفارز الإسماعيليّة... إزاء هذا الوضع المستجِدّ، اقترح «ابن طاهر» سلوك طريقٍ سرّية من الجهة الأُخرَى للنهر باعتبارها أكثر أمناً. قادهم «ابن طاهر» إلى مكان يمكنهم من خلاله عبور

النهر، ثم تابعوا سيرهم في ممرٍّ بين الآجام باتّجاه «آلاموت Alamut». فجأةً شاهد كشّاف المفرزة فارساً قادماً باتّجاههم فاختبأوا في دغل كثيف ونصبوا كميناً للقادم.

ما إن شاهد «ابن طاهر» الفارس حتى عرف أنّه «ابن وقّاص» وانتابه القلق: «لا بدّ أنّ سيّدنا أرسله نحو «رودبار»». فجأةً، وجد «ابن وقّاص» نفسه محاصَراً، ومع ذلك شهر سيفه وصرخ صرخةً مدوِّيَةً: إليّ، أيُّها المهديّ! وراح يضرب بسيفه كلَّ من يتصدّى له. تراجع محاصروه للحظة وقد فوجئوا ببسالته. تابع «ابن وقّاص» القتال كالشيطان وكاد ينجح في الخروج من الطوق، ولكنّ أحد الجنود قفز إلى الأرض والْتقط رُمح الفدائيّ وطعن بطن الجواد فسقط إلى الأرض ومعه فارسه تحته، وما إن تمكّن من النهوض حتى عاجَله أحد الجنود بضربة قويّة أوقعته أرضاً، وتمّ تقييده بعد مقاومةٍ شرسة. بعد أن تمّ إسعافه استعاد وعيه، وما إن فتح عينيه حتى دهش لرؤية «ابن طاهر» أمامه. أمس ردَّد اسمه كأحد الشُّهداء الأبرار. لم يصدِّق عينيه فهو علم أنه مات ولحق بالشهداء. اقترب منه «ابن طاهر» قائلاً:

- ما بالك يا «ابن وقّاص» أما عرفتني؟

- «ابن طاهر»! ألم تمت، ماذا تفعل مع هؤلاء الرجال؟

- عُدتُ إلى «آلاموت Alamut» لأقتل الكذاب الأكبر، أكبر خدّاع عرفه الناس. «حسن بن الصبّاح» ليس نبيًّا، بل هو مخادع سافل، فالجنّة التي

فتحها لنا ليست إلاّ زينة وزخرفاً من ابتكاره. إنّ الحدائق التي زُرناها هي في «آلاموت Alamut» نفسها خلف القصر، ليس الأمر إلاّ مكاناً سرِّيًّا أقامه ملوك الديلم سابقاً.

- استمع «ابن وقّاص» لكلام «ابن طاهر» بامتعاضٍ ظاهر.

- خائن!

احمرّ وجه «ابن طاهر» غضباً، لا ينوي هذا الجريح الاستماع لما أقوله، فهو مسترسل في إيمانه الأعمَى.

- لا أؤمن إلاّ بالقَسَم الذي يربطنا بسيِّدنا.

- ولكنّ هذا القَسَم لم يمنعه من خداعنا، ونحن في حِلٍّ من قَسَمه.

- بهذا القَسَم قهرنا جيش السُّلطان، أعداء الإسماعيليّين، وهم يرتجفون الآن رُعباً.

- هذا الوضع مرتبط بما قمت به شخصيًّا، لا تنسَ أنّي أنا مَن قتل الوزير الأكبر.

- أعرف ذلك، ومن أجل ذلك أعلنك الرئيس الأعلَى شهيداً وتريد الآن أن تقضي عليه.

- تقتله؟ بناءً لأمره وعلى مرأى منّا جميعاً طعن سليمان نفسه وألْقَى يوسف بنفسه من أعلَى البُرج. لقد قرأت جيِّداً ما في وجهيهما حتى في أثناء الموت: لم يكونا في شكٍّ مما ينتظرهما في الأعالي!

- هذا المجرم السفّاح! فلنسرع! كلّما أسرعت في غرس هذه السكّين في قلبه كلّما عجّلنا في إنقاذ العالَم من هذا الكابوس.

تابعوا سيرهم إلى تخوم القلعة، وهناك توقّفت عناصر المُواكبة وتوجّه قائد القوّة إلى «ابن طاهر» بالقول:

- عليك أن تتابع بمفردك الآن، سوف نحتفظ بالأسير كرهينة، أتمنّى لك النجاح في مَهمّتك، وأرجو الله أن يكون موتك بعدها من دون عذاب.

عبَر «ابن طاهر» بحصانه النهر، وعلى بُعد خطوتين عشر على المكان الذي خبّأ فيه ثيابه بعد مغادرته القلعة. غيّر ملابسه وتوجّه ناحية المضيق. ظلّ عناصر المُواكبة يراقبونه طويلاً بانتظارهم ثم أمرهم رئيسهم بامتطاء الجياد وانطلقوا باتّجاه الرّيّ. تعرّف حارس بُرج المراقبة إلى الفدائيّ لدَى اقترابه، ولم يتأخّر في إنزال الباب المتحرِّك، دخل القلعة وتوجّه على الفور إلى ضابط الخدمة:

- أريد أن أكلّم سيّدنا فوراً! أنقُل إليه مِن معسكر السُّلطان نبأً مهمًّا.

سارع الضابط لإعلام «أبو علي» الذي سارع بدوره لإبلاغ «الحسن». خلال هذا الوقت ظلّ «ابن طاهر» جامداً مصمّماً. كانت رغبته بتصفية الحساب مع هذا الخدّاع أشدُّ من خوفه. لم يغِب عن باله أن يتفقّد سيفه تحت جلبابه، كما أنه كان قد خبّأ خنجره تحت حزامه، وتحت كُمّه القلم المسموم الذي طعن به الوزير.

عندما علم «الحسن» بعودة «ابن طاهر»، ظلَّ صامتاً، واستعرض في

ذهنه كلَّ الاحتمالات التي يُمكنها تفسير هذه الأُعجوبة الغريبة، فخالجه ارتيابٌ في أن يكون في الأمر خدعة.

- تعالَ إليّ يا «ابن طاهر»، قال للحارس أن يأتي به. ثم استدعَى خمساً من حُرّاسه وطلب إليهم الاختباء خلف الستارة في الغرفة الجانبية والانقضاض على القادم فور دخوله وتجريده من سلاحه ثم تقييده. عندما علم «ابن طاهر» أنّ الرئيس الأعلَى يدعوه للقائه على الفور، استجمع أفكاره: «يجب عليّ أن أحقِّق هدفي، ولْيساعدني الله فيما أنا مُقدِمٌ عليه». استذكر تمارين القتال التي درَّبه عليها «عبد الملك»، فربّما سيواجه شركاً منصوباً له في أثناء الطريق.

شاحب اللون، لكنه حازم التصميم، توقّف في أسفل البُرج، كُمُّ جلبابه مرفوعٌ قليلاً ويده جاهزةٌ للإمساك بالخنجر. لدَى مروره أمام الحُرّاس «العبيد» بدت خطواته متردِّدةً، فهم يقومون بالحراسة عند كلِّ منعطَف وفي الأروقة. صعد السُّلَّم الأخير كأنه في حُلُم. الحارس القائم بخدمته في أعالي الدرج والمدجّج بسلاحه لم يُعِرهُ أيَّ اهتمام. اجتاز الرِّواق بكلِّ جَرأةٍ وبوصوله قرب باب الغرفة الجانبية أزاح الحارس الستارة وأشار إليه بالدخول. دخل بحذرٍ شديد ولكن بتصميم، متوتّر الأعصاب، منقبض العضلات، وفجأةً انهالت عليه ضرباتٌ قويّة. حاول «العبد» الواقف خلفه شلّ حركته لكنّه بحركة قويّة تخلّص من قبضته وتمكّن من إشهار سيفه، إلاّ أنّ ضربةً على مؤخِّرة رأسه طرحته أرضاً. عندما استعاد

وعيه لاحظ أنّه بات مكبَّل اليدين والقدمين. خرج «الحسن» من غرفته وتأمّل «ابن طاهر» الذي يقبع عند قدميه مكبَّلاً، بوجه ترتسم عليه ابتسامة غامضة.

- مجرم! سفّاح الأبرياء! ألم تكفِك الأرواح التي سفكتها؟!

بدا «الحسن» كأنه لم يسمع شيئاً.

- هل نفّذت الأمر؟ سأله بكلّ بساطة.

- لماذا تهتمّ بذلك أيُّها المخادع؟

- حسناً، كيف نجحت في العودة إلى هنا؟

- أيقلقك هذا؟ أنا هنا، هذا يكفيك،.. من أجل أن غرس هذا الخنجر في أضلاعك.

- هذا ليس بسهلٍ، أيُّها البطل.

- أرَى ذلك.. للمرّة الثانية أجِد نفسي أتصرّف بغباء.

- لماذا؟ بوصفك فدائيّ فأنت مكرَّسٌ للموت. لقد أعلنّاك شهيداً وها أنت قد عُدت لتُفسد مخطّطاتنا. آن الأوان لإرسالك إلى الجنّة الموعودة للشُّجعان.

- أتظنُّ ذلك؟ لقد اكتشفت أكاذيبك! فتحت لنا حدائق ملوك الديلم، تلك هي جنّتك! وبتأثير هذا السراب قتلت رجلاً، رجلاً هو فخر بلاده؛ رجلاً وهو على مشارف الموت كشف لي عن بصيرتي.

- على رِسلك يا «ابن طاهر»، كلُّ البشرية تعيش حالةً من العمَى مثلك.

- كيف يسَعُهم أن يكونوا خلاف ذلك طالما أنّ الذين محضناهم ثقتنا يسيئون استغلالها. أجل، كنتُ أول من آمن بك. لقد توقّعت كلَّ شيء إلاّ أن يكون رجلٌ مثلك يرَى فيه عدد كبير من المؤمنين نبيًّا، ليس إلاّ مخادعاً فاسداً.

- ألَديك رغبة أخرَى تريد الإعراب عنها؟

- لعنك الله.

ابتسم «الحسن» وقال:

هذه هي الكلمات التي لا تخيفني على الإطلاق.

شعر «ابن طاهر» بتهالُكٍ في قواه، فحاول جاهداً أن يتماسك.

- سوف تقتلني، أعرف ذلك، ولكن قبل ذلك أريد أن أطرح عليك سؤالاً.

- إنّي أصغي إليك.

- كيف تخيّلت هذا المخطّط الفاسد خصوصاً على حسابنا، نحن الذين كرّسنا أنفسنا لك جسداً وروحاً؟

- هل تريد أن تعرف الجواب الحقيقي؟

- لا أريد سواه.

- إذاً، استمع لِما سأقول، وليكن هذا آخر فرصةٍ لك. كنتُ دائماً أروي لأتباعي أنني مِن أصل عربيّ. حاول أعدائي إثبات العكس، وكانوا في ذلك على صواب. أمّا لماذا تصرّفت هكذا؟ فذلك لأنكم أنتم، الإيرانيّون، دنّستم عرقكم، ولإنكم ترَون آخر فقير يأتي من بلاد النبيّ هو أعظم الرجال قدْراً. لقد نسيتم أنكم أحفاد «رستم» و«زهراب» و«مينوشهر»، وأنكم ورثة ملوك فارس؛ نسيتم لغتكم، لغة الفردوسي والأنصاري وشعراء كثيرين غيرهم. خضعتم لديانة العرب ولسيطرتهم الروحية، والآن تزحفون أمام التُّرك، سارقي الخيول الآتين من الهوب! ترضَون منذ نصف قرن أن يحكمكم هؤلاء السلاجقة الكلاب، أنتم أبناء زرادشت! إبّان شبابي أقسمت اليمين مع اثنين من أصدقائي، الأول هو الوزير الذي قتلته، والثاني هو الشاعر عمر الخيام. تمّ الاتفاق بيننا على القضاء على هؤلاء المغتصبين، والسعي لبلوغ أعلَى درجات السُّلْم الاجتماعي والتعاون فيما بيننا في هذا السبيل. سعيت للحصول على أداة عبر أنصار عليّ أعداء بغداد، وبالتالي أعداء السلاجقة. على العكس من ذلك، دخل الوزير في خدمة هؤلاء. في بادئ الأمر تصوّرت أنّ ذلك كان مناورةً منه الْتزاماً بقسمنا. وعندما حذّرته من مغبّة عمله، دُهش لدَى معرفته أنني ما زلت متمسّكاً بأمور صبيانيّة. أدخلني إلى البلاط ولكنّه لاحظ أنّي أمين على قَسَمي القديم. ولّما لاحظ تزايد تأثيري في البلاط قرّر القضاء عليّ واضطُرِرْتُ للفرار، وأصبحت مطلوباً من قِبَل السلطة وحُدِّد ثمن رأسي بعشرة آلاف قطعةٍ من الذهب. تنعّم الوزير بالعزّ والجاه صاغراً أمام الأغراب. أمّا عمر الخيام فكان

شاغله الخمرة والنساء، يبكي حرّيته المفقودة ويسخر من العالَم بأسره. فيما خصّني بقيت مؤمناً بآرائي. لقد فتحت لي هذه التجربة كما سواها آفاق المعرفة، أدركت أنّ الشعب غير مبالٍ بل متكاسل وغير مستعدٌ للتضحية. أتظنّ أنّ غالبيّة الناس توّاقة لمعرفة الحقيقة؟ على الإطلاق! هم ينشدون الراحة ويسعدون بالأساطير تغذّي مخيّلاتهم. هل تظنّ أنّهم يهتمّون بالعدالة؟ إنّهم يهزأون منها شرط أن تحقّق لهم منافعهم الشخصيّة، وبما أنّ الإنسانية هكذا وجدت من المناسب أن أستغلّ نقاط ضعفهم لبلوغ هدفي الأعلَى. عمدت لاستغلال غباء الناس وسذاجتهم، ركّزت على شهيّتهم لحُب المُتَع وميولهم الأنانية. هكذا فتحت أمامي الأبواب وأصبحت نبيًّا شعبيًّا، هذا النبيّ الذي رغبت أنت وضع نفسك بتصرُّفه. الآن يتهافت الأتباع إليّ وأجد نفسي مندفعاً إلى الأمام حتى تنهار المملكة السلجوقية.

أصغَى «ابن طاهر» غير مصدِّقٍ أذنيه، لم يكن ينتظر من «الحسن» أن يبرِّر أعماله بهذا الشكل، ويظهر أنّه لم يُنْهِ مطالعته بعد.

– لا تحدِّثني عن الشجاعة المزعومة لصديقيك. طوال حياتي كنت دائماً عُرضةً لأن أخسر رأسي. لو كنت أعلم أنّ موتي يمكنه أن يحرِّر عرش إيران من المستبدِّين الغرباء لضحّيت بنفسي من دون تردُّد. كنتُ أعلم أنّ إزاحة مستبِدٍّ عن العرش لن يؤدّي إلاّ إلى استبداله بسواه، وبالتالي فإنّ موتي لن يخدم القضية. لذا كان عليّ اعتماد أسلوب آخر، البحث عن متطوِّعين مستعدِّين للتضحية كي أجني ثمرة تفانيهم.، أي تنشئة شبّانٍ على استعداد للوصول إلى أعلَى المقامات. ولكنّي لم أوفّق في العثور على رجالٍ يملكون

الجَرأة للتضحية من أجل الغاية السّامية التي أسعَى إليها. من أجل ذلك لجأت إلى وسيلة أخرَى. هذه الوسيلة أنت تعرفها، إنّها الجنّة الوهمية التي جهّزتها أفضل تجهيز من الجانب الآخر لهذه القلعة مستفيداً من حدائق ملوك الديلم كما سبق وأشرت أنت. أين يبدأ الوهم في الحياة وأين تنتهي الحقيقة؟ هذا أمر يصعب تحديده. أنت ما زلت شاباً كي تستوعب هذه الأمور، ولكنّك، لو كنت في مثل عمري، لكنت أدركت أنّ جنّة كلّ إنسان ليست إلاّ سراباً لرغباته الخاصة، وأنت لو لم تكشف خدعتي لكنت قد مِتَّ سعيداً قرير العين على غرار سليمان ويوسف.

هزّ «ابن طاهر» رأسه مشوّش الأفكار.

- ما رأيك بي الآن؟

ابتسم «ابن طاهر»:

- أصبحت أقرب إليّ.

- ربما بإمكانك الآن أن تفهم ماذا يعني أن تجوب البلاد طوال أربعين عاماً تحمل في قلبك مشروعاً كبيراً، وأنْ تسعَى طوال عشرين عاماً لتحقيق هذا الحُلُم، ومِن حولك عالم أشبه بجيش من الأعداء يحاصرك في قلعة. عليك أن تكون شجاعاً جَسوراً وحذِراً، هل ترَى بوضوح؟ هل ما زالت على اعتقادك أنّي مجرم بغيض؟

- أنت تعرف أنّ رأيي، وأنا في هذه الحالة، ليس له أدنَى قيمة. فجأةً تقدّم «الحسن» نحوه وفكّ وثاقه.

- انهض، أنت حُرّ.

جحظت عينا «ابن طاهر»:

- ماذا تريد أن تقول، لا أفهم شيئاً، قال مرتبكاً.

- أنت حُرّ.

- حُرٌّ، أنا، هل نسيت أنّي جئت لقتلك؟

- «ابن طاهر» لم يعُد موجوداً. الآن عليك استعادة اسمك الحقيقي «أقاني». الذئاب لا تأكل بعضها.

أجهش «ابن طاهر» بالبكاء وارتمى على قدميه:

- السماح، السماح!

- اذهب يا بنيّ، تعلّم وفتّش عن المعرفة، لا تتراجع أبداً. دع عنك كلَّ أحكامك السابقة، كن شجاعاً. عندما لا يستطيع العالَم منحك أيّ جديد عندها عُد إلينا. ربّما لن أكون هنا. ولكن مَن هم مخلصون لي سيبقون. أهلاً بك.

قبّل «ابن طاهر» يد الرئيس، نظر إليه «الحسن» في أعماق عينيه ثم عانقه بحرارةٍ حابساً دموعه.

- يا بنيّ، قلبي المرهَق يجد سعادته فيك، سوف أعطيك ما يلزم لرحلتك.

- أيَسعُني أن أتأمّل لمرّة أخرَى هذه الحدائق؟

صعدا إلى الشُّرفة، حيث تمتدّ تحت أقدامهما الحدائق الغنّاء. تأمّلها «ابن طاهر» متنهِّداً، لقد تداعَى آخر حاجز في أعماقه. جمع حوائجه، ولم ينسَ قصائده العزيزة عليه، وغادر القلعة بكامل سلاحه مزوَّداً بالنقود ومصحوباً بمطيّة تحمل حاجياته. بدا له العالَم جديداً كأنه يراه للمرّة الأُولَى. آلاف الأسئلة تنتظر الإجابة عنها، «ابن طاهر» الفدائيّ قضَى، والآن الفيلسوف «أفاني»، ينطلق في طريق صعب طويل.

عاد «الحسن» إلى جناحه يُفعم قلبه شعور لم يعهده من قبل. بعد قليل حضر «الدايان» مسرعَيْن إلى «الحسن».

- ماذا يعني هذا! هل تعلم أنّ «ابن طاهر» غادر القلعة، الجميع شاهدوه يخرج هادئاً مطمئناً.

- أنتما مخدوعان، هذا ما شُبِّه لكما. «ابن طاهر» قد مات شهيد الإسماعيليّة، بالتأكيد هذا أحد سواه. أنا شخصيًّا لا أعرف شيئاً. دعوني أعترفْ لكما أنّه قد حصل لي أمر ممتع، عليّ أن أقوله، لديّ الآن ابن.

استمع «الدّايان» لِما يقوله «الحسن» بمنتهَى الدهشة والاستغراب، هزّا رأسيهما، ونظر الواحد للآخر، لا مجال بعد هذا لأيّ تعليق. عادت المفرزة التي واكبت «ابن طاهر» إلى نهوند ومعها «ابن وقّاص» أسيراً. في أثناء مسيرتهم حاولوا الاستعلام من الناس الذين الْتقَوهم عن أيِّ خبر يتعلّق بالحسن، ولكن ما هو مأمول لم يقع.

في نهوند لم يجد فخر المُلك ابن الوزير القتيل أفضل من إعدام «ابن وقّاص» بشكل علنيّ باعتباره المجرم القاتل بهدف الانتقام لأبيه واستيعاب ضغط الرأي العامّ حول فرار القاتل الحقيقيّ.

في هذا الوقت كان «ابن طاهر» قد غادر بلاد إيران باتّجاه الهند، عليه الآن أن يشُقّ طريقه بنفسه.



الفصل التاسع عشر

شاع نبأ مصرع الوزير الأكبر وانتشر من إقليم إلى آخر، زارعاً القلق في المملكة السلجوقية المترامية. سيكون لهذه الحادثة نتائج كبرَى من شأنها أن تنعكس سلباً على الإسلام عموماً.

قلعة «زورجامباداان» الواقعة في إقليم خوزستان، منطقة ارتكاز المقاومة الإسماعيليّة، والتي أنهك رجالها الجوع والرعب، وكانت على وشك الاستسلام، فُكّ الحصار عنها ليلاً كما حصل في «آلاموت Alamut». فالوزير الأكبر قد قُتل، وخليفته تاج المُلك هو صديق «الحسن». لذلك ارتأى «كيزيل صاريك» أنّه من غير المفيد استمرار الحصار، وانسحبت قواته بمبادرةٍ منه قبل أن يتلقّى توجيهات السلطان، أو الوزير الجديد. بعد بضعة أيام، عندما قدم رسول «الحسن» إلى الشيخ «ابن آطش» ينقل إليه رسالة بوجوب تسليم قاتل الدّاي الكبير، دهش لدخوله القلعة بهذه السهولة. في اليوم نفسه غادرت قافلة كبيرة حسنة التسليح ناقلة حسين إلى «آلاموت Alamut».

أدّى نبأ تشتُّت قوات السلطان أمام «آلاموت Alamut» و«غامباداان» إلى تنبُّه تاج المُلك للخطر الذي بات يمثّله حليف الأمس على كلّ البلاد.

وإذ أصبح الآن خلفاً لنظام المُلك، وحاكماً للمملكة، فقد بـات مـن واجبـه تحمّل تبعات الأمن ومسؤولياته، والأمر الـصارم الـذي أصـدره الـسلطان بالتعامُل مع الإسماعيليّين من دون رحمةٍ جاء في وقته؛ لذلك أقال على الفور الأميرين «أرسلان طاش» و«كيزيـك صـاريك»، وعـيّن مكـانهما ضـابطَين تركيّين فنيَّـين، وزوّدهمـا بـأوامر مـشدَّدة بوجـوب إعـادة تجميـع القـوات وتنظيمها استعداداً لهجوم جديد على «آلاموت وغامباذان».

- هذه الأسابيع الأخيرة بدت مقلقة. لخّـص «الحـسن» الوضـع أمـام «الدايِّين». نحتاج لبعض الراحة للاستعداد للمعارك المقبلة، وعلينا كـذلك ترميم العورات التي ظهرت في بنيتنا، فلنحاول بالتالي أن نبرم اتفـاق هدنـة مشرِّفاً مع السُّلطان.

تمّ اختيار الفـدائي «حلفـا» لنقـل الـشروط التـي ينـوي اعتمادهـا إلى السُّلطان في مقرّه في بغداد. أرسل له المقترحـات التاليـة: عليـه أن يعيـد إلى الإسماعيليين القلاع والحصون التي كانت لهم قبل الحملة التي وُجِّهـت إلى معاقلهم من قِبَل الوزير. وعلى السُّلطان التعويض عن الخسائر التي مُنِيَـت بها هذه القلاع. بالمقابـل يتعهّـد «الحـسن» بـالإقلاع عـن ضـمِّ أيّـة مواقـع جديدة. وفي الوقت نفسه، هو على استعدادٍ للدفاع عن كلِّ الحدود في شمال البلاد ضدَّ البرابرة. لكن على السلطان أن يدفع مـن أجـل نفقـات الجـيش الذي يضعه بتصرُّفه مبلغ خمسين ألف قطعـةٍ ذهبيّـةٍ سـنويّة. عنـدما وضـع «الحسن» ختمهُ على الرسالة لم يتمالك نفسه من الابتسام، لقد شعر أنّ هـذه العروض تشكِّل تحدِّيًا حقيقيًّا، وكان يتشوّق لمعرفة كيفيـة تلقّـي الـسُّلطان لها، لأنّ ما يطلبه من عظمة السلطان ليس أقلَّ من جزية سنويةّ!

بالرغم من كون الفدائيّ رسولاً من «الحسن» أوقفه عملاء السلطان في «همذان»، واقتادوه إلى بغدادَ مقيَّد القدمين. نقل رئيس الحرس إلى سيِّده الرسالة، وعندما اطّلع السُّلطان على مضمونها شحب لونه وارتجفت شفتاه. صرَف كلَّ أعوانه الحاضرين ولم يترك شيئاً في القاعة إلاّ حطّمه وألْقاه أرضاً غضباً من جسارة ووقاحة «الحسن»، ثم ارتمى على الأرائك متهالكاً متعَباً.

بعد أن هدأ غضبه طلب من مستشاره الشخصي وقائد حرسه أن يشيرا إليه برأيهما.

- فلْيكثِّف جلالته الحملات العسكرية ضدّ الإسماعيليّين، اقترح الضابط.

- ولكن، ينبغي أيضاً الردّ على الإهانة، قال المستشار، واسمح لي، يا صاحب الجلالة، أن أحرِّر الرَّدَّ المناسب.

تمّ اتّخاذ قرارٍ بإرسال ضابطٍ يُدعَى «حالف» كرسول لنقل هذه الرسالة التي تضمّنت تهديداً مباشراً إلى «الحسن» ينذره فيها بوجوب إخلاء كلِّ القلاع التي احتلّها بطريقة غير شرعية، وفي الحالة السلبية، فسوف تُدَكُّ هذه القلاع حجراً حجراً، ولن يبقَى فيها أحدٌ حيًّا على الإطلاق، كما نعتت الرسالة «الحسن» بالمجرم والخائن لوطنه.

استلم الضابط الرسالة وقفز على جواده وانطلق إلى «آلاموت Alamut». في غضون ستّة أيام كان أمام القلعة.. أبقاه «مينوشهر» في البُرج

ونقل الرسالة إلى «أبو علي» الذي سلّمها بدوره إلى «الحسن». قرأها الأخير بدمٍ باردٍ وعرضها على «أبو علي»، ثم استدعَى «بوزرك» حيث عمدوا إلى استعراض الوضع من كافّة جوانبه.

- متعالياً متباهياً بعظمته وقوّته، لا يبدو أنّ السلطان يأبه للخطر الذي يُحْدِق به ولا يريد الاعتراف بنا؛ لا بأس.

أمر بتقييد الرسول واستحضاره إليه.

حاول الرسول المقاومة في البدء:

- إنّها جريمة! صاح عالياً. أنا رسول جلالته، سلطان المملكة وشاه إيران، إذا ما أوثقتموني فأنتم تحقِّرونه هو شخصيًّا.

مَثُل الرسول مكبَّلاً أمام «الحسن»، ولم يُجْدِه نفعاً اعتراضه وممانعته.

- أين هو مُوفَدي؟ سأل «الحسن» ببرودة.

الْتزم الرسول الصمت... فكرّر «الحسن» السؤال بصوت آمرٍ جافٍّ ونظر صارم. أخفض «حالف» عينيه ولم يُجِب.

- هل أصبحت أبكمَ؟ انتظر قليلاً، سوف أحُلُّ عقدة لسانك على الفور.

طلب إلى «العبد» استدعاء الجلاّد، وأعوانه، مع أدوات التعذيب، ثم التفت إلى «الدايِّن» يتحدث إليهما بشكل مألوف.

حاول «حالف» أن يتكلّم فقال:

- أنا رسول جلالته وإنّي أنفّذ أمره فقط.

لم يكترث «الحسن» له وظلّ يتابع حديثه مع زميليه. بعد قليل حضر الجلاد ومعه معاوناه وباشروا على الفور تحضير منصبة التعذيب والجمر وتوابعها. بدأ العرق يتصبّب من الرسول الذي بدأ يبلع لعابه بصعوبة.

- كيف يسعُني أن أعرف ما حلّ برسولك؟ قال بصوت مرتجف، بكلّ بساطة تلقّيت أمراً ونفّذته.

تظاهر «الحسن» بعدم سماعه، في الوقت الذي كان الجلاّد قد أصبح جاهزاً.

- كلُّ شيء جاهز، سيّدنا.

- إبدأ بحرقه قليلاً.

تناول الجلاد قضيباً من الحديد ووضعه في الجمر حتى يحمرّ.

- سأقول كلَّ شيء، صاح «حالف».

- سيّدي، الرحمة، الرحمة! السلطان شخصيًّا قتل رسولك بسيفه.

الْتفت «الحسن» نحوه وطلب إلى الجلاد التريُّث.

- ها قد عاد إليك النُّطق! إذن السلطان هو مَن قتل رسولي. هذا مؤسف، هذا مؤسف!

كان على الدوام توّاقاً لطريقة تسمح له بإرهاب السلطان، وبينما هو مستغرق في تأمُّل تقاسيم الرسول خطر له خاطر.

- اذهب واستدعِ الطبيب، طلب إلى «العبد».

بانتظار وصول الطبيب أومأ «الحسن» إلى «الدايين» للّحاق به إلى غرفته.

- لا يمكننا الانتظار ستّة أشهر أخرَى، قال لهما، علينا إبادة العدوّ الآن قبل أن يسبقنا. السلطان بدأ حُكماً باستنفار قوّاته للقضاء علينا.

لكنّ «الحسن» لم يبلّغهما ماذا بنيّته أن يفعل الآن. بعد قليل حضر الطبيب ودخل إلى الغرفة.

- هل شاهدتَ أسيرنا؟ سأل «الحسن».

- أجل، شاهدته في الغرفة الجانبية.

- عُد إليه، أودُّ منك أن تتفحَّص تفاصيل شكله.

- غاب الطبيب لفترة ثم عاد.

- هل ترَى بين فدائيّينا من يشبهه؟ سأل «الحسن».

نظر إليه متعجِّباً!

- لا أفهم ما تريد أن تقول، سيِّدنا، وجهه يشبه إلى حدٍّ ما وجه عبيدة، وبُنيته تشبه نوعاً ما «حلفا» الذي أرسلته منذ أسبوعين إلى مكان أجهله، ربما يشبه «عفّان». لست متأكِّداً، فساقاه مقوَّستان كساقَي «جعفر»، هل ترَى ذلك؟

تصبّب العرق فجأةً من جبين اليونانيّ ممّا أضحك «الحسن».

- أنت طبيب وفنّان، هل بوسعك تحويل جعفر لشبيه لهذا الرجل؟

تهلّل وجه الطبيب.

- هذا الفنّ هو صنعتنا واختصاصنا.

- أرأيت، هكذا نحن على تفاهم تامّ. انطلق الآن وباشر العمل.

استأذن الطبيب بالانصراف، واستدعَى «الحسن» جعفر... وعندما مثُل أمامه توجّه إليه قائلاً:

- لقد اخترتك لَمهمّة جليلة، ما إن تنفّذها حتى يُصبح اسمك خالداً محفوراً في السماء وتُفتح لك أبواب الجنّة.

تذكّر جعفر «ابن طاهر». لقد تمّ تكريمه كشهيد ومع ذلك فقد رآه بأُمّ عينيه عائداً إلى «آلاموت Alamut» وهو شخصيًّا عاد وسلّمه اللُّفافة التي أودعها لديه قبل انطلاقه إلى نهوند. ويبدو أنّ وراء ظهوره واختفائه لغزاً يتجاوز معارفه..

- رهن أوامرك، سيّدنا!

بدا على محيّاه الفخر والاعتزاز.

زوّد «الحسن» جعفر بتعليمات دقيقة.

- عليك أن تراقب جيّداً الأسير في الغرفة المجاورة، وتسجّل في ذاكرتك كلَّ حركة من حركاته، أسلوبه في الكلام ولهجته، ثم عليك أن تحفظ كلَّ ما تسمعه منه خلال الاستجواب، حيث ستكون حاضراً، بعد

ذلك عليك أن تصبح قادراً على تقليده بشكلٍ يُوحي لمن يـراك أو يكلِّمـك آنّك «حالف». دخل «الحسن» وجعفر إلى حيث الأسير، وبـاشر «الحـسن» استجوابه.

سأله عن اسمه وعائلته ومكـان ولادتـه وعـن عمـره، متـى دخـل في جيش الـسلطان، المواقـع التـي خـدم فيهـا، ثـم أسـماء المـدن التـي زارهـا والطرقات التي اجتازها. علم منه أنّ له زوجتـين أنجبـت كـلٌّ واحـدةٍ لـه صبيًّا، ثم سأله عن رؤسائه وعاداتهم، عن رفاقه، أوقات خدمتهم. كما حدّد لهم كـلَّ التفاصـيل المتعلِّقـة بمواقـع إقامـة الـسُّلطان في أصـفهان وبغـداد والتدابير الأمنية المتّخَـذة في أجنحـة الـسُّلطان. في النهايـة ألـزم «الحـسن» الأسير بالإفادة عن كـلِّ مراحـل رحلتـه إلى «آلامـوت Alamut» ثـم أمـر الجلاّد بفكّ وثاقه ليتمكّن من خلـع ثيابـه. بإشـارةٍ مـن «الحـسن»، قـبض الجلاّد على الأسير من عنقه بيد قويّة، وأحـضر معاونـه القـضيب الملتهـب كالجمر فرضخ الأسير للأمر.

– هذا دورك، لتُظهر لنا فنّك، قال «الحسن» للطبيـب، أيُّهـا الـسجين! قل لنا كيف أُصبت بهذه الجُروح؟

مرتجفاً خائفاً أفصح «حالف» إنَّهـا بـسبب خـلاف مـع أحـد «عبيـد» السلطان.

في هذه الأثناء استحضر الطبيـب سـكِّيناً حـادّة دقيقـة، وإبـرةً طويلـة وبعض السوائل والمراهم، ثم دعا جعفر لخلع ثيابه حتى وسطه.

بأيدي طبيب فنّان باشر اليوناني رسم جـروح في جـسد جعفـر مماثلـة لتلك النُّدوب القائمة في جسد الأسير. لم يخلُ الأمر من آلام مبرِّحة تحمَّلهـا جعفر بصبر وأناة، وأحياناً بابتسامة كاذبة...

بدأ «حالف» يستوعب نوايا «الحسن» من وراء هذا العمل، فـأيقن أنّـه إذا ما نجح هذا التقليد والتحويل فسوف يكون لدَى جعفر فرصةٌ كبرَى في أن ينجح في مقابلة السلطان باعتباره «حالف». لم يكن مـوت الـوزير غائبـاً عن ذهنه، وإذا ما نجحت الخطة فستقع اللائمة عليه.

انتظر اللحظة المناسبة، ولمّا كانت ساقاه محرَّرتان وجـد أمامـه الفرصـة الأخيرة، فوثب على الطبيب ورفسه في بطنه، الأمر الذي تـسبب بحـدوث جرحٍ كبير في وجه جعفر، ولكنّ الجلاّد ومعاونيه تمكّنـا مـن الـسيطرة عـلى الأسير الذي أُوثق من جديد رغم المقاومة الشديدة التي أبداها.

ارتبك الطبيب إزاء حجـم الجـرح في وجـه جعفـر فعمـد إلى معالجتـه وتنظيفه ما أمكن. في هذه اللحظة خطر للحسن خاطر...

- يا جعفر، ليس أمامك سوَى أن تقول أنّ هذا الجرح هو نتيجة ضربة سيفٍ من سيّد «آلاموت Alamut» عندما قرأ رسالة جلالتك...

- لقد فهمت، سيِّدنا.

- هيّا أيُّها الطبيب أكمِل عملك.

بعدها غادر «الحسن» بصحبة «الدّاييْن» وصعدوا إلى قمّة الـبُرج، بيـنما تابع الطبيب اليوناني، بيده الماهرة، إجراء عمليّةٍ جراحيـةٍ لتغيـير جعفـر إلى

«حالف»، رسول جلالته. بعد بضع ساعات تغيّر شكل جعفر وصار شخصاً آخَر. ارتدَى ثياب الأسير ومَثُل أمام الرئيس الأعلَى. فوجئ «الحسن» بمنظره، فالشَّبه بينهما مُدهِشٌ للغاية، الجُرح في وجهه، الأنف نفسه وحتى تلك البقعة من الخمر قرب أذنه! شيءٌ جديدٌ واحدٌ في هذا الوجه هو الجُرح الجديد في خدِّه.

– مَن أنت؟

– أنا «حالف»... ابن عمر.

– حسناً، هل تتذكّر الباقي؟

– كلُّ شيء، يا سيِّدنا.

– الآن، أصْغِ إليّ، سوف تُسرِجُ حصاناً وتنطلق حالاً إلى بغداد، عبر الطريق نفسها التي سلكها هذا الرسول عندما قدِم إلينا. سوف تنقل إلى جلالته الجواب الشفَهيّ لسيِّد «آلاموت Alamut». أنت تعرف الخانات ومحطات البدَل. كُن يقِظاً ومتنبِّهاً، حاول أن تستعلم في أثناء سيرك ما إذا كان السُّلطان لا يزال في مكان إقامته. حاوِل بكلِّ طاقتك أن تبلِّغ جوابي للسُّلطان شخصيًّا. هل فهمتني؟ هيّا خُذ هذه الأقراص، أنت تعرف استعمالها، خُذ منها كلَّ ليلةٍ حبّة، واحرص على أن تحتفظ بقرصٍ للَّحظة الحاسمة عندما تكون على وشك مقابلة السُّلطان. أنتَ تعرف ماذا عليك أن تفعل لدَى مقابلته كي تستحقّ الجنّة والمجد الخالد في هذه الدنيا بالنسبة للإسماعيليّين. هل هذا واضح؟

- أجل، يا سيّدنا.

- إنّي أثق بك، وأعرف أنّك لن تخيّب أملي. خُذ هذه الصُّرّة. لترافقك بركاتي في أثناء الطريق. ثم أمره بالانطلاق. وهكذا خرج من آلاموت خِنجَرٌ حيٌّ آخر لينفّذ مَهمّةً في غاية الخطورة.

في اليوم التالي وصلت من «زورغامبادان» قافلة تنقل إلى «آلاموت Alamut» المدعو «حسين» ابن سيّد القلعة مكبّلاً. سارع أفراد الحامية إلى الباحة لمشاهدة قاتل «داي خوزستان» مكبّلاً بالحديد، وقف «الحسين» بوجهٍ قاتمٍ مركّزاً نظره إلى الأرض، كان حجمه أكبر من حجم والده بقليل، وقسمات وجهه تشابه إلى حدٍّ كبير قسَمات أبيه، ولكنّ تعابيره تبدو صارمة وحشيّة لمن يتأمّله.

استقبله «مينوشهر» كأيّ سجين عاديّ.

- خذوني فوراً إلى والدي، قال السجين.

تظاهر «مينوشهر» بعدم سماعه وقال:

- أيُّها العريف، خذ ستّة رجالٍ وألْقِ بهذا الرجل في السجن. استشاط «الحسين» غضباً:

- ألم تسمع ما قلت لك؟ ولكنّ «مينوشهر» أدار له ظهره. عندها تملّك الأسير غضبٌ شديد وحاول الانقضاض على حرّاسه باذلاً كلَّ قوته، ولكنّ الضابط استدار نحوه وصفعه على وجهه فندّت عن الأسير صرخةٌ مدوّية.

اقتاد العريف «أبوتا»، ورجاله، «الحسين» إلى داخل كهف في برج الحراسة حيث تقع زنزانات «آلاموت Alamut» المرعبة، وهناك دُفع بعنف إلى الداخل فوقع على الأرض وتمرّغ جهه في الوحل.

- انتظروا قليلاً، عندما أُصبح حراً سوف أسلخ جلدكم كالكلب المصاب بالعُرّ.. ولكنّ باباً ثقيلاً أُقفل عليه كاتماً صراخه.

لقد مضَى عليه شهران وهو مكبَّلٌ بالحديد؛ فأصبح كوحش وقع في شَرَك، أصبح يكره كلَّ الناس، وهو ليس بنادم على قتله «الكاييني»، ولا يبدو عليه الخوف من مصيره. عندما كان طفلاً كان يُرعب محيطه، فلم يكن يرضَى بأية سلطةٍ عليه، وغضبه يدفعه لممارسة أسوأ أعمال العنف. أهمله والده وتركه زمناً طويلاً من دون اهتمام. هكذا نشأ في أحضان أمّه وجدِّه الذي اعتمد في تربيته العنف، لأنّه كان صعب المراس، عنيداً، عصبيّ المزاج، وعندما شبّ أصبح ميّالاً للجندية وركوب الخيل.

عندما علم أنّ والده عاد من مصر يريد الاستقرار في بلده، ذهب للقائه، ولكنه لم يتعرّف عليه: كان يعرف عنه أنّه رجلٌ سافر طويلاً وعاش حياةً مليئةً بالمغامرات. ما كان والده ينتظره منه كان تحديداً ما يحتقره ويرفضه: الدراسة والخضوع والانضباط. لذلك لم يلبث أن شعر بكُرهٍ له، وإذا كان قد حاول بادئ الأمر أن يكبت مشاعره، انتهَى به الأمر لأن يعبِّر عنها من دون قناع.

لاحقاً توصّل والده لإقناعه بالدخول في جيش «حسين الكاييني» كجنديّ عاديّ، فظنّ أنه توصّل لتحطيم عناده، ولكنّ الفتَى ظلَّ مشاغباً معانداً كسابق عهده. وقد عانَى «حسين الكاييني» منه الكثير لفترةٍ طويلة، وعندما اشتكاه لوالده لدَى محاصرة القلعة أشار إليه الرئيس بتقييده بالحديد، ولكنّ الفتَى غضب من الداي الكبير، وانتهَى به الأمر إلى ضربه بسيفه وقتله. الآن وهو في سجنه لا يبالي كثيراً بما ينتظره من عقاب، ولا يرَى أنّ جُرمَه فادح، إذ إنّه يعتقد أنّ مجرّد تفكير الداي برفع يده وتهديده، وهو ابن الرئيس الأعلَى، يكفي لتبرير فعلته.

لدَى وصوله تولّى «أبو علي» مَهمّة إخبار «الحسن» بوجود ابنه في القلعة مرميًّا في السّجن.

- حسناً، سوف أكلّمه، فليأتوا به إليّ.

توجّه العريف ورجاله إلى الزنزانة حيث «حسين».

- قُم! انهض! عليك المُثول أمام سيِّدنا!

عند باب القصر سلَّم العريف السجين إلى الحرّاس حيث أدخلوه إلى غرفة والده. وقف «حسين» جامداً على بُعد خطوةٍ من الباب، ولم يكلِّف «الحسن» نفسه عناء النظر إليه. كان يبدو وهو جالسٌ على الأرائك مستغرقاً في قراءة رُزمةٍ من المستندات. تفرَّس في وجه ابنه صامتاً لفترةٍ طويلة قبل أن ينهض من مكانه، وبحركةٍ من يده صرف الحرّاس وتقدّم من ابنه الذي انفجر صارخاً:

- عليك البَدءُ بفكِّ قيودي! منذ متى أصبح من المقبول أن يأتي ابنٌ لمقابلة والده مكبّلاً بالحديد!

- إذا كان لم يحصُل سابقاً فها هو يحصل الآن.

- إذاً أنت خائفٌ منّي.

- نقيِّد الكلاب المصابة بداء الكَلَب قبل أن نقتلها.

- إذاً أنت لا تفكّر بتحريري من قيودي؟

- لديّ انطباعٌ أنّك تجهل ما ينتظرك. عليك أن تعلم أنّني أوّل من يحترم القوانين التي أصدرتُها.

- إنّي لا أخاف مطلَقاً من تهديداتك.

- لقد قتلتَ أفضل حليف لي، وأفضل صديق، لأنّه أراد تنفيذ أوامري.

- هل صديقك هو أفضل من ابنك؟

- أجل، للأسف.

- إنّ إيران كلَّها تفتخر بأبٍ مثلك! ما عساك فاعلٌ بي!

- سوف أقول لك، إنّ القانون ينُصُّ على العقاب التالي: تُقطع اليد اليُمنَى ثمّ يُقطَع الرّأس في حضور كلِّ الأتباع.

نظر «حسين» إليه مذهولاً.

- لا أظنّك تريد أن تقول إنّ هذه هي العقوبة التي تنتظرني؟

- أتظنّ أني أصدرت هذه القوانين بقصد المُزاح؟ غداً سوف تمثُل أمام المحكمة، وسوف يقوم الدايات بمقاضاتك. أصبحتَ تعرف ما ينتظرك، هذه هي المرّة الأخيرة التي نتحادث فيها أنتَ وأنا.

في اليوم التالي، انعقدت هيئة المحكمة، وترأس الجلسة «أبو علي».

- عودوا إلى النصوص واحكُموا وفقاً لمضمونها، كان ذلك هو الأمر الذي أصدره «الحسن».

بعد أن اتّخذ الجميع مواقعهم، أدخل الحُرّاس «حسيناً». اتّهمه «أبو علي» بارتكابه جرمَين؛ الأول هو التمرُّد على رئيسه، والثاني الإقدام على قتله، والجُرمان عقوبتهما الموت.

- هل تُقِرُّ بخطئك يا ابن «الحسن»؟

- لا أعترف بأيّ خطأ، أعترف فقط بالواقعتين اللتين ذكرتهما.

- إنّ مجرّد التمرُّد على الرئيس يكفي للحكم بالعقوبة القُصوَى.

انفجر «حسين» غاضباً:

- لا تنسَ أنّي ابن الرئيس الأعلَى.

- القانون لا ينصّ على أيّ استثناء، بالنسبة «للداي الكاييني» لم تكن سوَى جنديّ بسيط.

- هل لديك أيُّ عذر مخفِّف؟

- أيَّ عذر تنتظر منّي؟ الكاييني اشتكاني غدراً إلى والدي ليتخلّص

منّي ولم أستطِع تحمُّل تصرُّفٍ من هذا القبيل، فأنا لست أيًّا كان، أنسيتَ ذلك؟ أنا ابن زعيم الإسماعيليّين.

- أنت تمرّدت عليه، والرئيس الأعلَى شخصيًّا أمر بتقييدك بالحديد عقاباً لك. بعد ذلك أقدمت على قتل مَن قام بتنفيذ أوامر والدك؛ أليس هكذا جرت الأمور؟

- حسناً، يا عبد الملك، اقرأ نصّ القانون المتعلّق بجرم التمرُّد على الرئيس والإقدام على قتله!

وقف عبد الملك، فتح الكتاب الضخم ثم وضعه على جبهته احتراماً. وبدأ يقرأ النّصّ بصوتٍ عالٍ. ما إن أنهَى القراءة حتى أغلق الكتاب وانحنَى باحترام أمام المحكمة مُفسِحاً في المجال أمام «أبو علي».

- أيُّها «الدايات» المحترمون! لقد سمعتم ما ينصّ عليه القانون فيما خصّ جُرم التمرُّد على الرئيس وقتله. إنّي أسألكم إذا كنتم مقتنعين بمسؤولية المتَّهم عن هذين الجُرمين، راجياً أن يكون رأيكم معتمداً على ضميركم ورجاحة عقلكم.

توجّه «أبو علي» إلى كلّ «داي» بمفرده طالباً إليه إبداء رأيه عن مسؤولية المتّهم، فكانت إجاباتهم جميعهم بالإيجاب: إنّه مذنب. هكذا صدر الحكم بالإجماع...

بالرغم من كونه مقيَّداً، بدأ «حسين» يصرخ ويوجّه الشتائم ناعتاً المجتمعين بأقذع النعوت محاولاً الانقضاض عليهم، ولم يتمكّن الحرّاس

من ضبطه وكبح جماحه إلاّ بصعوبة قُصوَى. بعد أن صوّت أعضاء المحكمة بالإجماع وقف «أبو علي» بكلّ وقار وتوَجَّه إلى أعضاء المحكمة قائلاً:

- أيُّها «الدايات» الأجلاّء، وجدتم المتّهم مذنباً بالإجماع بالنسبة للجُرمَين المنسوبَين إليه، «حسين بن الحسن بن الصبّاح» سيواجه عقوبة الإعدام وسوف ينفّذ الحكم فور إبرامه من قِبَل الرئيس الأعلَى. هل لدَى أحدٍ منكم ما يقوله؟

نهض «بوزرك» وطلب الكلام:

- أيُّها الدّايات الأجلاّء! لقد سمعتم الحكم الذي صدر بحقّ «حسين بن الحسن» وفقاً لنصّ القانون، وهو عادل وشرعي. ولكنّي أودّ أن ألفت المحكمة إلى أنّ جريمة «حسين» هي الأُولَى منذ أن شدّد الرئيس الأعلَى العقوبات بالشكل الذي آلت إليه حاليًّا، لذا فإنّي أقترح الْتماس العفو له لدَى الرئيس الأعلَى إذا ارتضَى المتّهم بذلك.

لاقَى الاقتراح ارتياحاً وقبولاً من الجميع، فتوجّه «أبو علي» إلى «حسين» سائلاً إياه:

- أيُّها المحكوم! هل تطلب العفو من الرئيس الأعلَى؟

أجاب «حسين» غاضباً:

- لن أتوسّل إلى والدٍ يسلِّم ابنه إلى الجلاّد.

حاول «بوزرك» و«عبد الملك» إقناع المتّهم بالرجوع عن عناده، وأفهماه أنّ الأمر لا يتطلّب منه سوَى كلمةٍ، ولكنّ مساعيهم ذهبت أدراج الرياح. لم يعُد أمام هيئة المحكمة سوَى إبلاغ الرئيس الأعلَى بالحُكم الصادر بالإجماع. دخل «أبو علي» و«بوزرك» و«عبد الملك» إلى غرفة الرئيس وأبلغوه بالحُكم.

أصغَى «الحسن» ببرودةٍ لقرارهم، وعندما قدّم له «بوزرك» الْتماس العفو رفضَه على الفور وقال:

– أنا مَن أصدر القوانين، وأريد أن أكون أوّل مَن يخضع لها.

حاول «الدايات» إقناع الرئيس الأعلَى العفو عن ولده من خلال الْتماس أعذار مختلفة لثنيه عن قراره، ولكنه ظلّ متمسّكاً برأيه راغباً في إعطاء المثل للإسماعيليّين في أهمّية تطبيق القانون على الجميع من دون محاباة وتمييز..

استلم نصّ الحُكم، قرأه بكلّ اهتمام، ثم تناول القلم ودسّه في المحبرة ووقّع بيد ثابتة.

– هيّا، عليك يا «أبو علي» إعلان الحُكم في الساحة غداً صباحاً قبل شروق الشمس. استحضر الجلاّد ولْينفّذ الإعدام.

عندما ذهب الجميع وبقي «الحسن» وحيداً أسَرّ في نفسه: «بات ولدي حجر عثرةٍ أمام مشروعي، هل أصبحت حيواناً مفترساً بقراري تنفيذ

إعدامه؟ ينبغي إنجاز البنيان كما خُطِّط له، وإذا ما أراد قلبـي أن يحـول دون ذلك عليّ أن أردعه. إنّ كلّ ما هو عظيم يجب أن يتخطّى الضعف ومـا هـو إنساني».



الفصل العشرون

صبيحة اليوم التالي، قبل شروق الشمس، قُرعت الطُّبول للاجتماع. عمّ الخبر أرجاء القلعة: سوف يُعدم ابن الرئيس الأعلَى لقتله داي خوزستان.

دخل «أبو علي» مع «مينوشهر» وإبراهيم إلى زنزانة السجين. بدا صوته مرتجفاً قليلاً عندما أعلمه أنّ الرئيس الأعلَى رفض الْتماس العفو.

- تشجّع يا بُنيّ، يجب إحقاق العدالة!

نظر «حسين» إلى الرجلين بعينيْ حيوان متوحّش، ثم انقضّ عليهما، ولكنّ قدميه المكبّلتين جعلتاه يتعثّر ويسقط أرضاً. قبض عليه الحُرّاس، واقتادوه عنوةً خارج الزنزانة. في الساحة انتظمت سرّية من الجند في صفوفٍ متراصّة وفي الوسط نطعٌ ثقيل. وقف الجلاّد محاطاً بمعاونيه عارياً حتى وسطه يحمل فأساً ضخمةً غير عابئ بالحضور. سُمع همسٌ في الصفوف:

- ها هو المحكوم.

كان «حسين» يوجّه السُّباب والشتائم ويقاوم حُرّاسه كأنّه وحشٌ هائج، وهم يدفعونه بعناءٍ للتقدُّم. عندما شاهد المحكوم الجلاّد وفأسه تملّكه رُعب قاتل، وبدا غير قادر على النُّطق. لقد استوعب أخيراً ما ينتظره. امتطَى «أبو علي» و«بوزرك» و«مينوشهر» خيولهم وزعق البوق.

تقدّم «أبو علي» بمطيّته بضع خطوات إلى الأمام، نشر ورقةً وقرأ بصوت واضح نَصّ الحُكم بالإعدام ثم طلب إلى الجلاّد القيام بواجبه.

خيّم على الساحة سكونٌ مطبِق، وفجأةً ندّت صرخة مدوِّيةٌ من صدر «حسين».

قبض معاونا الجلاّد على المحكوم وحرّرا يده اليمنَى، ورغم مقاومته العنيفة تمكّن العملاقان من دفعه باتّجاه النطع حيث أرغماه على مدّ ذراعه اليمنَى. بضربةٍ واحدة من فأسه الضخمة قطع له الجلاّد يده وسُمع صوت العظم المهروس. صرخ السجين صوتاً مرعباً وفقد وعيه. رفع «العبدان» المحكوم ووضعاه على النّطع، ولم يلبث الجلاّد بضربة فأس أخرَى أن أطاح برأسه وانتهت مأساة «حسين»، ثم ألقَى معاون الجلاّد معطفاً على الجثّة الغارقة في الدماء...

ألتفت الجلاّد صوب «أبو علي» وقال بصوت جافٍّ العبارة التقليدية:

- أتمّ الجلاّد واجبه.

- حقّقت العدالة، أجاب «أبو علي».

بعد ذلك توجّه الداي إلى الجُموع قائلاً:

- أيُّها الإسماعيليون! شاهدتم الآن العدالة الصّارمة التي تسُود في «آلاموت». سيّدنا، الرئيس الأعلَى، ليس لديه أيُّ استثناء، فالقانون يعاقب بصرامة كل من يرتكب جُرماً ولا شيء يحميه من ذلك أيًّا كان مركزه أو نَسَبه. لذا أدعوكم إلى احترام القانون، والتقيُّد بالتعليمات المقرَّرة، الله هو الله، محمد نبيّنا! إلينا أيُّها المهديّ!

لم يتأخّر نبأ تنفيذ الإعدام بابن «الحسن» من الانتشار بسرعة مُدهشة في كافّة أرجاء المملكة.. وكان لهذه الحادثة أثر بالغ على سُمعة ومقام «عجوز آلاموت»، فقد اكتسب تقدير أنصاره واحترام المتعاطفين معه على حساب صورته كشخصيّة مرعبة.

تعرّض «جعفر» الذي أصبح «حالف» رسول السلطان لكثير من المخاطر، وهو في طريقه إلى بغداد. بعد تجاوزه «خوزستان» الْتقَى بشراذم كبيرة من الجيش، مُشاةً وفرساناً، هم بقايا جيش «كيزيل صارك» الذي تشتت بعد المعركة الفاشلة التي خاضوها مع الإسماعيليّين في مواقع «خوزستان».. أفسح الجنود المنهكون الطريق بصمت لجعفر عندما علموا أنّه ضابط في حرس السلطان. أمضَى جعفر ليلته الأُولَى في العراء، ولكنّه ما إن بلغ الطريق الرئيس حتى حرص على التوقُّف للاستراحة في أفخم

خانات القوافل. بوصوله إلى منتصف الطريق إلى بغداد، ألْفَى نفسه مدعُوًّا لقضاء الليل مع مجموعة من الضُّبّاط من جيش «كيزيل صارك» وعرف منهم أمر رفع الحصار عن «زورغامبادان»، والتأثير السيّء الذي ألْقَى بثقله على معنويات الجيش نبأ مصرع الوزير الأكبر. بعد عشرة أيام، وجد نفسه عند مداخل مدينة كبيرة. اعترضه عند المدخل الرئيس حرّاس مدجّجون بالسلاح.

- أنا رسول جلالته قال بنبرة واثقة.

تفحّص رئيس الحراسة أوراق مروره ثم قال له:

- حسناً، يمكنك متابعة سيرك.

بعد أن تجاوز الأسوار، شاهد على امتداد الشارع مجموعةً من القصور الرخامية، وبعيداً عنها لمح مساجد ذات قبب مذهّبة ومآذن من أشكال مختلفة ترتفع نحو السماء وأسواقاً صاخبة. ولمّا وجد نفسه عاجزاً عن تحديد الطريق التي تُوصِله إلى هدفه ارتأَى الاستفسار، فاهتدَى إلى دورية من أربعة جنود حيث توجّه إلى رئيسهم بالسؤال.

- أيمكنك أن تشير إليّ بأقصر طريق إلى قصر جلالته؟

رمقه الجنديّ دهِشاً ولكنّ جعفر سارع إلى القول:

- ما بك تتفرّس بي هكذا، أرشدني إلى الطريق.

- نحن متوجّهون إلى القصر، اتبعنا.

أخذ الجنود بلجام فرسه، فاجتازوا بضعة أحياء، ثم بدا القصر أمامه محاطاً بحدائق مترامية.

- هذا هو مقرُّ جلالته.

بناءٌ فخم أبيض اللون تضربه أشعّة الشمس. عرفه جعفر على الفور، لقد وصفه «حالف» بكلّ دقّة. تركه عناصر الدورية، وعادوا إلى مقرّهم القائم إلى طرف الحدائق، أمّا هو فتابع سيره إلى المدخل الكبير حيث صرّح بكلمة المرور.

دُهش الحارس القائم بالخدمة:

- لقد تبدّلت كلمة المرور.

- هذا لا يدهشني، فأنا رسول جلالته، وقد غادرت القصر منذ أيام، وها أنا الآن عائدٌ من «آلاموت Alamut» ولديّ رسالة عليّ تسليمها.

استُدعِي رئيس الحرس الذي رأى وجه الفارس غريباً، ذلك الوجه الذي كان معفّراً بالغبار مُنهَكاً، ويعلوه جُرحٌ على امتداد خدّه؛ فلم يجد بُداً من استدعاء ضابط الخدمة. شعر جعفر بضعف مفاجئ وبأعصاب متوتّرة. راح يراقب الضابط وهو يقترب، هل عليه التظاهر بمعرفته؟ كاد الرُّعب يتملّكه عندما صاح الضابط:

- ماذا دهاكم، هذا صديقنا «حالف» بن عمر.

- هيّا أسرع وأعلِم رئيس حرس السُّلطان بوصولي، يجب أن أقابله على الفور.

- ترجّل عن حصانك واتبعني، أجابه الضابط.

سارا صامتّين ولاحظ جعفر أنّ الضابط يتفرّس فيه خلسةً، ولكنّه لم يلمح في نظره أيّ تهديد، ويظهر أنه لا يشكّ في كونه «حالف».

- أدخل بسرعة لدَى الأمير المسؤول عن الحرس.

- وهذه المَهمّة، كيف جرت؟ قال الأمير.

- وفقاً لأوامرك، ولكنّها لم تكن سهلةً. كان الاستقبال مرعباً، لقد حاولوا إلقاء الرُّعب في قلبي لمعرفة نوايا السُّلطان، ولكنّي تصرّفت بذكاء وإنّي أنقل أخباراً مهمّة إلى جلالته.

- هل لديك رسالة؟

- كلاّ، فقط رسالة شفهية.

- ما هو مضمونها؟

- مستحيل، فهي موجّهةٌ إلى جلالته من دون سواه.

- هل نسيت عادات البلاط؟

- كلا، أيُّها الأمير، ولكنّ الضربة التي تلقّيتها من ذلك الزعيم الهرطوقي لا تزال تؤلمني وعليّ أن لا أضيِّع الوقت فلديّ معلومات مخيفة.

- كيف هو هذا الرجل، «الحسن بن الصبّاح»؟

- هو جلاّد حقيقيّ، حيوان مفترس بشكل إنسان، علينا إزالته عن هذه الأرض وتصفية أوغاده.

- انتظر هنا، سأرَى إذا ما كان جلالته يريد استقبالك.

استفاد جعفر من هذا الوقت ليبتلع آخر قرص لديه. بدأ مفعول القرص على الفور، فاستشعر مزيداً من الشجاعة والعزيمة، وبدأت تتراءَى له صُوَرٌ وأشكال غريبة أصبحت مألوفة لديه.

- صاحب الجلالة، «حالف بن عمر» عاد من «آلاموت Alamut» وهو مصاب بجُرح بليغ في وجهه وقد تعرّض للتعذيب من قِبَل زعيم الإسماعيليّين، ولديه معلومات حول نواياه سوف ينقلها لجلالتكم شفاهاً، وهو يرجو من جلالتكم استقباله. شحب لون السُّلطان فقال:

- كيف تجرَّأ على تعذيب رسولي! أدخِله على الفور ولْيعلمني شخصيًّا بما جرَى.

انسحب الأمير وأذن لجعفر بالدخول.

ارتمَى الفدائيُّ عند أقدام السُّلطان، جبهته إلى الأرض.

- انهض يا ابن عمر!

شاهد السُّلطان وجه جعفر ولم يتمالك استنكاره لِما رأى

- كيف سارت الأمور يا «حالف»؟ تكلّم، تكلّم، كيف استقبلك هذا المجرم الذي يحكم تلك الجبال، وماذا حمّلك لتنقله إليّ؟

جاهد جعفر لمقاومة الدُّوار الذي تغشّى عينيه. كلُّ ما حوله تغيّر شكله بتأثير الحشيشة وبذل قُصارَى جهده ليركّز على فكرةٍ واحدةٍ تختصر

مستقبله: «حان الوقت لإنفاذ أمر سيّدنا، الحوريّات بانتظاري!» تذكّر كلام «حالف» والكلمات التي ينبغي التلفُّظ بها في حضور السُّلطان.

- صاحب الجلالة! مجد ونور البلاد، لقد ذهبت إلى آلاموت وذلك الرجل أقدم على ضربي...

تلمّس بيده القلم في كُمّه وبحركة رشيقة جعله ينزلق إلى راحة كفّه ثم استجمع كامل قوّته ووثب على السُّلطان لطعنه، لكنّ الأخير ارتدّ إلى الخلف غريزيًّا وبحركةٍ من ذراعه أبعد القلم الذي خدشه في أُذنه. حاول جعفر إعادة الكَرّة لكنّ الأمير شهر سيفه وبضربة تدحرج رأس جعفر على الأرض.

صرخ السكرتير مذعوراً، ولكنّ الأمير أمره بالصمت، ثم أعان السلطان الذي بدا شاحباً مرتجفاً للتمدُّد على الأرائك.

- لا بدّ أنّ هذا الرسول قد فقد صوابه، قال الأمير، ثم اقترب من الجثّة ونظّف نصل سيفه بثيابه.

على أثر صراخ السكرتير سارع عدد من عناصر الحرس ومن رجال البلاط إلى القاعة. بدأ العرق يتصبّب من جبهة السلطان، ولاحظ أن طرف ثوبه ملطّخ بالدم.

- ماذا يعني هذا؟

سيطر الرّعب على الجميع، وسارع السكرتير نحوه:

- جلالتك تنزف، جلالتك مجروح.

الْتقط الأمير القلم عن الأرض وامتقع لونـه، لا تـزال حادثـة الـوزير الأكبر ماثلة في الذاكرة. تفحّص الجُثّة المُلقاة على الأرض وقـد أسـال الـدم المساحيق عن الوجه فسقطت اللحية المستعارة في يده.

- إذاً لم يكن الرجل «حالف» تمتم الأمير.

نظر إليه السُّلطان وفهم المكيدة المدبّرة. تملّكه رُعب قاتل، فكّر بـوزيره المقتول وأدرك أنّه ميّت لا محالة.

استُدعي الطبيب على عَجَل؛ وعندما حضر همس الأمير في أُذنه:

- أخشَى أن يكون السُّلطان قد جُرِح بنصلة مسمومة.

تفحّص الطبيب الجرح فلم يجده بليغاً ولكنّـه ارتـأى اللُّجـوء إلى كيّـه تحوُّطاً.

- هل ترَى أنَّ الجُرح قد يكون قاتلاً؟

سأل السُّلطان بصوتٍ يشُوبه الخوف.

- لِنأمل أن لا يكون الأمر كذلك. أجاب الطبيب.

ثم استدعَى مساعده، فأحضر له كلّ المـستلزَمات للكـيِّ عـلى الفـور. أدرك الأمير الوضع الخطير وسارع إلى إصدار تعليماته.

- يُمنع على أيٍّ كان مغادرة القصر، ولْيبقَ كلُّ ما حصل ويحصل سرِّيًّا للغاية! سوف أتولّى الآن القيادة وأتوقّع من الجميع الانصياع لأوامري.

رفع الحرّاس الجثّة إلى غرفة جانبية وتولّى خدم السُّلطان تنظيف القاعة وإزالة بقع الدماء.

رمق السُّلطان طرَف قضيب الفولاذ الموضوع في النار بقلق بالغ وسأل:

- هل هذا مؤلم جداً؟

- فليشرب جلالته بضع كؤوس من الخمر، هذا أفضل.

ما إن بدت على السُّلطان بعض ملامح السُّكر حتى همّ الطبيب بمباشرة عمله، لكنّ السُّلطان الخائف صاح به.

- سوف أقطع رأسك إذا شعرت بألمٍ لا يُحتمَل.

- بوسع جلالتكم أن تفعل ما تريد، ولكن يجب أن أكويَ الجرح.

تمكّن الطبيب من إكمال عمله ثم نقل الخدم السُّلطان على محفّة إلى غرفته حيث أسدِلت الستائر، ولم يلبث الجريح أن أخلد إلى النوم. تابع الطبيب تفقّد مريضه باستمرار، إلاّ أنه في المرة الأخيرة عاد متجهّم الوجه.

- ارتفعت حرارة جلالته بشكل خطِر، وأخشَى أن يكون السُّمُّ..

- يا أللهَ، ما هذه الجريمة؟ تمتم الأمير.

ثم دخل مع الطبيب إلى غرفة السُّلطان فسمعه يقول:

- أنقذوني! أنقذوني! قال السلطان متوسّلاً، أشعر بالنار في جوفي.

أدرك الأمير والطبيب أنّ نهاية السُّلطان باتت وشيكة، لذلك جمع الأمير الحاضرين في الغرفة الجانبية وقال:

- يجب أن نطلب إلى السُّلطان أن يؤكّد قراره فيما خصّ ولاية العهد، محمد الصغير البالغ أربع سنوات من العمر لا يمكنه تحمُّل تبعات المملكة ومصيرها. واختلفت الآراء وتباينت بين الحاضرين، فمنهم من ارتأى التريُّث ومنهم من عزّ عليه أن يظهروا أمام السُّلطان كمن ينتظر الخلاص منه، ولكن الأمير كان يرَى أنّ الأمر خطير ويتعلّق بمستقبل إيران. اقترح أحدهم استدعاء شقيقته؛ ولكن الأمير رفض هذا الاقتراح:

- سوف لن أسمح لأحد بالدُّخول، ينبغي أن لا يعلم أحدٌ أنّ السُّلطان قد قضَى بخنجر إسماعيليّ. إذا ما حصل الأسوأ علينا أن نعلن أنّه مات بتأثير الحُمّى خوفاً من أن يحصل ما وقع لدَى مصرع الوزير سابقاً، لِما يشكّله الأمر من خطر على الرأي العام في المملكة بأسرها.

استمرّ السلطان في حالة يائسة طوال الليل، في الصباح فقد وعيه ودخل في النزاع، وعند الظهيرة أعلن الطبيب توقّف قلب المريض. أجهش الجميع في البكاء، لقد فقدت إيران السيّد الوحيد الذي استطاع حكمها...

بغداد الصاخبة بأسواقها، والعامرة مجالسها، والسامقة منائرها، خيّم عليها صمتٌ مفاجئ وغرقت في الحزن. في تلك الأثناء لم يكن نبأ موت السُّلطان قد بلغ الضواحي والمقاطعات والأقاليم التي تعاني خلافات دامية وصراعات عنيفة حول مسألة ولاية العهد. انطلق الرّسل في كلّ الاتّجاهات

ينقلون النّبأ المحزن. الأمير بدوره أوفد رجاله إلى «برقيارق» المرابط على حدود الهند، وكذلك ابن الوزير نظام المُلك. في بغداد أصدر الخليفة قراراً بإعلان الحداد العامّ لمدّة ستّة أشهر، وإن كان قد اغتبط في سرّه لعودة الأمور إلى نصابها. بوسعه الآن اختيار وريث وفقاً لرغبته. من جديد، سمّى ابنه البكر وأوفد رُسُلاً ينقلون النبأ الجديد إلى أربع جهات الأمبراطورية.

فور مصرع السُّلطان، بدأت تُحاك الدسائس والمؤامرات. بدأ الطامحون إلى العرش يطلُّون برؤوسهم ويلوِّحون بأسلحتهم معتمدين على أنصارهم المتحمّسين. كلُّ إخوان السُّلطان وأبنائه لهم أنصارهم، وكلُّهم شرعوا يضغطون لصالح مرشَّحهم على الخليفة الضعيف ليقف إلى جانبهم. وهكذا كما في كلِّ زمان ومكان انقسم المجتمع إلى جناحين على وشك المواجهة: جناح «برقيارق» وجناح محمد. قبل مصرعه مال السُّلطان لصالح الأخير انسجاماً مع رغبة السُّلطانة وشريكها تاج المُلك.

كان الأمير وكبار الشخصيات والموظَّفين ورجال الدين الذين كُبحت طموحاتهم وأطماعهم في ظلّ حكم الوزير الأكبر القتيل قد اصطفُّوا إلى جانب محمد القاصر، وتمكّنوا من استمالة الخليفة لصالحهم. بدا الخلاف ساخناً، وعلى وشك أن يصبح دمويًّا. في بغداد كان أنصار «برقيارق» يعانون ضغط الفريق المعادي، ولم يكن أمامهم سوَى الاختباء أو الفرار. أمّا أنصار محمد فكانوا أشدّ بأساً، وينتظرون بفارغ الصبر أخباراً من أصفهان حيث السُّلطانة وتاجُ المُلك يحشدان القوَى. كانا بحاجة لدعم الخليفة الضعيف من خلال إعلانٍ صريح من قِبَله أمام الرأي العام بتأييد مرشَّحهما.

تلقّت القوات المتمركزة حول نهوند وهمدان لمقاتلة الإسماعيليّين في الوقت نفسه نبأ مقتل السُّلطان، وأمراً بالتخلّي مؤقّتاً عن محاصرة الإسماعيليين والتوجُّه إلى أصفهان. في منتصف الطريق الْتقاهم رُسُل السُّلطانة حيث تولَّوْا إقناعهم واستمالتهم إلى جانب الأرملة من دون أن يغيب عن بالهم توزيع أُعطيات سخيّة، وتمّ التوافق على أن تتقاضى القوات رواتب مضاعفة إذا ما أعلنوا تأييدهم لمحمد. في الوقت نفسه، اعتُمِد الأسلوب نفسه لإقناع الخليفة باتّخاذ القرار المناسب لصفّهم من خلال وعود مغرية لتتويج محمد وذكر اسمه في الخطبة في المساجد في إيران.

في هذه الأثناء وصل «برقيارق» إلى أصفهان على رأس قسم من جيشه. لم يكن قد علم أنّ أباه قد قُتل بعد وقت قصير من مصرع الوزير. وجد المدينة تسُودها فوضَى عارمة. في الشوارع جنودٌ يتراكضون ويهتفون لمحمد. أدرك عند ذلك أنه وصل متأخِّراً بضعة أيام. حاول تعبئة الشعب ضدّ أرملة السلطان ووزيرها، إلاّ أنّ خبراً وصل من بغداد: «قرّر الخليفة أخيراً إعلان محمد سلطاناً»، جعله يسارع لحشد ما بقي من قوّاته، ويتّجه صوب «سافا» حيث «طغتكين» صديق طفولته، يؤمّن له الملجأ في الوقت المناسب.

كان عليه الآن أن يجمع مؤيِّديه ويسعَى لإقامة تحالفات مع كلٍّ من لديهم أسباب للشكوَى من السُّلطان الجديد. انضمّ إليه خمسةٌ من أبناء نظام المُلك، فبادر إلى تسمية أحدهم وزيراً، وخلال وقت وجيز تمكّن من حشد جيش قويّ. أمّا السُّلطانة ووزيرها فقد فكّرا بكلّ شيء وتحقّق لهما النجاح،

ولكنّهما نسيا صديق وحليف الأمس، «الحسن». كان «طغتكين» و«مظفّر» صديقين، ومن خلال ذلك سعَى برقيارق لنسج علاقات مع سيد «آلاموت Alamut».

بينما كانت المملكة السلجوقيّة التي تسيطر على نصف العالَم تتهاوَى، وبينما أولاد وإخوان وأعمام وأحفاد السُّلطان المقتول يتنازعون السُّلطة إلى الحدّ الذي لم يعُد أحدٌ في إيران يعرف مَن يحكُم مَن، كانت المؤسسة الإسماعيليّة تؤكّد وجودها وتعزّز دفاعاتها على صورة الصخرة التي شُيِّدت عليها «آلاموت Alamut». كان نبأ مصرع السُّلطان «ملكشاه» بالنسبة لأتباع «الحسن» عيداً حقيقيًّا. أصبحت كلُّ المناطق التي تخضع للنفوذ الإسماعيلي في الرّيّ، «رودبار»، و«قزوين» وكلّ الجبال حتى «داماغان» و«زورغامباداان» في أمان.

الرُّسُل، وكذلك المفارز العسكرية الإسماعيليّة، صارت قادرةً على التنقُّل بسلام في هذه المراعي من قلعةٍ إلى قلعة من دون قلق. في الوقت نفسه بدأت آلاموت تستقبل جموعاً جديدةٌ من الأتباع وفدوا للاستقرار عند أسوار القلعة سعياً وراء العيش، وممارسة شعارئهم الدينية، لكنّ الداي «أبو سراقة» لم يستبقِ منهم إلاّ الأشدّاء والأكثر كفاءةً، داعياً الباقين للعودة إلى ديارهم محمّلين بهدايا من الرئيس الأعلَى بُغية تعبئة جموعٍ قويّةٍ وكثيرةٍ من الأتباع مرتبطين بسيِّد «آلاموت Alamut»، بالقَسَم ومُظَلّلين بحمايته المباشَرة.

وهكذا بدأت تباشير عصرٍ جديد حيث سيصبح شمال إيران على غرار مصر الفاطمية قادراً على إعلان اسم «عليٍّ» عالياً لتشُعَّ العقيدة الإسماعيليّة في كلِّ البقاع.

في مقتبل الشتاء، وصل إلى القلعة الريّس «عبد الفاضل لامباني» من الرّي ينقل رسالةً مهمّةً: أمير «سافا» «طغتكين» استقبل «برقيارق» الذي وضع قوّاته بتصرُّفه، وهو يريد أن يعلنه سلطاناً على الرّيّ، عاصمة إيران القديمة، وطلب من أجل ذلك العون والدعم من «مظفّر»، ولكن هذا الأخير نصحه بالتفاهم أولاً مع «الحسن» للتأكّد من موافقته. في الحالة الإيجابية سينطلق «برقيارق» إلى أصفهان على رأس جيشه كلِّه ما إن يُعلَن سُلطاناً ويعمل على خلع مُحمَّد. استدعَى «الحسن» «الدايَين الكبيرين» مع «مينوشهر» وأبو فاضل إلى جناحه للتشاور.

– هذه هي اللحظة الحاسمة، أسرّ إليهم عندما الْتأم شملهم. الخليفة ومعظم قادة الجيش اعترفوا بمحمد. وإذا ما تمّت الغلبة لحزب السُّلطانة فسنكون، نحن الإسماعيليّون، أول هدف لتاج المُلك. لقد تسنّم الوزارة بمساعدتنا وشأنه شأن كلّ مستبدٍّ جديد، عليه التخلُّص ممن ساعده في الظّلّ، وقد برهن أنّه رجل من هذا النوع من الرجال. كذلك سيحاول «برقيارق» التصرُّف على شاكلته عندما لا يعود بحاجةٍ إلينا، وهذا ما ينبغي علينا تجنُّبه، ليكن شعارنا: لا ينبغي لأيِّ حاكم في إيران أن يتمتّع بسلطة مطلَقة! أعتقد أنّه بوسعنا مساعدة «برقيارق» على خلع مُحمد ثم يعلنه

طغتكين سلطاناً على الرّيّ. عندما ينطلق إلى أصفهان نؤمّن حماية مؤخّرته ولكن على «برقيارق» أن يتعهّد لنا خطيًّا بعدم التعرُّض لقلاعنا وملاحقة أتباعنا في حال نجاحه. فيما بعد نبدأ بمطالبته بدفع ضريبة سنوية لقاء دعمنا له. لقد آن الأوان للحُكّام في هذا العالَم أن يدركوا أنّ حياتهم بين أيدينا. لم يعترض أحدٌ من المجتمِعين على مقترحاته، بل ساد الاجتماع جوٌّ من الألفة والمحبة تخلَّله شُرب الخمرة من قربةٍ تبادلتها الأيادي فيما بينهم.

صباح اليوم التالي، غادر «أبو فاضل» القلعة محمّلاً بالأُعطيات فوق سنام جملٍ في غاية الانشراح.

بعد سبعة أيام، وصل إلى القلعة رسول من «برقيارق» ينقل رسالةً للحسن يعلمه فيها موافقته على شروطه. على أثر ذلك أعلن طغتكين برقيارق سلطاناً على الرّيّ وتواعدا على السير قريباً إلى أصفهان. أراد تاج المُلك أن يسبقهما بجيشه إلى «سافا» فالْتقَى الجيشان قريباً من همدان حيث كانت الغلبة لبرقيارق، تمَّ أسْرُ تاج المُلك وإعدامُه على الفور. إثر هذا الانتصار، باتت الطريق مفتوحةً له إلى أصفهان، فوصل المدينة في الأيام الأُولَى من السنة، ولم يلبث أن انضمّ إليه «حسن» الابن الثاني للوزير نظام المُلك، حيث عيّنه برقيارق وزيراً. توالَى بعده عدد كبير من القادة من جناح أرملة السُّلطان، فانضمّوا إلى السُّلطان الجديد، أمّا هي فلم تكن على استعداد للتفاهم معه طلباً للسلام. كان على «برقيارق» مجابهة عمّه إسماعيل أيضاً، حاكم أذربيجان، الذي أصبح موالياً للأرملة خاتون، بعد أن أغدقت

عليه النِّعم، فتمكّن من أسْره وقتله. لكنّه ما إن انتهَى مـن تـصفية الحساب معه حتى نهض له آخرون ينازعونه السُّلطان في حلب وأنطاكية والموصل، مما دفعه إلى إلْزام الخليفة الخائف بإعلانه سلطاناً.

هكذا اشتعلت الثورة في كلّ أرجاء المملكة؛ كلُّ أمير وملك وحاكم لمقاطعة أو إقليم أعلن استقلاله ومنهم مَن لم يتأخّر في إعلان رفضه الاعتراف بالسُّلطة المركزية في بغداد، ودخل الجميع في حروب فيما بينهم حتى لم يعُد يُعرَف لمن الخطبة في بغداد.

هذه هي اللحظة المناسبة للحسن لأن يأخذ التدابير التي يستلزمها الواقع الراهن.

استدعَى «الحسن» رؤساء كلِّ القلاع التابعة له، ودعا من كلِّ المناطق الأصدقاء والأتباع المؤيّدين لعقيدته.

كان ذلك في يوم جميل من أيام الشتاء، لم يكن الثلج قد تساقط بعد، ولكنّ القمم المحيطة بالقلعة كانت قد اكتست بـرداءٍ سميك أبيض من الثلج.

كان الوقت لا يزال ليلاً عندما قُرعت الطُّبول، فنهض الجميع، ضبّاطاً، فدائيّين، وجنوداً، وباشروا ارتداء ثياب الاستعراض.

بعد صلاة الصباح، بدأ الرؤساء والضيوف الكبار يتوافدون إلى قاعة الاجتماعات المغطّاة أرضها بالأرائك. دخل «الحسن» محاطاً بالدّايات الكبار، فبدا مهيباً في معطفه الناصع البياض وعمامةٍ ببياض الثلج. وقف

الجميع وانحنَوا له إجلالاً واحتراماً. ردّ التحيّة وطاف على بعضهم مرحّباً، وعندما الْتقَى «بمظفّر» سأله عن بناته فطمأنه لحالهنّ وأنّهنّ على عتبة الزواج... دعا الجميع للجلوس ثم توجّه إليهم قائلاً:

- الأصدقاء والرؤساء الإسماعيليّون! دعوتكم إلى هنا كي نحدّد جميعاً نهائيًا، وبوضوح روح الإسماعيليّة وأهدافها. إنّ كلّ ما قمنا به بعد استلام القلعة آتى أُكُلَه، وهذا مؤشّر إلى أنّ البناء الذي شيّدناه راسخ متين. لقد اختبرنا قوّتنا وحقّقناها في القتال. بالرغم من وحدة قراراتنا وصلابتها، فإنّ بعض الأمور لا تزال غامضةً، بخاصة تلك ذات الصلة بعلاقتنا مع العالَم، وهذا الأمر في غاية الأهمّية، لأنّ نجاح أيِّ مشروع هو دائماً انعكاس للمشروع الأساس وللعوامل المتوقَّعة وغير المتوقّعة التي تواجه تحقيقه. عندما أخذنا من السلطان السابق هذه القلعة الحصينة، انطلقنا اعتماداً على دعم خليفة مصر الذي ساندنا لإنجاز هذا العمل. كان ذلك ضروريًا جداً لأنّ كياننا كان لا يزال هشًّا، أو لنقُل، غير قائم. منذ ذلك الوقت، أمور كثيرة تبدّلت، أعداؤنا الألدّاء قضَوْا، والمملكة السلجوقيّة في طريقها إلى الانهيار، أما مصر فبعيدة، ونحن قد ازددنا قوّة واشتدّ ساعدنا. درّبنا وعلّمنا وكوّنّا فدائيّين وأتباعاً ذوي كفاءةٍ عالية، عزيمتهم هائلة وتفانيهم مذهل، ماذا تعني لهم القاهرة؟ لا شيء. ماذا تعني لهم «آلاموت Alamut»؟ كلّ شيء. أيُّها الرجال، أنا عجوز، وثمّة أشياء كثيرة علينا القيام بها. قبل أن أغادركم أحبّ أن أتأكّد أنّ عقيدتنا محدّدة في أدقّ تفاصيلها. ينبغي أن تكون مبادؤنا متّبعة بكلّ دقّة حتى الدرجة الثامنة من

تسلسلنا الهرمي. عليكم أن تعلموا أيضاً أنّها المرّة الأخيرة التي سأظهر فيها أمام المؤمنين، إذ أنوي منذ الغد الاعتكاف في برجي على أن لا أبرحه مطلَقاً، وأنا الآن بانتظار اقتراحاتكم....

فتّش بعينيه عن «أبو علي» الذي نهض وبادر بالكلام:

- أيُّها الأجلاّء، أحبّ أولاً أن أدعوَكم إلى مبادرةٍ معيّنة: يبدو لي أنّ الوقت مناسب لنقطع علاقتنا مع القاهرة، أجل القاهرة. علينا أن نعلن بكلّ تصميم استقلالنا! بهذا الإعلان نُثبت للعالَم إيماننا بقوّتنا، وفضلاً عن ذلك نكتسب تعاطف الذين هم بسبب ارتباطنا بالخارج يتلكّؤون بالانضمام إلينا.

لاقَى هذا الاقتراح قبولاً حماسيًّا لدَى الرئيس الأعلَى، أمّا «مظفّر» فرمق «عبد الفاضل» بنظرة وَجْلَى.

- بالله عليكم! هل فكّرتم ماذا سيقول الأتباع الجُدُد الذين يؤمنون بالخليفة في القاهرة، باعتباره من نسل عليٍّ وفاطمة، كلُّ هؤلاء سيغادرون «آلاموت Alamut»!...

- لا تخشَ شيئاً يا «مظفّر»، أجاب «بوزرك»، هؤلاء ليسوا بذي شأن، بينما الذين نعتمد عليهم لا يؤمنون إلاّ بشعار واحد: «آلاموت Alamut»!.

- إنّ صلابة مؤسّستنا لا تُعزَى لعدد أتباعنا، أشار «الحسن»، بقدْر ما تُنسَب إلى نوعيّتهم، وهي لا تعتمد مطلَقاً على حجم ممتلكاتنا، وإنّما على متانة مواقعنا. في هذه الأماكن المنعزلة نحن الأسياد من دون منازع، ويجب

أن يكون الأمر كذلك حيث نكون. على الطفل، كي يشُبّ وينمو، أن يقطع الحبل وينأى عن أمّه.

تراجع «مظفّر» عن آرائه، فاقترح «أبو علي» تتويج «الحسن» بكلّ مهابةٍ في المراتب التي يشغلها حاليًا: المؤسّس والرئيس الأعلَى للدولة التي هي «آلاموت Alamut». نال الاقتراح التأييد بالإجماع. وهكذا تمّ توقيع ميثاق يعلن الاستقلال الكامل للدولة الإسماعيليّة بحماية الرئيس الأعلَى «الحسن بن الصبّاح» ووقّع كلُّ المجتمعين على هذه الوثيقة.

نهض «الحسن» وشكر الجميع على ثقتهم ثم أشار إلى «أبو علي» و«بوزرك» وعيّنهما كممثّلَين وخلَفَين له، إلى الأول أسند إدراة أمور الدولة الداخلية، وإلى الثاني الشؤون الخارجية. بقي عليه أن يقول بعض الكلمات:

– ها نحن قد حدّدنا الرابط الذي يصلنا بالعالَم. بقي علينا أن نواجه مسألة تنامي قوّتنا وتطويرها. إنّ على أيّة مؤسّسة تريد أن تبقَى حيّة وصامدة أن لا تتوقّف أبداً عن تنمية قدراتها؛ يجب أن نستمرّ على الدَّوام في حركة وسعي إلى التطوُّر. لقد عاينت عدداً من المواقع الحصينة في بلادنا، وبعضها لا ينتظر سوَى إعلان رغبتنا لوضع أنفسهم بتصرُّفنا، أخُصُّ بالذِّكر قلعة «لمسير» التي تشغلها، وتدافع عنها حاليًا حامية ضعيفة، عليك يا «بوزرك» الاستيلاء عليها، وأنت يا «عبد الملك» يكفيك بعض عناصر أكفّاء متحمّسين للسيطرة على قلعة «شاهديت» قرب أصفهان، سبق للسُّلطان أن شيّدها قبل مقتله. أمّا أنت يا «أبوعلي» فاحتفظت لك بالمَهمّة الأصعب، وبالتالي الأكثر أهمّية، أنت تعرف سوريا، وأنا أعلم أنّك قد

زُرت سابقاً قلعة مصياف، «آلاموت Alamut» الأُخرَى، كما يحلـو لـك أن تسمّيها، عليك الاستيلاء عليها. إنّ الفوضَى التي تعُمُّ البلاد حاليًّا ستسمح لك بالوصول إلى أسوارها من دون عقبات. بالنسبة للخطوة التالية، أنا أثق بك وستسقط القلعـة. عليـك أن تؤسِّـس فيهـا مدرسـة للفـدائيين وفقـاً لأنموذج مدرسة «آلاموت Alamut». أخيراً أُرفِّعك يا ابـن «عطّـاش» إلى رتبـة داي كبـير، عليـك أن تعـود إلى «خوزسـتان» لتـشغل موقـع «زورغامبادان» حاكماً له، وبالإضافة إلى ذلك أعهَد إليك أمر تحصين مدينة «كـوردهي»، بالتـالي الاسـتيلاء عـلى كـلِّ القـلاع المجـاورة. اذهبـوا الآن والْتحقوا بقطعاتكم. عليك يا «أبو علي» أن تحيط الجنود علماً بهذه التـدابير، وأعلِمهم بقدومي إليهم، هذه المرّة الأخيرة التي يرَونني فيها.

جُموع الأتباع المجتمعون في الباحة بأمر من «أبو علي» هلَّلوا للخطوات والتدابير المتَّخَذة بالنسبة لإعلان استقلال «آلاموت Alamut».

من الشُّرفة العُليا أطلّ الرئيس الأعلَى، فعـمّ الـسُّكون التـامّ. بـصوت جهوري قال:

- أيُّها المؤمنون الإسماعيليّون! لقد أعلمكم «الـداي» الكبـير بالتـدابير التي اتّخذناها في الاجتماع العامّ. نحن في الواقع أصبحنا أقوياء، لكنّ قوّتنـا تعتمد كلّيًّا عليكم، أي على خضوعكم التامّ لقضيّتنا. علـيكم تنفيـذ أوامـر رؤسائكم من دون تردُّد، وهم ينفّذون أوامري. أمّا أنا فأخضع لإرادة العليّ القدير الذي أرسلني إليكم. بطريقة أو بأُخرَى نحن ننفِّذ أوامـره. انطلقـوا الآن لتأدية واجباتكم، ولا تجلسوا بانتظار قـدوم المهـديّ، لأنّ المهـديّ قـد

جاء. قبل أن تهدأ عاصفة الحماس التي أثارتها كلماته كان قد اختفى عن أنظارهم. بعد ذلك شوهد للحظات في قاعة الاجتماع في وداع معاونيه ثم انكفأ إلى جناحه بصحبة الدايين الكبيرين.

- ذلك هو الفصل الأخير من مأساتنا، قال لهما وعلى وجهه ابتسامةٌ حزينة. ليس من أحدٍ فوقنا سوَى الله والسَّماء اللُّغز. نحن لا نعرف ولن نعرف شيئاً عنهما، آن الأوان للكفّ نهائيًّا عن طرح أسئلةٍ لا أجوبة لها. سوف أكتفي من العالَم بما هو كائن.. إنّ رداءته تُلزمني بتصرُّف وحيد! ابتكار خرافات مختلفة الألوان نُلهي بها أولادنا بانتظار نهاية هذا اللُّغز العُلويّ. إنّه لمسموح لرجل عجوز عرف العالَم أنّ يتوجّه للرجال بشكل خرافات وأساطير. هيّا لنذهبْ ونُلقي نظرةً على حدائقنا.

سبقهما إلى «المصعد»، ونزلوا إلى أسفل البُرج، ثم عبروا الجسر، ومن هناك قادهم «عديٌّ» في القارب إلى الحديقة الوُسطَى. بدَت الأشجار عاريةً... وفي الأرض، لا أزهار ولا اخضرار، فقط شجر السَّرو ظلَّ صامداً أمام الشتاء.

قدِمت «أباما» لاستقبالهم.

- كيف هنّ بناتنا؟ سأل «الحسن».

- يتكلَّمن كثيراً ويعملن قليلاً، ويضحكن كثيراً ويبكين كثيراً، ويفكّرن قليلاً.

- هذا أفضل، خشية أن يعتقدن أنهنّ في سجن. لا بأس، فالنساء معتادات على الحريم.

ساروا كلُّهم في صمت عبر الممرّات المهجورة.

- لا جديد في هذا الفردوس!

- لا شيء إلاّ إذا كنّا بانتظار بعض الأولاد.

- نحن نحتاج إليهم، احرصي على أن يتمّ كلُّ شيء على ما يرام.

ثم توجّه «الحسن» إلى «الدايَين»:

- سيكون هؤلاء الأولاد هم الوحيدون الذين كان آباؤهم على قناعة مطلَقة أنّ أمّهاتهم هنّ حوريّات الجنّة، مخلوقاتٌ غير أرضيّة بشكلٍ أو بآخَر.

ثم داروا حول الحوض يتأمّلون الماء الراكدة.

- سيأتي الربيع، يليه الصيف، تابع «الحسن»، بانتظار أن تعيد الطبيعة إلى الحدائق رونقها. علينا نحن أيضاً أن ننكفئ وننسحب. السماء تلبّدت برداءٍ كثيفٍ، سوف تُثلج ربّما غداً... البرد، البرد القارص اقترب.

لدَى عودتهم إلى القلعة، استأذن «الحسن» مرافقيه، بعد أن عانقهم، ثم دخل إلى جَناحه ليعتكف ويموت. واحتضنته الأسطورة تحت جناحها.

تـمّت



الفهرس

